سَحابةُ المَوتْ

DEATH CLOUD

الشاب شارلوك هولمز

YOUNG SHERLOCK HOLMES

أندرو لين

ANDREW LANE

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الشابّ شارلوك
هولمز
أندرولين
(١)

سحابة الموت

عن الرواية..

حين يموت شخصان محليان بسبب أعراض شبيهة بأعراض الطاعون، يبدأ شارلوك تحرياته عن سبب موتهما الحقيقي. وبمساعدة أستاذه الجديد الأميركي أميوس غروي له، يبدأ خطواته الأولى في مجال التحقيقات؛ فيكتشف جرائم يقوم بها شخص غدّار ونذل وشرير بطريقة لامعة مدفوعاً بنوايا سيئة.

أندرولين كاتب وصحفي. كان طوال حياته من المعجبين بشخصية شارلوك هولمز. شغفه بالروايات الأصلية التي ألفها السير آرثر كونان دويل، وعزمه على ابتكار شخصية شارلوك هولمز في سن المراهقة، مكّناه من العمل على إرث كونان دويل، لإعادة إحياء شخصية المحقق الأكثر شهرة في العالم؛ ولكن كشاب في سن المراهقة. لقد لاقى عمله نجاحاً تجارياً كبيراً ونال إشادة النقاد. يعيش أندرولين في دورست مع زوجته وولده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمهيد..

عندما شاهد ماثيو آرنات سحابة الموت للمرة الأولى، كانت تطفو خارج نافذة الطابق الأول لمنزل مجاورٍ لمكان إقامته.

كان يحث الخطى على امتداد الشارع الرئيسي في سوق بلدة فارنهايم، باحثاً عن أي فاكهة أو كِسَرِ خبز أوقعها عابر سبيل غير متيقظ. كان يُفترض بعينَيه أن تتفحّصا الأرض بدقة، ولكنه واصل النظر إلى المنازل والمتاجر وإلى الناس المحتشدين حوله. إنه في الرابعة عشرة من العمر فقط، ولا يذكر أبداً قيامه بزيارة بلدة بهذا الحجم من قَبل. في هذا القسم المزدهر من فارنهايم، تبدو المباني الخشبية القديمة منحنية فوق الشارع بغُرفها العُليا التي تلوح كسُحُب صَلبة فوق كل الأشخاص تحتها.

كان قسم من الطريق مرصوفاً بحجارة ملساء بحجم قبضة اليد. وفي الأمام، تُفسح حجارةُ الرَّصف المكانَ لتراب مضغوط تنبعث منه سُحُب غبار مع مرور جياد وعرباتِ نقل تُحدث صخَباً. وعند كل بضع ياردات كومة من روث الجياد: بعضها حديث العهد تخرج منه الأبخرة ويحوم حوله الذباب، وبعضها الآخر قديم وجافّ كضفائر قشٍّ أو عشبٍ جُمعت وتشابكت بطريقة ما.

فجأةً، شعر ماثيو بألم مضاعف. لقد مرت عليه أيام عدة على آخر مرة تناول فيها الطعام أو ما يمكن تسميته طعاماً.

اشتمّ ماثيو رائحة رَوث بخارية نتنة، ولكنه اشتمّ أيضاً رائحة خبز طازج وما بدا أنه لحم يُشوى على سيخ معدنيّ فوق النار. وتخيّل أيضاً الدهن يسيل ويطشّ داخل ألسنة اللهب، فانقبضت معِدته بسبب الجوع، وانحنى بشكل مضاعف تقريباً بسبب ألم مفاجئ. لقد مرّت أيام، ولم يعد واثقاً من مدى قدرته على الصمود على هذه الحالة.

توقف أحد المارة - وهو رجل سمين يعتمر قبعة بنّية ويرتدي بذلة داكنة اللون بدت عليها آثار سنوات الاستعمال الطويلة - بالقرب منه، ومدّ يده نحوه كما لو أنه يحاول مدّ يد العون له، ولكن ماثيو تراجع مبتعداً لأنه لا يريد المساعدة؛ فالمساعدة تقود شخصاً صغير السن لا عائلة له إلى إصلاحية الأحداث أو دار العبادة، وهو لا يريد أيًّا منهما. باستطاعته تدبّر أمره بنفسه، وكل ما يتعيّن عليه القيام به هو العثور على بعض الطعام؛ فعندما يضع بعض الطعام في داخله سيصبح بخير.

لقد انسلّ ماثيو مبتعداً داخل أحد الأزقّة قبل أن يتمكن الرجل من لمس كتفه، وما لبث أن انعطف عند زاوية أحد الشوارع حيث الطبقات العليا للمنازل تكاد

تتلامس. فباستطاعة أحدهم القفر من غرفة نوم إلى أخرى لو أراد ذلك.

عندئذٍ، شاهد سحابة الموت. لم يكن يعرف ماذا تعني، ولكنه أدرك ذلك لاحقاً. هي عبارة عن سحابة داكنة من الدخان بحجم كلب كبير بدت وكأنها تخرج من إحدى النوافذ المفتوحة، ولكنها لم تكن سحابة عاديّة من الدخان، بل بدت كما لو أن دماغاً ذاتياً يحركها، متوقفةً لبُرهة ومن ثم متابعةً طريقها في اتجاه قسطل الصرف الصحي حيث استدارت وتوجهت نحو السطح. لقد نسي ماثيو جوعه وركّز نظره بفمٍ فاغر على السحابة تنجرف فوق حافة السطح قبل أن تبتعد عن مرمى بصره.

خرقت صرخةٌ السكون - صرخة خرجت من نافذة مفتوحة - فاستدار ماثيو، وانطلق راكضاً بقدْر ما ساعدته ساقاه اللتان تعانيان من آثار الجوع المزمن. لا يصرخ الناس عادةً على هذا النحو عندما يصدمون، فوفقاً لما خبره في أعوامه الأربعة عشر، هم يصرخون على هذا النحو عندما يشعرون بخوف شديد على حياتهم، وأيًّا يكن سبب هذه الصرخة فهو لم يشأ أن يراه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

«أنت هناك! تعالَ إلى هنا!».

استدار شارلوك هولمز ليتحقق ممن يُنادي وممن ينادى له. كان هناك مئات من التلاميذ في باحة مدرسة ديبدن للفتيان يجلسون تحت أشعة شمس الصباح، وكل واحد منهم يرتدي بِذلة رسمية نظيفة، ويضع أمامه صندوقاً خشبياً ملفوفاً بشرائط جِلدية أو كومةَ مَتاع تبدو للوهلة الأولى كلباً وفيًّا جاثماً. ربما يكون المُنادى أي واحد من التلاميذ. فقد اعتاد الأساتذة في ديبدن عدم مناداة أي تلميذ باسمه، بل بـ«أنت!» أو «يا فتى!» أو «يا صغير!». لقد جعلت طريقة المناداة هذه حياة التلاميذ صعبة وفي حالة من التوتّر الدائم، ولهذا السبب ربما، اعتمد الأساتذة طريقة المناداة هذه أو لأنهم تخلّوا منذ وقت طويل عن محاولة تذكّر الأسماء. أيٌّ من السبَبين هو الأكثر احتمالاً؟ لم يكن شارلوك متأكداً من ذلك. ربما يعود ذلك للسبَبين معاً.

لم يُعِر أيّ من التلاميذ اهتماماً لنداء الأستاذ. كانوا منهمكين في التحدث إلى من جاء من ذويهم لإقلالهم إلى المنزل، أو شاخصي العيون إلى بوّابة المدرسة متلهفين لرؤية العربة التي ستُقلّهم. نظر شارلوك على مضض في اتجاه مصدر الصوت للتحقّق ما إذا كانت الإصبع تشير إليه.

كانت تشير إليه بالفعل. إنها إصبع السيد تولي، مدرّس مادة اللغة اللاتينية، الذي انعطف عند زاوية المدرسة حيث يقف شارلوك منفرداً وبعيداً عن سائر التلاميذ. بدا الأستاذ على غير عادته نظيف البِذلة التي تكون في العادة مغطاة بغبار الطبشور. إنه آخر يوم من الفصل الدراسي، واليوم الذي يجتمع فيه مع ذوي التلاميذ الذين يدفعون المال في سبيل تعليم أبنائهم. بدا المدرّس مَهيباً بالقبعة السوداء التي بدت كما لو أن مدير المدرسة ثبّتها على رأسه بإحكام.

«أنا، يا سيدي؟».

«أجل، يا سيدي. أنت، يا سيدي»، أجاب السيد تولي بحدّة. «أَسرع إلى مكتب مدير المدرسة كوام سيليريمِه. هل ما تزال تذكر ما يكفي مما تعلّمته من اللغة اللاتينية كي تعرف معنى ذلك؟».

«تعني في الحال، يا سيدي».

«إذاً، تحرّك فوراً».

ألقى شارلوك نظرة سريعة على بوّابة المدرسة. «ولكنني يا سيدي، أنتظر والدي ليُقلّني».

«أنا على ثقة تامة بأنه لن يغادر من دونك، يا فتى».

وقام شارلوك بمحاولة تملّص أخيرة ومتحدّية. «أمتعتي...».

فنظر السيد تولي بازدراء إلى صندوق شارلوك الخشبي الذي أعطاه إيّاه والده، وكان يستخدمه أثناء خدمته في الجيش، وبدت عليه آثار السنين جليةً. «لا أظن أن أحداً يريد سرقته، إلا إذا كان الدافع وراء السرقة قيمة الصندوق التاريخية. لا تقلق سأحرسه لك بشكل جيد».

ترك شارلوك على مضض صندوق أمتعته الذي يحتوي على بِذلته الاحتياطية، وثيابه الداخلية، وكُتب الشعر، ودفتر الملاحظات الذي يدوّن عليه الأفكار والتأملات والأمور العرضية التي تتبادر إلى ذهنه، وتوجه مسرعاً إلى الرواق المعمَّد عند الجهة الأمامية من مبنى المدرسة، واندفع عبر حشد التلاميذ والأهل والأقرباء، مُبقياً عينيه على البوابة أثناء اندفاعه، حيث تحاول جياد وعربات الدخول والخروج في الوقت نفسه عبر البوابة الضيقة.

كان مدخل القاعة الرئيسية مغطى بألواح خشب السنديان، ومحاطاً بتماثيل نصفية لمدراء سابقين تنتصب على قواعد رخامية منفصلة. وكانت أشعة الشمس تدخل عبر النوافذ العليا بشكل قِطري، مرتطمةً بدوّاماتِ ذرّات غبار الطبشور قبل أن تصل إلى البلاط الأبيض والأسود الذي تنبعث منه رائحة الفينول، وقد اعتادت عاملات التنظيف استخدامه صباح كل يوم. لقد جعله ضغط الناس على يقين من أن بعض التماثيل ستقع مع زحام نهاية الفصل، وأدرك أن هذا ما حدث بالفعل عندما لاحظ صدوعاً في التماثيل التي يبدو أنها سقطت وتحطمت وأُعيد ترميمها.

شق شارلوك طريقه بين الجمع، وقد تجاهله الجميع، وبعد عناء كبير دخل الممر المؤدي إلى مدخل القاعة. كان مكتب المدير على بعد بضع ياردات، وما إن وصل حتى وقف عند العتبة، وأخذ نفساً، ونفض صدرية بِذلته وشدّها بقصد ترتيبها، وقرع الباب.

دوّى صوت قوي مسرحيٌّ الطبقة من الداخل آذناً له بالدخول.

برم شارلوك مقبض الباب، فاتحاً إياه ومحاولاً في الوقت عينه قمع التوتر المُفرط الذي يشعر به والبادي جليًّا عليه. سبق له أن دخل هذا المكتب مرتين من قبل: مرةً برفقة والده عندما جاء إلى المدرسة للمرة الأولى، ومرة ثانية في العام الماضي عندما اقتيد إلى مكتب المدير مع زمرة من التلاميذ المتهمين بالغش في الامتحان. حينذاك، ضُرِب ثلاثة من التلاميذ بالعصا وطردوا من المدرسة، أما التلميذان الرابع والخامس فقد اقتصرت

عقوبتهما على الضرب بالعصا على مؤخرتَيهما حتى دَمِيتا، غير أنهما لم يُطردا.

نجا شارلوك من العقوبة، مدّعياً أن لا علاقة له بالموضوع ولا عِلم له بأي شيء عنه. وبالفعل، ثبت لدى المدير أن التلاميذ الباقين نقلوا عنه، إلا أنه كان على عِلم بكل شيء، في الواقع، هذا إن لم يكن ضالعاً بالعملية برمّتها. لقد أتاح للتلاميذ النقل عن ورقته كي يتساهلوا معه، وتجاهل لهذه الغاية شتى الموانع الأخلاقية. فقد كان على يقين بأنه لو حال دون قيامهم بذلك لَلَقي نصيبه من عقابهم الذي لن يكون أقل من تعريضه للنار حتى يتقرح جلده ويخرج الدخان من ثيابه. هذه هي الحياة في المدرسة، صراع أبديّ سرمدي بين المدرّسين والتلاميذ، وهذا بالضبط ما لا يحبه شارلوك.

ومكتب المدير، كما يذكره، رَحب ومُعتِم، وتفوح منه رائحة هي مزيج من رائحة الجِلد وتبغ الغليون. كان المدير، السيد تومبلينسون، جالساً وراء طاولة كبيرة لدرجة أنه يمكن لَعب البولينغ عليها، وهو رجل سمين يرتدي بِذلة ضيقة جداً، ويبدو أنه يتعمّد لبسها لتذكّره بالأيام الخوالي عندما كانت تتناسب وجسده المتناسق.

«آه، أنت هولمز، أليس كذلك؟ أدخل أيها الفتى وأَغلق الباب خلفك».

نفّذ شارلوك ما طلب منه المدير القيام به، ولكن أثناء إغلاق الباب، لاحظ وجود رجل ضخم يحمل كأس شراب بيده انعكس ضوء الشمس عليها فظهر قوس قزح صغير من نوع ما فوقها.

«مايكروفت؟» قال شارلوك مندهشاً.

التفت شقيقه الأكبر إليه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة سريعة لدرجة أن شارلوك ما كان لِيراها لو أغمض عينيه في الوقت غير المناسب. «شارلوك، لقد كبرت».

«وأنت أيضاً»، أجاب شارلوك. لقد اكتسب شقيقه وزناً وبات حجمه قريباً من حجم المدير، غير أن البِذلة التي يرتديها مفصَّلة بطريقة تخفي البدانة. «جئتَ بعربة والدي».

رفع مايكروفت حاجبه. «كيف عرفت ذلك؟».

فهز شارلوك كتفَيه. «لاحظت التجاعيد المتوازية على بنطالك حيث يضغط التنجيد عليها، وتذكرتُ وجود مِزق في تنجيدِ عربة والدي أُصلح منذ سنوات قليلة بطريقة غير مُتقَنة. لقد انطبع أثر التصليح على بنطالك، قرب التجاعيد». توقّف. «مايكروفت، أين والدي؟».

تنحنح المدير كي يستقطب انتباه شارلوك. «والدك...». فقاطعه مايكروفت برِفق. «أُرسل فَوْجه إلى الهند لتعزيز الحامية العسكرية هناك، سيّما وأن منطقة الحدود الشمالية الغربية تعاني من عدم الاستقرار. هل تعرف أين تقع الهند؟».

«بالطبع. لقد درسنا عن الهند في مادّتَي التاريخ والجغرافيا».

«أنت فتى صالح».

«لم أكن أعلم أن سكان البلاد الأصليين يثيرون المشاكل»، دمدم المدير. «لم تذكر جريدة التايمز هذا الأمر، إنه أمر مؤكَّد».

«الهنود ليسوا من يُثيرون الاضطرابات»، قال مايكروفت. «عندما استرجعنا البلاد من شركة الهند الغربية، خرج بعض الجنود عن سيطرة الجيش. لقد وجدوا أن النظام الجديد أشد وطأة عليهم من النظام السابق الذي اعتادوا عليه. لذلك، أرادت الحكومة زيادة عدد أفراد القوات المسلحة هناك ليكونوا مثال الجنود الحقيقيين. من السيئ بما يكفي أن يثور الهنود المنضوين تحت راية بريطانيا العظمى».

«ألا يزال العصيان قائماً الآن؟» سأل شارلوك، وشعر بقلبه يغور كحجر رُمي في قعر البركة. «وهل سيكون والدي بأمان؟».

هزّ مايكروفت كتفَيه الكبيرَين. «لا أعرف»، قال ببساطة. إنه أحد الأمور التي حملت شارلوك على احترام شقيقه. كان يقدم إجابات واضحة عن أسئلة واضحة. «للأسف، لا أعرف كل شيء، على الأقل حتى الآن».

«ولكنك تعمل لصالح الحكومة»، ضغط شارلوك على شقيقه. «ألا يفترض بك امتلاك فكرة عما يحدث؟ ألا يمكنك إرسال فوج آخر؟ وإبقاء والدي هنا في إنكلترا؟».

«لم يمضِ على عملي في مكتب العلاقات الخارجية سوى بضعة أشهر» أجاب مايكروفت، «وبالرغم من شعوري بالإطراء لأنك تعتقد أنني أملك سلطة تغيير أمور مهمّة كهذه، أخشى أنني لست كذلك. أنا مجرد مستشار، أو بالأحرى لست سوى كاتب».

«كم سيدوم غياب والدي؟» سأل شارلوك، متذكراً الرجل الضخم البنية الذي يرتدي سترة صوفية قِرمزية إضافة إلى أحزمة بيضاء تعبر صدره، ويضحك بسهولة ونادراً ما يفقد أعصابه. لقد شعر بانقباض في صدره ولكنه تمكن من ضبط مشاعره. فالأمر الأكثر أهمية الذي تَعلّمه في هذه المدرسة ضرورةُ عدم إظهار المرء مشاعرَه على الإطلاق، وإذا أظهرها فإنها ستُستخدَم ضده.

«ستة أسابيع من الإبحار قبل وصول السفينة إلى المرفأ، وستة أشهر في الهند، وستة أسابيع أخرى للعودة. أي ما مجموعه تسعة أشهر».

«قُرابة العام». أحنى رأسه لبرهة قبل أن يومئ به. «هل يمكننا الذهاب إلى المنزل الآن؟».

«لن تذهب إلى المنزل»، قال مايكروفت.

وقف شارلوك مُصغِياً دون أن يَنبس ببنت شَفَة.

«لا يمكنه البقاء هنا»، تمتم المدير. «سيكون المبنى خالياً خلال الإجازة وسيخضع للترميم».

أشاح مايكروفت بنظرته الهادئة بعيداً عن شارلوك ووجّهها نحو المدير. «والدتنا... مريضة»، قال. «بُنيتها الجسدية ضعيفة في أفضل الأحوال، وعمَلُ والدنا هذا آلمها كثيراً. هي بحاجة إلى السلام والهدوء، وعلى شخص أكبر سنًّا أن يهتمّ بشارلوك».

«ولكنك ستهتم بي»، احتج شارلوك.

هزّ مايكروفت رأسه الكبير بحزن. «أعيش في لندن الآن، وتستدعي وظيفتي أن أعمل ساعات عدة كل يوم. لن أتمكن من الاهتمام بك، مع الأسف، وأكون وصيًّا على فتى ولا سيّما فتى مُحبٍّ للبحث والتدقيق مثلك». واستدار نحو المدير كما لو أن من الأسهل عليه تزويده بالمعلومة التالية بدلاً من إخبار شارلوك. «بالرغم من كون منزل العائلة في هورشام، لدينا أقارب في فارنهايم لا يُقيمون بعيداً من هنا. إنهما عمّ وزوجته. سيمكث شارلوك معهما خلال العطلة المدرسية».

«كلا»، انفجر شارلوك.

«نعم»، قال مايكروفت بلطف. «تمّ ترتيب الأمر. لقد وافق العمّ شرينفورد وزوجته آنّا على استقبالك في عطلة الصيف».

«ولكن لم يسبق لي أن التقيتهما!».

«مع ذلك، هما عمك وزوجته».

ودّع مايكروفت المدير أثناء وقوف شارلوك بانشداه، محاولاً استيعاب فداحة ما حدث. لن يذهب إلى المنزل، ولن يرى والده ووالدته، ولن يتمكن من إجراء عمليات استكشاف في الحقول والغابات المحيطة بالمنزل الريفيّ الكبير الذي عاش فيه لمدة أربعة عشر عاماً. لا نوم في سريره القديم في الغرفة القائمة تحت أفاريز المنزل حيث يحتفظ بكل كتبه. لا تسلل إلى

المطابخ حيث تعطيه الطاهية قطعة خبز ومربّى إذا ابتسم لها. بدلاً من ذلك، يتوجب عليه البقاء طوال أسابيع مع أشخاص لا يعرفهم، وعليه التمتع بأفضل سلوك في البلدة، في مقاطعةلا يعرف أي شيء عنها، وحيداً حتى يعود إلى المدرسة».

كيف سيتدبر الأمر؟

تبع شارلوك شقيقه مايكروفت إلى خارج مكتب المدير، وعبَر الردهة في اتجاه قاعة الدخول. كانت هناك في الخارج عربة بروهام يكسو الوحل دواليبَها، وجوانبُها مغطاة بالغبار بسبب الرحلة التي قام بها مايكروفت إلى المدرسة، وشعار آل هولمز مرسوم على باب العربة. وُضع صندوق شارلوك في الخلْف، وكان حوذي نحيل لم يعرفه شارلوك جالساً على مقعد العربة في الأمام، مُمسِكاً بلجام الحصانين.

«كيف عرف أنه صندوقي؟».

فأومأ مايكروفت بيده، مشيراً إلى أن الأمر غير ذي أهمية. «رأيته من نافذة مكتب المدير. كان الصندوق الشيء الوحيد الموضوع بشكل مهمَل، كما أنه الصندوق ذاته الذي يمتلكه والدنا. كان المدير لطيفاً بما يكفي لإرسال فتى كي يُبلغه بوضع الصندوق في العربة». فتح باب العربة وأشار إلى شارلوك بالدخول، ولكنه ألقى بدلاً من ذلك نظرة من حوله على مدرسته والتلاميذ.

«يبدو الأمر كما لو أنك لن تراهم أبداً مرة أخرى»، قال مايكروفت.

«ليس الأمر كذلك»، أجاب شارلوك. «اعتقدتُ أنني سأغادر هذا المكان إلى مكان أفضل، ولكنني أعرف الآن أنني سأغادره إلى مكان أسوأ. بالرغم من مساوئ هذا المكان، إنه جيد بما فيه».

«لن يكون الأمر كذلك. فشرينفورد هو شقيق الوالد».

«إذاً، لماذا لم أسمع عنهما من قبل؟» سأل شارلوك. «لماذا لم يذكر والدنا وجود شقيق له؟».

جفل مايكروفت بطريقة غير ملحوظة تقريباً. «أخشى أن العائلة كانت تعاني من خلاف لأن العلاقات توترت لبعض الوقت. لكن الوالدة أعادت الاتصال من خلال توجيه رسالة لهما منذ بضعة أشهر. لست متأكداً من أن والدنا على عِلم بذلك».

«وأنت سترسلني إلى هناك؟».

ربّت مايكروفت على كتف شارلوك. «لو كان هناك بديل للجأتُ إليه، صدّقني. قل لي الآن، هل تودّ إلقاء تحية الوداع على أيٍّ من أصدقائك؟».

نظرِ شارلوك من حوله ورأى فتياناً يعرفهم، ولكن هل يُعتبر أيٌّ منهم صديقاً حقاً؟

«كلا، لِنذهبْ».

استغرقت الرحلة إلى فارنهايم ساعات عدة. فبعد المرور ببلدة دوركينغ، وهي أقرب تجمّع للمنازل من مدرسة ديبدِن، انطلقت العربة بسرعة على طرقات القرية بين الأشجار الممتدة، مروراً، من حين لآخر، بكوخ مغطى بقش أو بمنزل أكبر حجماً، أو بحقول مليئة تِبناً. كانت الشمس تسطع في سماء خالية من السُّحُب، محوِّلةً العربة إلى فرن بالرغم من النسمات العليلة، والحشرات تئزّ بتكاسل عند النوافذ. لبرهة من الزمن، راقب شارلوك العالم يمرّ أمامه ويصبح من الماضي، ومن ثم توقفوا عند نُزُل لتناول الغداء، فاشترى مايكروفت بعض الجُبن واللحم المقدّد، ونصف رغيف من الخبز. في مرحلة ما، نام شارلوك، وعندما استيقظ بعد دقائق أو ساعات، كانت عربة البروغهام لا تزال تمر عبر المناظر الطبيعية ذاتها. تحدّث لبعض الوقت إلى مايكروفت عما يجري في المنزل، وعن شقيقتهما، وعن صحة والدتهما الحساسة. وسأل مايكروفت عن دراسة شارلوك الذي أخبره عن صفوف دراسية متنوّعة حضرها، وعن المدرّسين، مقلِّداً أصواتهم وطرقهم المميَّزة في الكلام. لقد ضحك مايكروفت كثيراً على قسوة شارلوك وظَرفه في آن لدى تمثيل شخصياتهم.

بعد فترة، ظهرت منازل عدة على جانبَي الطريق، وما لبثوا أن دخلوا بلدة كبيرة، وسنابك الجياد تصلصل على الحصى. نظر شارلوك من نافذة العربة ورأى ما يشبه دار بلدية، وهي عبارة عن بناء مؤلف من ثلاثة طوابق مشيَّدة بجص أبيض ودعامات سود، وتتدلّى ساعة ضخمة من سِناد خشبيّ مثلّث الشكل خارج الأبواب المزدوجة.

«فارنهايم؟».

«غيلدفورد» أجاب مايكروفت. «لم تعد فارنهايم بعيدة الآن».

تُفضي الطريق خارج غيلدفورد إلى حَيد تنحدر الأراضي على جانبيه، والحقول والغابات مبعثرة في الأرجاء كألعاب أطفال، وتنتشر عبرها مجموعات من الأزهار الصفر.

«يدعى هذا الحَيد هوغز باك»، علّق مايكروفت. «في بيولي هيل إعلام إشاريّ، وهو جزء من سلسلة تمتد من مينى وزارة البحرية الملكية في لندن وصولاً إلى ميناء بورتسماوث. هل علّموك في المدرسة عن الإعلام الإشاريّ؟».

هز شارلوك رأسه.

«إنه أمر نموذجي»، همهم مايكروفت. «يحشون رؤوسكم باللغة اللاتينية، ولكنهم لا يعلّمونكم أي فوائد عملية». وتنهّد بعمق. «الإعلام الإشاري هو طريقة لتوجيه رسائل عبر مسافات طويلة، وبسرعة، قد تستغرق عدة أيام لإرسالها بواسطة الجياد. فمحطات الإعلام الإشاري مزودة بألواح على أسقفها، وتُشاهَد عن بُعد، وفيها ستة ثقوب كبيرة يمكن فتحها أو إغلاقها بواسطة مصراعين. واعتماداً على الثقوب المفتوحة أو المغلقة، تتّضح الرسائل التي يُظهرها اللوح. يقوم رجل في كل محطةِ إعلام إشاري بمراقبة الرسالة السابقة في السلسلة والرسالة اللاحقة بواسطة تلسكوب، فإذا شاهد رسالة يقوم بتدوينها وتكرارها بعد ذلك عبر لوح الإعلام الإشاري الخاص به، وهكذا توجَّه الرسائل. تبدأ هذه السلسلة المهمة من وزارة البحرية الملكية، ومن ثم تنتقل عبر تشلسي وكينغستون فوق نهر التايمز إلى هنا، وتُواصل طريقها بعد ذلك إلى بورتسماوث دوكيارد. هناك سلسلة أخرى تتوجه إلى تشاسام دوكياردز، وسلاسل أخرى تتوجه إلى كل من ديل، تشيرنس، غريت يارماوث، وبلايماوث. أنشئت هذه السلاسل لتتمكن وزارة البحرية الملكية من توجيه الرسائل بسرعة إلى الأسطول في حال تعرض البلاد لغزو فرنسي. قُل لي الآن، إذا كان لدينا ستة ثقوب يمكن لكلٍّ منها أن يكون مفتوحاً أو مغلَقاً، كم يكون عدد المجموعات المكوَّنة من ثقوب مفتوحة ومُغلَقة التي تشير إلى أحرف أو أرقام أو رموز أخرى؟».

محارِباً رغبته المُلحّة في إبلاغ شقيقه بأن المدرسة أغلقت أبوابها، أغمض شارلوك عينيه وشرع بعملية الحساب للحظات. هناك احتمالان لكل ثقب: إما أن يكون مفتوحاً أو مغلقاً. ويمكن لثقبَين أن يكونا في أربع حالات: مفتوح - مفتوح أو مفتوح - مغلق أو مغلق - مفتوح أو مغلق - مغلق. ولثلاثة ثقوب... وأجرى عملية الحساب في ذهنه بسرعة، ثم رأى شكلاً يرتسم أمامه. أخيراً قال: «أربعة وستون».

«أحسنتَ!» أومأ مايكروفت برأسه. «أنا سعيد لأنك على المستوى المطلوب في مادة الرياضيات، على الأقل». وألقى نظرة سريعة خارج النافذة إلى يمينه. «آه، ألدرشوت. إنه مكان مثير للاهتمام. منذ أربعة عشر عاماً دَعَته الملكة فكتوريا منزلَ الجيش البريطاني. وقبل ذلك الحين، كان مجرد قرية صغيرة تحتوي على أقل من ألف نسمة. أما الآن فيبلغ عدد سكانها ستة عشر ألفاً وهو في ازدياد».

مدّ شارلوك عنقه لينظر من فوق شقيقه إلى ما يوجد خارج النافذة الأخرى، ولكنه لم يستطع أن يرى من هذه الزاوية سوى منازل مبعثرة هنا وهناك وما

يشبه خط سكة حديدية موازٍ للطريق في أسفل المنحدر. وعاد للجلوس في مقعده، مُغمِضاً عينَيه ومحاولاً عدم التفكير في ما ينتظره.

بعد بُرهة، شعر أن عربة البروغهام تتجه إلى أسفل الهضبة، وبعد ذلك قاموا بعدة انعطافات وتغيّر صوت وقْعِ حوافر الجياد على حجارة إلى صوت وقْعِ حوافر على تراب قاسٍ. فأغمض عينيه بإحكام، محاولاً إرجاء حلول اللحظة التي يجد فيها نفسه مُلزَماً على تقبُّل كل ما يجري.

توقفت العربة على حصى. لقد ملأت أصوات الطيور المغرّدة، والريح الصافرة عبر الأشجار، العربة. وسمع شارلوك وقع خُطى تتجه نحوهم.

«شارلوك»، قال مايكروفت بلطف. «حان وقت الحقيقة».

فتح شارلوك عينيه.

كانت العربة متوقفة خارج مدخل بيت ضخم مشيَّد بقرميد أحمر، وشاهق: ثلاثة طوابق إضافةً إلى ما يشبه مجموعة من الغرف في العلّيّة. فتح خادمٌ بابَ مايكروفت، ثم نزل شارلوك تابعاً شقيقه.

كانت هناك امرأة واقفة في الظل في أعلى السلَّم المكوَّن من ثلاث درجات عريضة تؤدي إلى رواق معمَّد أمام المدخل الرئيسي. كانت ترتدي ملابس سوداً، وجهها نحيل وذاوٍ، شفتاها مذمومتان، وعيناها ضيقتان كما لو أن أحدهم استبدل بكأس الشاي خاصتها كأساً من الخل في ذلك الصباح. «أهلاً وسهلاً بكما في عزبة آل هولمز؛ أنا السيدة إيغلانتين»، قالت بصوت جافّ وناعم. «أنا مدبرة المنزل هنا». وألقت نظرة سريعة على مايكروفت. «يودّ السيد هولمز رؤيتك في المكتبة حالما تكون جاهزاً». ثم نظرت إلى شارلوك. «وسيقوم الخادم بنقل... أمتعتك... إلى غرفتك، يا سيد هولمز. سيُقدَّم لك شاي بعد الظهر عند الساعة الثالثة. أرجو أن تلازم غرفتك حتى ذلك الحين».

«لن أستطيع البقاء حتى موعد احتساء الشاي»، قال مايكروفت بلطف. «مع الأسف، عليّ العودة إلى لندن». واستدار نحو شارلوك وفي عينيه نظرة إشفاق وحب أخوي وتحذير، في آن. «انتبه لنفسك، يا شارلوك»، قال. «سأعود حتماً لأُعيدك إلى المدرسة عند انتهاء العطلة، وسأزورك في هذه الفترة إذا استطعتُ. كُنْ صالحاً، واستغِلّ الفرصة لاكتشاف المنطقة هنا. أعتقد أن لدى العم شرينفورد مكتبة مميَّزة. أُطلُب منه أن يسمح لك بالاستفادة مما تكتنزه من حكمة. سأترك لك كل تفاصيل الاتصال بي مع السيدة إيغلانتين. إذا احتجتني، أرسل لي برقية أو اكتب لي رسالة». ومدّ يده ووضعها على كتف شارلوك بحنان. «إنهم أشخاص صالحون»، قال بهدوء كافٍ كي لا تسمعه السيدة إيغلانتين، «ولكنهم غريبو الأطوار على غرار كل أفراد

عائلة هولمز. فانتبه واحرص على عدم إغضابهم. اكتب لي عندما تجد الوقت، وتذكّر أنك لن تبقى هنا بقيّة حياتك. ستدوم إقامتك هنا لشهرين فقط، فكُنْ شجاعاً». وضغط على كتف شارلوك.

شعر شارلوك بنوبة غضب وخيبة أمل، ولكنه لم يشأ أن يُظهر لمايكروفت ردّ فعله، كما أنه لم يشأ بدء فترة إقامته في منزل آل هولمز على نحو سيّئ، لأن ما سيقوم به في الدقائق القليلة التالية سيحدّد الشكل الذي ستكون عليه فترة إقامته كلها.

مدّ شارلوك يده وأنزل مايكروفت يده عن كتف شارلوك وصافحه، مبتسماً له بحرارة.

«وداعاً»، قال شارلوك بأقصى قَدْر ممكن من الاتزان. «بلّغ حبّي للوالدة وشارلوت، وإذا بلغك أي شيء عن والدي أبلِغني».

استدار مايكروفت وهمّ بصعود الدَّرَج في اتجاه المدخل. والتقت نظرات السيدة إيغلانتين الخالية من أي تعبير بنظرات شارلوك للحظات، ومن ثم استدارت ورافقت مايكروفت إلى داخل المنزل.

عندما نظر شارلوك إلى الخلف، رأى الخادم يناضل لرفع الصندوق على كتفيه، وعندما استقرّ عليهما، صعد به على الدرج، مترنّحاً، ومرّ أمام شارلوك الذي تبعه بأسى.

كانت القاعة مكسوّة ببلاط أسود وأبيض وعلى جوانبها خشب ماهوغاني، ويهبط من الطوابق العليا درج رخامي مزيَّن كشلال متجمّد، وعلى الجدران لوحات عدة لمشاهد دينية وطبيعية وحيوانات. كان مايكروفت يعبر الممر إلى يسار الدرج، داخلاً إحدى الغرف. ولاحظ بنظرة مقتضبة أنها ممتلئة بمجموعات من الكتب ذات غلاف جِلديّ أخضر اللون. نهض رجل عجوز نحيل، يرتدي بِذلة سوداء قديمة الطراز، من كرسيٍّ منجَّد بجِلد يتلاءم تماماً مع لون الكتب الموجودة خلفه، ملتحٍ، مخدَّد، شاحب، وعلى رأسه بُقَع بنّيّة مائلة للحُمرة.

أُغلق الباب وراءهما أثناء تصافحهما. وتوجّه الخادم إلى أسفل الدَّرَج، وهو لا يزال يوازن الصندوق على كتفيه، وتبعه شارلوك.

كانت السيدة إيغلانتين واقفة في أسفل الدَّرَج، خارج المكتبة، محدّقةً فوق رأس شارلوك في اتجاه الباب. همهمت قائلة: «يا صغير، أعلم أن وجودك هنا غير مرحَّب به»، همهمت أثناء مروره أمامها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

جالساً في الغابة خارج فارنهايم، تمكّن شارلوك من رؤية الأرض أمامه تنحدر في اتجاه مسلك قذر يتلوّى كالأفعوان بين الشَّجَيرات كمجرى نهر جافّ، حتى يتوارى عن الأنظار. وفي الجهة الأخرى من البلدة، وعلى منحدرِ هضبة، قلعةٌ صغيرة مرئيّة بين الأشجار. لم يكن هناك أحد من حوله. لقد جلس بهدوء تام فترة طويلة لدرجة اعتياد الحيوانات عليه. كان يسمع بين فَينة وأخرى صوت خشخشة وسط الأعشاب الطويلة، كما لو أن فأراً أو جُرَذاً يمرّ من هناك، في حين تحوم الصقور بكسل في السماء الزرقاء، مترقّبةً خروج أي حيوان صغير غافل إلى منطقة مكشوفة للعيان.

سمع صوت حفيف أشجار حرّكتها الريح خلفه، فأطلق العنان لمخيّلته، محاولاً عدم التفكير في الماضي ولا في المستقبل، بل في اللحظة الراهنة فحسب، ولأطول فترة ممكنة. فالماضي مؤلم جداً، ولا يستعجل قدوم المستقبل القريب، وتتمثل الطريقة الوحيدة بعدم التفكير فيه بالاستسلام للنسيم العليل ومشاهدة الحيوانات تتحرك من حوله.

كان قد مضى على وجوده في منزل عزبة آل هولمز ثلاثة أيام دون أن يطرأ أي تغيير منذ وصوله. ولكن أسوأ ما في الأمر هو السيدة إيغلانتين. فمدبّرة المنزل أشبه بشبح دائم الحضور يترصّد في فناءات المنزل؛ يجدها واقفةً في الظل، أينما وجّه بصره، تراقبه بعينيها المتغضّنتَين. بالكاد تبادلت معه بضع جُمل منذ وصوله. وعلى حد علم شارلوك، يُتوقَّع منه تناول الفطور، والغداء، وشاي بعد الظهيرة، والعشاء، دون أن يَنبس بِبِنت شَفة، والأكل بأكبر قَدْر ممكن من الهدوء ومن ثم التواري عن الأنظار حتى موعد الوجبة التالية. هذا ما سيكون عليه نمط حياته حتى نهاية العطلة إلى أن يأتي مايكروفت لتحريره من هذه العقوبة.

كان يلتقي عمّه شرينفورد هولمز وزوجته آنّا هولمز عادة عند وجبتَي الفطور والعشاء. شرينفورد طويل القامة كشقيقه ولكنه أكثر نحولاً، عظام وجهه بارزة، جبينه ناتئ من الأمام وغائر عند الجانبَين، لحيته البيضاء الكثة تصل إلى صدره، ولكن شعر رأسه خفيف ومتناثر لدرجة بدا لشارلوك كما لو أن كل خصلة من شعره رُسمت على فروة رأسه ووُضع عليها طِلاء. كان يتوارى بين الوجبات في مكتبه أو في المكتبة حيث يقوم بكتابة خطب دينية ومواعظ لرجال الدين في أرجاء البلد كافة، كما تناهى إلى مسامع شارلوك في بعض المحادثات. إن الشيء الوحيد الذي كان له معنى في الأيام الثلاثة الماضية وقاله لشارلوك، رامقاً إيّاه بنظرة منذِرة أثناء الغداء: «ما هي حالة روحك، يا

فتى؟» جفل شارلوك أثناء رفع الشوكة إلى فمه، ثم قال، متذكراً السيد تولي، مدرّس اللغة اللاتينية في ديبدن: «salus nulla ecclesiam Extra» ، وكان متأكداً من أنها تعني: «لا خلاص خارج الكنيسة». لقد أجاد الإجابة كما يبدو لأن شرينفورد هولمز أومأ برأسه وتمتم: «آه، يا سانت سيبريان القرطاجي، بالطبع». وواصل تناول طعامه.

أما السيدة هولمز، أو العمة آنّا، فهي امرأة صغيرة الحجم، أشبه بعصفور، دائمة الحركة، يداها ترتجفان باستمرار حتى عندما تكون جالسة، ولا تستقر لأكثر من دقيقة واحدة في أي مكان. وكما لاحظ شارلوك، هي تتكلم طوال الوقت دون مخاطبة أحد في الواقع، وتبدو مستمتعة بالحوار الدائم مع نفسها من دون أن تتوقع قيام أي شخص بمشاركتها الحديث أو الإجابة عن أي سؤال من أسئلتها.

كان الطعام مقبولاً، على الأقل، وأفضل من الوجبات التي تقدَّم في مدرسة ديبدن والمكوَّنة في غالبيتها من خضار كالجزر والبطاطا والكرنب، ويُعتقد أنها تُزرع في أراضي العزبة، لكن كل وجبة كانت تحتوي على قليل من اللحم، وبخلاف الأشياء الرمادية والغضروفية غير المعروفة التي تعوّد عليها في المدرسة، فهذه اللحوم جيدة النكهة والمذاق: لحم مقدد، أفخاذ دجاج، شرائح سمك سلمون، كما قيل له، وفي إحدى المناسبات، شرائح كبيرة دسمة من كتف لحم الخروف توضع وسط الطاولة. لو لم يكن حذراً لازداد وزنه وأصبح شبيهاً بشقيقه مايكروفت.

كانت غرفته في الأعلى بجانب أفاريز المنزل وليس في قسم سكن الخدم، ولكنها لم تكن أيضاً في الأسفل مع العائلة. والسقف منحدر من أعلى الباب حتى النافذة ليتلاءم مع سطح المنزل، ما يعني أن عليه الانحناء كلما تحرك في الغرفة، في حين تتكوّن الأرضية من ألواح خشبية مستوية ومغطاة بسجادة مزيَّنة برسومٍ دوالٍ ملساء. وكان سريره قاسياً تماماً كذاك الذي ينام عليه في مدرسة ديبدن. في الليلتين الأوليين، أبقاه السكون يقظاً طوال ساعات بسبب اعتياده على سماع أصوات ثلاثين فتى آخر يشخرون، أو يتكلمون أثناء نومهم، أو يُصدرون صوت نشيج، لذلك وجد الغيابَ المفاجئ للضجيج أمراً مثيراً للأعصاب. لكنه فتح النافذة بعد ذلك كي يدخل الهواء إلى الغرفة، واكتشف أن الليل لم يكن ساكناً البتّة بل مليئاً بنوع أخفّ وطأة من الضجيج. ومنذ ذلك الحين، دأب على النوم على صوت نعيق البوم، وصراخ الثعالب، والاضطراب المفاجئ لأجنحة الطيور كما لو أن شيئاً ما رَوّع الدواجن في مؤخَّر المنزل.

بالرغم من نُصح شقيقه، لم يتمكن من دخول المكتبة للقراءة لأن شرينفورد هولمز كان يقضي جُلَّ وقته هناك باحثاً في كتبه الدينية وعظاتِه. لقد خشي

شارلوك من مضايقته، لذلك قرر بدلاً من ذلك التجوّل رُوَيداً رُوَيداً حول المنزل بدءاً بالأراضي التي تقع أمام المنزل ثم في الأراضي التي تقع في الخلف، والحديقة المسوَّرة، وخُمّ الدجاج، وحقل الخُضَر، متسلّقاً من ثم الجدار الحجري المحيط بالمنزل وصولاً إلى الطريق، وموسِّعاً تجواله أخيراً ليشمل الغابات العتيقة القابعة إزاء الجهة الخلفية للمنزل. لقد اعتاد السير واكتشاف الغابات في موطنه، بمفرده أو مع شقيقته، ولكن الغابات هنا بدت أقدم عهداً وأكثر غموضاً من تلك التي اعتاد عليها.

«تستطيع الجلوس بهدوء ما دمت ابن بلدة، أليس كذلك؟».

«وأنت كذلك»، أجاب شارلوك رداً على صوت سمعه خلفه. «كنت تراقبني لمدة نصف ساعة».

«كيف عرفت ذلك؟» سمع شارلوك صوتاً مكتوماً خفيضاً كما لو أن أحدهم قفز عن غصينات الخَنشار الذي يغطي الأرض.

«هناك طيور جاثمة على كل الشجيرات باستثناء واحدة؛ تلك التي تجلس عليها. لا بد من أن تكون خائفة منك».

«لن أؤذيها كما أنني لن أؤذيك».

أدار شارلوك رأسه ببطء. فالصوت يعود لفتى في سنّه تقريباً، ولكنه أصغر قامةً وأكثر بدانة من قوام شارلوك النحيف، وشعره طويل يصل حتى كتفَيه. «لست واثقاً من قدرتك على الإيذاء»، قال شارلوك بأكبر قَدْر من الهدوء في ظل هذه الظروف.

«يمكنني القتال بشراسة»، قال الفتى، «وأحمل سكيناً».

«أجل، ولكنني كنت أشاهد مباريات ملاكمة في المدرسة، ولديّ خبرة كبيرة في ذلك». حدّق شارلوك إلى الفتى عن كَثب. فملابسه مغبرَّة، مصنوعة من قماش خشن ومرقَّعة في بعض الأماكن. كان وجهه ويداه وأظفاره متسخة.

«في المدرسة؟» قال الفتى. «يعلّمون الملاكمة في المدرسة؟».

«أجل، هم يقومون بذلك في مدرستي، ويقولون إنها تقوّينا».

جلس الصبي بجانب شارلوك. «الحياة هي التي تقوّيك»، تمتم، وأضاف: «أُدعى ماتي. ماتي آرنات».

«ماتي كما في ماتيو؟».

«أعتقد ذلك. أنت تعيش في المنزل الكبير أسفل الطريق، أليس كذلك؟».

أومأ شارلوك برأسه. «انتقلت إليه للتوّ لقضاء إجازة الصيف مع عمّي وزوجته. أدعى شارلوك، شارلوك هولمز».

ألقى ماتي نظرة متفحّصة على شارلوك. «ليس اسماً بكل معنى الكلمة».

«ماذا؟ شارلوك؟» وفكّر للحظات. «ما خطبه؟».

«هل تعرف أشخاصاً آخرين يحملون هذا الاسم؟».

هز شارلوك كتفَيه. «كلا».

«ما اسم والدك، إذاً؟».

عبس شارلوك. «سيغر».

«وعمك؟ ذاك الذي تعيش معه؟».

«شرينفورد».

«هل لديك أشقاء؟».

«نعم، واحد».

«ما اسمه؟».

«مايكروفت».

هز ماتي رأسه بغضب. «شارلوك، سيغر، شرينفورد، ومايكروفت. يا لها من مجموعة غريبة من الأسماء! لماذا لم تسموا بأسماء تقليدية مثل ماثيو، مارك، لوك وجون؟».

«إنها أسماء عائلتي»، شرح شارلوك، «وهي تقليدية. فكل الذكور في عائلتنا يحملون أسماء مماثلة. لقد أخبرني والدي ذات مرة أن أحد فروع العائلة قدِموا في الأصل إلى إنكلترا من إسكندنافيا مصدر تلك الأسماء، أو ما شابه. ربما يكون سيغراسماً إسكندنافياً، كما أعتقد، ولكن الأسماء الأخرى تبدو لي، في الواقع، أقرب إلى أسماءٍ أماكن في اللغة الإنكليزية القديمة. أما مصدر اسم شارلوك فيبقى لغزاً تاماً. ربما يوجد هُوَيس يحمل اسم شِر أو شير في قناة ما».

«تعرف أموراً كثيرة»، قال ماتي، «ولكنك لا تعرف الكثير عن القنوات. لم يسبق لي أن سمعت بأي هُوَيس يحمل اسم شِر أو شير. ماذا عن شقيقاتك؟ هل أسماؤهن سخيفة أيضاً؟».

جفل شارلوك وأشاح بنظره. «هل تعيش في الجوار؟».

ألقى ماتي نظرة سريعة عليه، ومن ثم بدا متقبّلاً لواقع رغبة شارلوك في تغيير الموضوع. «أجل»، قال، «في الوقت الحاضر. أنا رحّالة نوعاً ما».

أثار الجواب اهتمام شارلوك. «رحّالة؟ تعني أنك غجريّ؟ أم تعمل في سيرك؟».

أجابه ماتي ساخراً. «أقوم عادة بلكم من ينعتني بالغجري، كما أنني لا أعمل في أي سيرك. صدّقني».

فجأةً، تذكر شارلوك أمراً ما قاله ماتي منذ بضع ثوان. «ذكرتَ أنك لا تعرف أي هُوَيس يحمل اسم شِر أو شير. هل تعيش بالقرب من القنوات؟ وهل تملك عائلتك مركباً؟».

«لديّ مركب صغير، ولكن لا عائلة لي. أعيش بمفردي، أنا وألبرت».

«جدّك؟» قال شارلوك، مخمِّناً.

«حصان»، صحّح ماتي. «ألبرت يجرّ المركب».

وانتظر شارلوك للحظات ليتحقق ما إذا كان ماتي سيتابع كلامه. وعندما لم يفعل، سأله شارلوك: «ماذا عن عائلتك؟ ماذا حدث لهم؟».

«تطرح كثيراً من الأسئلة، أليس كذلك؟».

«إنها إحدى الطرق للاستعلام عن الأمور».

فهزّ ماتي كتفَيه. «كان والدي يعمل في الأسطول البحري الحربي، ومن ثم ذهب في سفينة ولم يَعد. لا أعرف إن غرق، أو نزل في ميناء في مكان ما من العالم، أو عاد إلى إنكلترا دون تكبُّد عناء قطع الأميال القليلة الأخيرة للقدوم إلينا. أما أمي فقد ماتت منذ سنوات قليلة بداء السلّ».

«آسف».

«لم يسمحوا لي برؤيتها»، تابع ماتي كلامه كما لو أنه لم يسمع، محدّقاً إلى البعيد. «لقد ذوتْ فحسب وازدادت نُحولاً وشحوباً، كما لو أنها تموت ببطء. كانت تسعل دماً كل ليلة. عرفتُ أنهم سيأتون لأخذي إلى مأوى الفقراء عندما تموت، لذلك لُذت بالفرار. من المستحيل بالنسبة إليّ أن أذهب إلى سبايكلأن معظم الناس الذين يدخلون إليه لا يخرجون منه ثانيةً، وإذا خرجوا فإنهم لا يخرجون بجسم وعقل سليمَين. لذلك لجأت إلى القنوات بدلاً من السير لأنني أستطيع قطع مسافة أبعد بوقت أقل».

«من أين حصلت على المركب؟» سأل شارلوك. «هل كان يخصّ العائلة؟».

«بالكاد»، قال ماتي، ناخراً. «لِنقُلْ إنني وجدته فحسب».

«إذاً، كيف تتدبّر أمورك؟ من أين تحصل على الطعام؟».

هز ماتي كتفَيه. «أعمل في الحقول خلال الصيف، قاطفاً الفاكهة وحاصداً القمح. الكل يريد عمّالاً يتقاضون أجراً ضئيلاً، ولا تقلقهم مسألة استغلال الصغار. وفي الشتاء، أقوم بأعمال غريبة: أعمل قليلاً بالبستنة هنا، استبدال أنابيب من الرصاص على أسطح دور العبادة هناك. أتدبّر أموري. أنا على استعداد للقيام بأي عمل باستثناء تنظيف المداخن والعمل في المناجم. إنه موت بطيء».

«وجهة نظر سليمة»، قال شارلوك. «كم مضى على وجودك في فارنهايم؟».

«أسبوعان. إنه مكان جميل»، قال ماتي، معترفاً. «الناس هنا لطفاء ولا يزعجونك كثيراً. إنها بلدة محترمة». وتردد قليلاً. «باستثناء...».

«باستثناء ماذا؟».

«لا شيء». وهز رأسه، مستعيداً رباطة جأشه. «انظر، كنت أراقبك منذ مدة. لا أصدقاء لك هنا، ولستَ غبياً لأنك تفهم الأمور جيداً. حسناً، لقد رأيت شيئاً ما في البلدة ولا أستطيع تفسيره». واحمرّ وجهه قليلاً وأشاح بنظره. «كنت آمل في أن تتمكن من تقديم المساعدة».

هز شارلوك كتفَيه، وقد أُثيرَ فُضوله. «سأحاول. ما الأمر؟».

«من الأفضل أن أُريك». ثم مسح يديه بِبنطاله. «هل تودّ التجول في البلدة أولاً؟ باستطاعتي أن أدلّك على أفضل الأماكن لتناول الطعام والشراب حيث يمكننا مشاهدة الناس المارّين أمامنا، وعلى أماكن الأزقّة الأمثل للهروب والطرقات غير النافذة التي يتعيّن عليك تجنّبها».

«هل ستُريني مركبك أيضاً؟».

ألقى ماتي نظرة سريعة على شارلوك. «ربما عندما أبدأ بالوثوق بك».

توجها إلى أسفل المنحدر في اتجاه الطريق المؤدي إلى البلدة. كانت السماء فوقهما زرقاء، واشتمّ شارلوك رائحة دخان منبعث من نار، وسمع في البعيد صوت قَطع حطب منتظم كانتظام تكتكات ساعة الجيب. وأثناء عبورهما أجمة أشجار، أشار ماتي إلى طائر يحلّق عالياً فوقهما. «نسر»، قال بإيجاز، «يتتبع شيئاً ما».

المسافة إلى البلدة تمتد أميالاً عدة، واستغرقهما الوصول إليها قُرابة الساعة. لقد شعر شارلوك بعضلات ساقيه وأسفل ظهره تتمدد وهو يسير. لا بد من

أن يشعر بالألم وبتصلب عضلاته في اليوم التالي، ولكنه يشعر الآن بأن هذا التمرين سيزيل كل آثار الكآبة التي خيّمت عليه منذ وصوله إلى منزل عزبة آل هولمز.

عندما اقتربا من البلدة، وبدأت المنازل تُرى للعيان بتناسقها المتزايد على جانبَي الطريق، شرع شارلوك باشتمام رائحة كريهة وعَفِنة تنبعث من الريف.

«ما تلك الرائحة؟» سأل.

فاشتمّ ماتي. «أي رائحة؟».

«تلكالرائحة. لا يمكنك إغفالها بالتأكيد؟ إنها تشبه رائحة سجادة مبتلّة ولم تجفّ جيداً بعد».

«لا بد من أنها مصانع الشراب. هناك عدد قليل منها موزَّع على امتداد النهر، ومصنع بارات هو الأكبر. إنه يتوسع بسبب نزول جنود الجيش في ألدرشوت مؤخراً. إنها رائحة الشعير الرطب. فالشراب هو الذي جعل والدي رجلاً سيّئاً. لقد انضم إلى الأسطول البحري الحربي للتخلص منه، ولكنه اعتاد هناك على الشراب أكثر».

وصلا إلى أطراف البلدة حيث المنازل والأكواخ أكثر عدداً من الممرات الجبلية. فكثير من المنازل مبنيّة بآجر أحمر، ووراء المنازل منحدر يؤدّي إلى قلعة حجرية رمادية فوق البلدة، ووراء القلعة في الأعلى هضبة بعيدة. تساءل شارلوك عن فائدة قلعة في هذا الموقع حيث يستطيع أي مهاجم من الأعلى إمطارها بالسهام والحجارة والنار متى شاء.

«لديهم سوق هنا كل يوم. في ساحة البلدة يبيعون الخراف والأبقار والفطائر وكل شيء. إنه مكان جيد للبحث عن طعام عندما يُغلقون المحلات في نهاية اليوم. هم دائمو الاستعجال للخروج قبل غروب الشمس، فتتساقط شتّى أنواع الطعام عن البسطات أو تُرمى لأنها توشك أن تفسد. يمكنك تناول كثير من الطعام الذي يخلّفونه».

«إنه أمر ممتع»، قال شارلوك بطريقة جافة. على الأقل، يتطلع المرء إلى الوجبات في منزل عزبة آل هولمز، عِلماً أنه لا يمكنه التطلع إلى الجوّ الذي يسود المكان وقت الغداء والعشاء.

أحاطت البلدة بهما، وكان الشارع مكتظاً بالناس لدرجة اضطرار الفتيَين للنزول عن الرصيف والسير على الطريق المليء بالحُفر كي لا يصطدما بالمارة. لقد أمضى شارلوك معظم الوقت محاولاً تفادي الدَّوس على أكوام الروث. لقد تَحسّن المظهر العام للملابس في البلدة حيث يرتدي الرجال سترات لائقة وربطات عُنُق، وترتدي النساء فِساتين أكثر مما يرتدينَ بناطيل

قصيرة، وسترات ضيّقة من دون كمّين، وثياباً فضفاضة، كالتي ترتديها النساء في الريف. والكلاب في كل مكان: إما مقيَّدة من قبل أصحابها وإما جرباء مشرّدة تبحث عن طعام. وتلزم الهررة النحيلة الظلال، مراقِبةً بعيون مفتوحة على وسعها. وعلى الطريق، تجرّ الخيول عرباتٍ ومركبات في كلا الاتجاهَين، ساحقةً الرَّوث عميقاً في الأرض الترابية المحفَّرة.

عندما وصلا إلى زقاق يؤدّي إلى الطريق الرئيسي، توقف ماتي.

«ما الأمر؟» سأله شارلوك.

تردد ماتي. «ذاك الشيء الذي رأيتُه». وهز كتفَيه. «كان هناك منذ أيام قليلة. إنه شيء لا أستطيع فهمه».

«هل تريد أن تُريني إيّاه؟».

بدلاً من الإجابة، ركض ماتي في الزقاق، وركض شارلوك بأقصى سرعة للّحاق به.

انعطف الزقاق إلى شارع جانبيّ ضيّق جداً لدرجة تمكُّن شارلوك من لمس المباني القائمة على الجانبَين. كان الناس متكئين على النوافذ العليا ويتحدثون بعضهم إلى بعض بإسهاب يضاهي سهولة تحدّثهم أثناء استنادهم إلى أسوار الحدائق. حدّق ماتي إلى نافذة خالية في الأعلى، والباب تحتها مغلَق. بدا المكان مهجوراً.

«كان هناك في الأعلى»، قال. «رأيت دخاناً، ولكنه تحرّك. لقد خرج من النافذة وتسلّق الجدار، ومن ثم اختفى فوق السطح».

«الدخان لا يفعل ذلك»، قال شارلوك.

«هذا الدخان فعل ذلك»، أجاب ماتي بحزم.

«ربما كانت الريح تدفعه».

«ربما». بدا ماتي غير مقتنع، وتغضّن جبينه عندما تذكّر ما حدث هناك. «سمعتُ أحدهم يصرخ في الداخل. فركضتُ من فَرط خوفي، ولكنني عدت في وقت لاحق. ووجدتُ عربة في الخارج. كانوا يضعون على متنها جثة هامدة غُطّيت بمُلاءة علقت بالباب وأُزيحت، فرأيت الجثة ورأيت الوجه». واستدار نحو شارلوك ممتقعَ الوجه خوفاً وريبة. «كان مليئاً بدمامل- دمامل كبيرة حمر على وجهه وعُنُقه وذراعيه- وكان وجهه ملتوياً كما لو أنه قضى من شدة الألم. هل تعتقد أنه الطاعون؟ لقد سمعتُ بأنه اجتاح البلدة في السابق. هل تعتقد أنه ظهر ثانية؟».

شعر شارلوك بقشعريرة تسري عبر كتفَيه. «أعتقد أن هذا الأمر قد يكون بداية تفشٍّ جديد، ولكن حالة وفاة واحدة لا تعني تفشّي الطاعون. ربما تكون الحُمّى القِرمزية أو مرضاً آخر».

«وذاك الظل الذي رأيته يتحرك فوق السقف؟ ماذا عنه».

«إنه مجرد وَهْم»، قال شارلوك بحزم، «نَجَمَ عن موقع الشمس في السماء إزاء سَحابة عابرة». ثم أمسك كتف ماتي ودفعه إلى الأمام. «هيا بنا، لِنذْهبْ».

اقتاد ماتي بعيداً عن المنزل، وسلكا الطريق الضيّق. خلال لحظات، عادا إلى الطريق الرئيسي الذي يعبر فارنهايم. كان ماتي شاحباً وساكناً.

«هل أنت بخير؟» سأله شارلوك بلطف.

فأومأ ماتي برأسه. «آسف»، قال بخجل. «لقد.... روّعني الأمر ليس إلا. لا أحب الأمراض منذ...».

«أتفهّم ذلك. انظر، لا أعرف ما رأيتَ، ولكنني سأفكر في الأمر. لدى عمّي مكتبة، ربما يكون الجواب هناك، أو في أرشيف الصحف المحلّية».

عبرا جسراً صغيراً، عائدَين إلى البلدة. كان هناك حيوان ممدَّد بجانب بوّابات خشبية في جدار حجَريّ، مادًّا قوائمه بدون حراك، فَروه قذر ومُعتِم. اعتقد شارلوك للوهلة الأولى أنه كلب، ولكن مع اقترابهما أكثر فأكثر تمكّنا من رؤية خَطمه المستدقّ، وقوائمه القصيرة، والخطوط البيضاء والسوداء المتناوبة - رماديّ فاتح ورماديّ داكن - الممتدة حتى رأسه. إنه الغُرير، ولاحظ شارلوك معدته المسطّحة على الطريق. ربما دهسته عربة.

أبطأ ماتي أثناء اقترابه. «عليك توخّي الحذَر عندما تمرّ من هنا»، قال كما لو أنه في وضع آمن تماماً وعلى شارلوك اتخاذ جانب الحذَر. «لا أعرف ماذا يفعلون في الداخل، ولكن يوجد حرّاس مزوَّدون بهراوات وخَطّافات، ورجال أصحاب بنيات جسدية ضخمة».

كان شارلوك على وشك قول شيء ما عن احتمال قيام هؤلاء الرجال بحراسة مرتّبات العمّال في الداخل عندما فُتحت البوّابات، وخرج رجلان إلى الطريق وعلى وجهَيهما المتجهّمَين آثار ضرب ونُدوب، ولكن ملابسهما كانت مخملية سوداء ونظيفة. نظرا يميناً ويساراً، متحققَين من الفتيَين للحظات وصارفَين النظر عنهما بعد ذلك، ومن ثم أومآ لشخص ما في الداخل.

خرجت من الفناء عربة يجرّها حصان أسود، سائقها رجل ضخم البنية، يداه عريضتان كرفشَين، ورأسه أصلع مغطّى بنُدوب. أغلقا البوّابات وقفزا إلى

مؤخَّر العربة، متمسّكَين بها أثناء انطلاقها.

«لِنرَ إذا كان الرجلان سيعطياننا فَلساً». همس ماتي. وقبل أن يتمكن شارلوك من إيقافه، رآه يركض في اتجاه العربة.

متفاجئاً، جفل الحصان وارتدّ إلى الوراء في اتجاه القضيبين المتصلَين بالعربة. حاول السائق استعادة السيطرة من خلال جَلد الحصان بالسوط، ولكن الأمور ازدادت سوءاً، واستدارت العربة أثناء محاولة الحصان الوثوب بعيداً عن ماتي.

عبر نافذة العربة، تفاجأ شارلوك لدى رؤية وجه شاحب أشبه بهيكل عَظميّ محاطٍ بشعر أبيض وعينَين صغيرتَين حمراوَين تحدّقان إليه ولا تطرفان كعينَي جُرَذ أبيض. شعر شارلوك باشمئزاز فوريّ كما لو أنه مدّ يده نحو ورقة خسّ في طبقه ولمس حلزونة. أراد التحرك والتراجع، ولكن تلك النظرة الشاحبة والحاقدة جعلته عاجزاً عن الحركة. بعد ذلك استعاد السائق الضخم السيطرة على الحصان الذي خبّ أمام الفتيَين جارًّا العربة بمن فيها.

«حتى إنني لم أحظَ بأي فرصة»، قال ماتي، نافضاً عنه الغبار. «اعتقدت أن ذاك الرجل الضخم سيجلدني بسوطه».

«من كان ذلك الرجل في العربة؟» سأل شارلوك بصوت مضطرب.

هز ماتي رأسه. «لم أنظر إليه عن كَثب. هل بدا ثرياً؟» قال بطريقة مُفعَمة بالأمل.

«بدا كما لو أنه مَيت منذ ثلاثة أيام»، قال شارلوك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

تصاعدت سحب البخار من مدخنة القطار ومرّت عبر ألواح الجسر الخشبية الطويلة والضيّقة وسفعت قدمَي الفتيَين. ركض شارلوك في اتجاه وماتي في الاتجاه الآخر، وكان أحدهما منقبض الصدر والآخر ضاحكاً. شق القطار طريقه تحتهما، متجهاً إلى محطة فارنهايم، وأبطأ لدى اقترابه منها. تراجع الفَتَيان إلى وسط الجسر الخشبي الذي يصل المنصّتَين، وهما يشاهدان القطار يتوقف تدريجاً، ويسمعان صوت قعقعة السلاسل وهسهسةٍ غير متناغمة ناجمة عن إفراغ السائق ما تبقى من بخار.

إنه صباح اليوم التالي. كانت المنصة خالية قبل وصول القطار ولكن سرعان ما تحوّلت بقدرة قادر إلى جمهرة من الناس المستعجلين للخروج. فهناك رجال يرتدون معاطف سوداً تصل إلى الركبتَين، ويعتمرون قبّعات طويلة، خرجوا من مقصوراتِ الدرجة الأولى كما تخرج الحشرات من الشرانق، وتلامست مناكبهم مع مناكب رجال ذوي كروش كبيرة يرتدون سترات توبد وقبّعات مسطّحة. بعد ذلك، خرجت النساء اللاتي يرتدينَ سترات محتشمة تصل إلى الركبتَين من مقصورات الدرجة الثانية. أما العمال أصحاب العضلات البارزة الذين لفحت الشمس وجوههم وكانوا محشورين بعضهم مع بعض، فخرجوا من مقصورة الدرجة الثالثة مُرتَدين قمصاناً بالية وبناطيل مرقّعة. بعد ذلك فتح رجال بِذلات رسمية الباب المنزلق لإحدى العربات، وشرعوا بتفريغ صناديق خشبية وأكياس خمّن شارلوك أنها تحتوي على رسائل. وخرج حمّالو المحطة من كل المكاتب التي يختبئون فيها عادةً، وبدأوا بنقل الصناديق والأكياس بعربات الترولي بعيداً عن القطار. وخلال بضع ثوان خلت المنصة إلا من مجموعة صغيرة من سكان البلدة الذين يتبادلون أطراف الحديث في شأن أحداث الأسبوع. وتقدّم حارس معتدّ بنفسه، يرتدي سترة زرقاء طويلة وقبّعة، متفحصاً القطار، وضع صفّارته بين شفتيه وأطلق صفرة قصيرة وحادة. فاهتزّ القطار وشرع بجرّ نفسه إلى خارج المحطة، بتباطؤ شديد في بادئ الأمر، ثم ما لبث أن ازدادت سرعته وصلصلت العربات الموصولة ببعضها بإحكام واحدة تِلو الأخرى، وجرّها المحرك.

«هل هو القطار المتوجه إلى لندن أم القادم منلندن؟».

ألقى ماتي نظرة على امتداد السكة من اليمين واليسار. «إلى لندن»، قال أخيراً. «من هنا تتجه السكة إلى توتنهام، آش، آش وارف، ثم إلى بروكوود وغيلدفورد. ومن هناك، يمكنك أن تستقل قطاراً متجهاً إلى لندن مباشَرةً».

لندن. حدّق شارلوك إلى سكة الحديد حيث كان القطار ينعطف ويتوارى عن الأنظار. ففي نهاية رحلته، سيكون على بعدِ مِيل أو ميلَين من مكان وجود شقيقه مايكروفت الجالس في مكتبه مطالِعاً مستنداته، أو منكبًّا على خارطةٍ للعالم لُوِّنت الأماكن التي سيطرت عليها الإمبراطورية البريطانية باللون الأحمر. في تلك اللحظة، اعترته رغبة غامرة في اللحاق بالقطار والصعود إلى متنه. هو يفتقد شقيقه. هو يفتقد والده ووالدته وشقيقته، حتى إنه يفتقد مدرسة ديبدن للفتيان وإن ليس بالقَدْر نفسه.

«ماذا يوجد في بروكوود؟». سأل، محاولاً صرف انتباهه عن الأفكار التي تتبادر إلى ذهنه أكثر من أي أمر آخر.

ارتجف ماتي وأجابه «لا تسأل».

«لا، حقاً». أُثير اهتمام شارلوك. «هل هناك شيء جدير بأن نذهب لرؤيته؟».

هز ماتي رأسه. «لا شيء هناك تريد رؤيته في وضح النهار»، قال بحزم، «ولن ترغب في الذهاب إلى هناك ليلاً، صدّقني».

«كنت أفكر في إمكانية حصولنا على دراجات هوائية»، أصرّ شارلوك، «كي نتجوّل بواسطتها ونرى مزيداً من القرى والبلدات هنا».

ألقى ماتي نظرة سريعة عليه، وهو متجهّم الوجه. «لماذا علينا القيام بذلك؟».

«بسبب الفُضول؟» سأله شارلوك. «ألا تتساءل عما تبدو عليه الأشياء قبل أن تراها؟».

«البلدات تشبه البلدات والقرى تشبه القرى»، أجاب ماتي بحزم، «والناس متشابهون. هذه هي الحياة. هيا بنا، لِنذهبْ».

سار ماتي مع شارلوك على امتداد الجسر، ونزلا السلّم الحديدي وبلغا المنصة حيث سبق للمسافرين أن ترجّلوا. ومن هناك، خرجا إلى الطريق.

كانت هناك عربة متوقفة عند قارعة الطريق، ويقوم ثلاثة رجال بتحميلها بصناديقَ ثلج يعزلونه عن الحرارة بواسطة قشّ وقع من القطار.

أحد هؤلاء الرجال كان وجهه شبيهاً بوجه ابن عِرس وأسنانه صفراء، فقطّب جبينه عندما رأى الفتَيَين يمرّان.

«يا سيد شارلوك الشاب»، قال صوت حاد من الخلف. «أشعر بالخيبة لأنك ترافق مشرَّدين وخسيسين. لو علِم شقيقك بذلك لَراعه الأمر».

استدار شارلوك مُحمرّ الوجه بالرغم من كونه لا يعرف من الذي يخاطبه، ووجد مدبّرة المنزل، السيدة إيغلانتين، واقفة على بُعد خطوات قليلة. لقد

عرف رجلَين من منزل عزبة آل هولمز يقومان بتحميل مجموعة من صناديق البقالة في عربة شُدّت إلى حصان كبير وهادئ، كما يبدو. لا بد من أن تكون هذه الصناديق قد سقطت من القطار.

«مشرّدون؟» استدار شارلوك. فماتي هو الشخص الوحيد هنا، وكان يراقب السيدة إيغلانتين بعين حذرة، وبدا على أهبة الاستعداد للفرار إذا ساءت الأمور. «إذا كنت تعتقدين أنه مشرّد، ينبغي عليك إذاً أن تعرفي عنه مزيداً، يا سيدة إيغلانتين»، قال شارلوك بجسارة، مستاءً من موقفها.

التوت شفتاها. «يرغب السيد في رؤيتك حال عودتك». قالت أثناء قيام الرجلَين خلفها بوضع الصندوق الأخير على متن العربة. «أرجو ألا تجعله ينتظر». استدارت وصعدت إلى أحد المقاعد الأمامية. «سيقدَّم الغداء سواءً أكنت موجوداً أم لا»، أضافت مع قفز أحد الرجلين للجلوس في المقدَّمة، وصعود الآخر في الخلف. «صديقك غيرمدعوّ».

خبّ الحصان جارّا العربة خلفه. لم تلتفت السيدة إيغلانتين للنظر إلى شارلوك بل استمرت بالتحديق إلى الأمام. فنظر الرجل الجالس في مؤخَّر العربة إلى الفتى وأومأ برأسه بطريقة مستساغة، لامساً مقدَّم قبّعته. كان قد فقد كثيراً من أسنانه، وهناك ثلم في أذنه تسبّب به سكين أو فأس أو شيء من هذا القبيل، كما يبدو.

«من كانت تلك؟». سأل ماتي، مقترباً من شارلوك.

«إنها السيدة إيغلانتين، مدبّرة المنزل حيث أُقيم. هي لا تحبني».

«أعتقد أنها لا تحب أحداً». قال ماتي.

«من الأفضل لي أن أغادر»، قال شارلوك. «سيتطلبني الأمر نصف ساعة للعودة إذا أسرعتُ، وهي جادّة في شأن الطعام. سأتضوّر جوعاً حتى يحين موعد العشاء إذا أغفلتُ موعد الغداء». واستدار نحو ماتي. «هل سأراك غداً؟».

أومأ ماتي برأسه. «نلتقي هنا قرابة الساعة العاشرة؟».

تطلّب الأمر نحو خمس وأربعين دقيقة لعودة شارلوك إلى منزل عزبة آل هولمز، ووصل أثناء قرع الجرس إيذاناً بموعد الغداء. فنفض ما استطاع من غبار عن ملابسه ودخل غرفة الطعام. على غير عادة، كان شرينفورد هولمز جالساً على رأس الطاولة يقرأ كرّاساً، في حين كانت زوجته آنّا تتفحص سكاكين المائدة، متحدثةً إلى نفسها. كانت السيدة إيغلانتين تقف وراء العم شرينفورد. لم تُبدِ أي ردّ فعل عندما دخل شارلوك، ولكنه أدرك انطلاقاً من طريقة تجنّبها النظر إليه أنها لاحظت وصوله.

«مساء الخير أيها العم شرينفورد والعمة آنّا»، قال شارلوك بتهذيب أثناء جلوسه.

أومأ شرينفورد برأسه لشارلوك من دون رفع عينَيه عن كرّاسه، أما آنّا فتمكنت من إلقاء ما بدا أشبه بتحية أثناء حوارها مع ذاتها.

دخلت خادمةٌ حاملةً سلطانيةَ حساءٍ شرعت بسكبه في الأوعية تحت إشراف السيدة إيغلانتين. راقب شارلوك هذا الأمر من دون كثير اهتمام إلى أن قام شرينفورد بوضع كرّاسه من يده، ومال إلى الأمام وقال: «أيها الشاب، سيأتي زائر بعد الغداء، ومن الضروري أن تكون حاضراً. لقد ألحّ عليّ شقيقك لأضمن استمرار تعليمك أثناء غيابك عن المدرسة، وتمنّى أيضاً أن تنأى بنفسك عن المتاعب. لهذا السبب، خصّصت لك مدرِّساً خصوصياً سيقوم بتدريسك لمدة ثلاث ساعات في اليوم، كل أيام الأسبوع باستثناء يوم الأحد، وفي هذا اليوم أتوقّع حضورك إلى دار العبادة مع باقي أفراد العائلة. يدعى المدرِّس آميوس غروي». وأصدر صوت تنشُّق. «السيد غروي زائر في هذا البلد من المستعمرات، كما أعتقد، ولكنه أثبت بأنه رجل متعلّم وحصيف. لغتاه اللاتينية واليونانية ممتازتان. أتوقع منك أن تلتزم بتوجيهاته».

شعر شارلوك بالتهاب وجهه من شدة الغضب. فعندما وصل إلى منزل عزبة آل هولمز للمرة الأولى، كان يرى الأيام تنقضي أمامه خاليةً وفارغة، وتساءل عن كيفية قضاء وقته، لكنه وجد نفسه أمام مجموعة كاملة من الاحتمالات بعد لقائه ماتي آرنات. أما الآن، يبدو الأمر كما لو أن كل الأبواب ستُغلق في وجهه من جديد.

«شكراً لك أيها العم شرينفورد»، تمتم شارلوك. وحاول أن يبدو ممتنًّا، لكن تعابير وجهه لم تساعده في ذلك. فابتسمت السيدة إيغلانتين قليلاً من دون النظر إلى عيني شارلوك.

بعد الحساء، قُدّمت فطيرة باللحم مع معجَّنات سميكة ومرَق، وتلا ذلك حلوى البودينغ الصيفية. تناول شارلوك الطعام، ولكنه بالكاد تذوّقه. كانت أفكاره تتمحور حول واقع تحوُّل إجازته الصيفية إلى جحيم، وتاق في تلك اللحظة للعودة إلى استقرار المدرسة وتوقعاتها.

بعد الغداء، استأذن شارلوك بالانصراف.

«لا تذهب بعيداً»، قال شرينفورد، مذكّراً إيّاه. «تذكَّر زائري».

تسكّع شارلوك في الرَّدهة، في حين سلك كل فرد من العائلة وُجهته، شرينفورد إلى المكتبة والعمة آنّا إلى المستنبَت الزجاجي للنباتات. لقد

أمضى وقته وهو ينظر إلى اللوحات ويحاول تحديد تلك التي رُسمت بطريقة غير متقنة. بعد برهة، تقدّمت خادمة منه وفي يدها صَينيّة فضّية عليها مغلّف.

«سيد هولمز»، قالت بهدوء، «وصلتك هذه الرسالة صباح اليوم».

تلقّفها شارلوك عن الصَّينية. «لي؟ شكراً لك!».

ابتسمت الخادمة وذهبت. نظر شارلوك حوله، متوقعاً ظهور السيدة إيغلانتين وانتزاع الرسالة من يده، ولكنه كان بمفرده في الرَّدهة. فالمغلّف موجَّه بالفعل إلى السيد شارلوك هولمز، منزل عزبة آل هولمز، فارنهايم، ويحمل الختم البريدي وايت هول. مايكروفت! إنه من مايكروفت! مرّر ظفره بلهفة كبيرة تحت الختم الشمعي، وفتح المغلّف.

كانت هناك ورقة واحدة في الداخل، وفي الأعلى عنوان إقامة مايكروفت في لندن مطبوعاً، وفي الأسفل رسالة بخط يد مايكروفت الأنيق والمميَّز، جاء فيها:

عزيزي شارلوك،

أتمنى أن تكون بصحة جيدة. لابد أنك تشعر بالوحدة والهجر الآن، وهذا ما يثير غضبك. أرجو أن تَعي أنني أقدّر شعورك وليتني أستطيع القيام بشيء ما لمساعدتك.

يمكنك مساعدتي بشيء ماقال شارلوك في نفسه. يمكنك السماح لي بالقدوم إليك والعيش معك طوال العطلة! لكنه سرعان ما صرف النظر عن هذه الفكرة. فلمايكروفت مشاكله الخاصة: عمل متطلّب، ويتصرف الآن كربّ أسرة بغياب والدهم، ويعتني بوالدتهم معتلّة الصحة وبشقيقتهما التي تواجه مشاكلها الخاصة. لا، لقد بذل مايكروفت قُصارى جهده لأجلهم. أحياناً، قال شارلوك في نفسه، تكون كل الخيارات المتاحة أمام المرء ظالمة، فيتعيّن عليه اختيار ذاك الذي يقلّل العواقب الوخيمة بدلاً من الخيار الذي يزيد العواقب الحسنة. لقد شعر أن التفكير بهذه الطريقة هو أمر خاص بالبالغين، ولم يشأ التصديق بأن حياة البالغين تسير على هذا النحو.

ستصلني أي رسالة تُوجّهها إلى العنوان أعلاه خلال يوم واحد، وأعدك بتلبية أي طلب تريد في الحال، باستثناء ذاك الطلب المعروف بأن تأتي للعيش معي هنا في لندن.

آه، هو يسبقني كالعادة، قال شارلوك، مذهولاً. طالما أظهر شقيقه على الدوام قدرة رهيبة على توقّع ما سيقول شارلوك. وتابع القراءة:

اقترحت على العم شرينفورد تعيين مدرّس خصوصيّ كي يتابع لك دروسك. لقد تلقيتُ تقارير جيدة عن رجل يدعى آميوس غروي، واقترحت اسمه على شرينفورد. أنا واثق من أن السيد غروي جدير بالثقة. لقد علمتُ أيضاً أن لديه ابنة يمكنك من خلالها تكوين صداقات مع من هم في سنّك في المنطقة.

يدلّ ذلك على مدى معرفتك، قال شارلوك في نفسه. لقد بدأتُ للتوّ بتكوين صداقات.

في الختام، أريدك أن تذكر أن هذا الوضع مؤقت. ستتغير الأمور كما هي الحال على الدوام. حاول الاستفادة من الوضع الذي وجدت نفسك فيه. وكما كتب الشاعر عمر الخيّام:

هنا مع رغيف خبز تحت الأغصان

وزجاجة شراب، وكتاب شعر

أنت معي تغنّين في البرّية

والبرية جنّتي..

حاول شارلوك أن يَعي اللغز وراء معنى هذه الكلمات أثناء قراءتها. فرباعيات عمر الخيّاممألوفة لديه، وذلك بفضل نسخة تبرّع بها المترجم ريتشارد بورتون لمكتبة مدرسة ديبدن. يبدو أن الفحوى العام للكثير من الرباعيات هو أن دولاب القدر يستمر بالدوران ولا أحد يستطيع إيقافه بالرغم من أن البشرية قد تستمتع بعض الشيء على درب الأقدار. فهذه الرباعية التي اقتبسها مايكروفت توحي ضمناً بأنه يتعيّن على شارلوك السّعي وراء «رغيف خبزه» - وهو أمر بسيط يساعده على المُضيّ قُدُماً في حياته. ولكن هل أراد مايكروفت التلميح إلى شيء معيّن، أم أنه نُصحٌ عام فحسب؟ شعر شارلوك برغبة شديدة في الردّ على رسالة شقيقه في الحال، طالباً منه شرحاً بتفاصيل أدق، لكنه يعرف تمام المعرفة أن مايكروفت نادراً ما يخوض في التفاصيل عندما يقول شيئاً ما.

بعد ذلك حوّل شارلوك انتباهه إلى السطور الأخيرة:

آخر نُصح أُسديه إليك: احذر من السيدة إيغلانتين. بالرغم من أنها توحي بالثقة، فهي لا تكنّ المودة لآل هولمز.

أعرف أنك لن تُهمِل هذه الرسالة بل ستحتفظ بها في مكان آمن.

شقيقك المحبّ،

مايكروفت

بعد قراءة السطور الأخيرة، شعر شارلوك بقشعريرة تسري في جسده. لم يكن من المناسب أبداً أن يكون مايكروفت مباشَراً في تحذيره من السيدة إيغلانتين لأن هذا الأمر طرح السؤال التالي، لماذا كان صريحاً إلى هذه الدرجة؟ هل لأنه أراد أن يكون شارلوك على يقين من رأيه بالسيدة إيغلانتين؟ وهل أن اقتراحه الأخير - لا بل توجيهاتهالأخيرة - بألاّ يُهمِل الرسالة هي طريقة مايكروفت المشفَّرة ليقول له أتلِفها. فهذا الأمر غير مناسب أكثر فأكثر.

أعاد شارلوك وضع الرسالة في المغلف، ولكنه وجد شيئاً آخر هناك: قصاصة ورقية أخرى أخرجها ووجد نفسه يحدّق ثانيةً إلى حَوالة مالية بريدية بقيمة خمسة شِلِنات. خمسة شِلِنات! لطالما خشي التطرّق إلى موضوع مصروف الجيب مع عمّه أو عمّته، ولكن مايكروفت سيمدّه بالمال كما يبدو.

أُسقط في يد شارلوك بسبب الرسالة. لقد اطمأنّ وشعر بالسعادة لأن مايكروفت يتواصل معه ولأنه عِلِم بموافقة مايكروفت على آميوس غروي، ولكن قلقه ازداد من أمر كان مصدر إزعاج له في السابق؛ السيدة إيغلانتين وكرهها العلنيّ له.

«هل هي رسالة مثيرة للاهتمام؟».

كان الصوت عميقاً ودافئاً وفيه لكنة لم يتمكن شارلوك من تمييزها. استدار أثناء طيّ الرسالة وإعادتها إلى جيبه. فالرجل الواقف في الخارج عند عتبة الباب المفتوح طويل القامة، عريض المنكبين، وشعر رأسه ناصع البياض، وبشَرة عُنُقه متهدّلة، ولكن تكوين جسده يُخفى عمره الحقيقي. بشرته سمراء، جِلديّة المظهر، كما لو أنه أمضى وقتاً طويلاً في الهواء الطلق تحت أشعة شمس أكثر حرارة من شمس إنكلترا. هو يرتدي بِذلة قشدية اللون مصنوعة من قماش غير مألوف بالنسبة إلى شارلوك، ويحمل في يده قبّعةً عريضةَ الحافّة.

« من شقيقي، مايكروفت»، قال شارلوك، غير واثق ما يتعيّن عليه القيام به. هل ينادي الخادمة، أم يدعو الرجل للدخول؟

«آه، مايكروفت هولمز»، قال الرجل. «نملك أصدقاء مشتركين، كما يبدو. وما دمت أرفض التصديق بأنك عجوز بما يكفي لتكون السيد شرينفورد هولمز، فلا بدّ من أن تكون شارلوك الشاب إذاً».

«شارلوك سيغر هولمز، في خدمتك»، قال شارلوك، شادًّا قامته نحو الأعلى، ثم نظر من حَوله. «آه، هلاّ تفضّلتَ بالدخول، يا سيّد...؟».

«آميوس غروي» أجاب الرجل. «سابقاً، من ألبوكيرك في ولاية نيومكسيكو، وهي جزء من الولايات المتحدة الأميركية. وأنت شخص لطيف جداً». دخل. «لا بد من أن تكون قد استنتجت هويتي بنفسك. أنا هنا بناء على توصية من شقيقك، ولن يكتب لك رسالة دون ذكر هذا الأمر، أليس كذلك؟».

«عليّ العثور على خادمة، أو...».

وقبل أن يتمكن من إنهاء جملته، خرجت السيدة إيغلانتين من الظلال بالقرب من الدرج الرئيسي. منذ متى تقف هناك؟ هل رأته يقرأ الرسالة؟

«السيد غروي؟» سألت. «كان السيد يتوقع قدومك. أرجو أن تتفضل من هنا». وأشارت في اتجاه الباب المؤدي إلى المكتب.

ارتعد شارلوك لاإرادياً. ما من وسيلة تمكّنها من معرفة فحوى رسالته سوى أن تفتحها وتعيد إغلاقها، ورفض أن يصدّق إمكانية قيامها بذلك، ولكنه شعر، بالرغم من ذلك، بأنه أخذ على حين غَرّة وهو يرتكبُ عملاً مُشيناً.

دخل آميوس غروي الرَّدهة، تاركاً قبّعته وعصاه على رفّ المعاطف، ثم سار في اتجاه شارلوك. «سنتحدث لاحقاً»، قال، واضعاً يده على كتف شارلوك. فشارلوك طويل القامة مقارنة بعمره، ولكن آميوس غروي يزيده طولاً لدرجة شعور شارلوك بأنه فتى في العاشرة من عمره. «جُلْ على المكان، يا بُنَي». وألقى نظرة سريعة على أنحاء الرَّدهة. «أثناء انتظارك، حاول اكتشاف عدد اللوحات الزائفة من بين هذه اللوحات».

تسمّرت السيدة إيغلانتين في مكانها. «ليس هناك أي لوحة زائفة!» هسهست. «لن يسمح السيد أبداً بوجود لوحات زائفة!».

«لا لوحات زائفةهي إجابة مقبولة»، قال غروي، مازَّا بمحاذاة شارلوك وغامزاً إيّاه. وسلّم السيدة إيغلانتين بطاقة. «أكون ممتنًّا لو أبلغتِ السيد بحضوري».

قادت السيدة إيغلانتين آميوس غروي إلى المكتبة. وبعد لحظات، خرجت وغادرت من دون أن تنظر إلى شارلوك. فتتبّعها بعينيه وهي تختفي داخل ظلال الدَّرَج، متسائلاً عما إذا كانت قد توقفت هناك واستدارت وشرعت بمراقبته.

تمكّن شارلوك من سماع أصوات منبعثة من داخل المكتبة، ولكنه لم يتمكن من فهم ما يقال. بعد ذلك، تجوّل متفحّصاً تفاصيل كل لوحة على حِدة. لا وجود لأي لوحة زائفة. لم تكن مادةُ تذوّق الفن ضمن منهاج مدرسة ديبدن، ووجد أن المناظر الطبيعية، ومشاهدَ البحر وصيدِ الطرائد البرّية، لا تثير اهتمامه لأنها بدت له زائفة بأشجارها الخالية من أي شوائب، وببحارها الهادرة، وخيولها نحيلة القوائم.

لقد بدت له ألبوكيرك في أميركا مكاناً خيالياً إلى حد كبير. فشارلوك يعرف النَّذر اليسير عن أميركا، عدا عِلمه باستعمارها من قِبَل الإنكليز منذ أكثر من مئتي عام، وثورتها على الحكم البريطاني بعد مئة عام، وأن شعبها مستقل ومعتدّ بنفسه. أوه، واندلاع حرب أهلية منذ بضع سنوات، وللأمر علاقة بالرِّق. ولكن آميوس غروي راق له على الفور، وإذا كان غروي مثالاً عن مواطنيه فسيكون شارلوك راغباً في الذهاب إلى أميركا ذات يوم.

بعد نحو نصف ساعة، فُتح باب المكتب وخرج آميوس غروي. كان يبتسم ويصافح شرينفورد هولمز. من ورائهما، بدت مجموعات الكتب المجلّدة بالأخضر كلوحة عُشبيّة.

«آه، شارلوك»، قال شرينفورد. «يا سيد غروي، اسمح لي أن أعرفك إلى ابن شقيقي، شارلوك».

«التقينا منذ قليل»، قال السيد غروي، وأومأ برأسه لشارلوك.

«حسناً. شكراً لمجيئك. سأطلب من الخادمة أن ترافقك».

«لا تُزعج نفسك، سيد هولمز؛ سأقوم بنزهة على الأقدام عبر أراضيك مع السيد شارلوك الشاب، إذا أذنت لي».

«بالطبع، بالطبع». وانسحب السيد شرينفورد إلى مكتبته كسلحفاة تنسحب إلى ترسها، وتوجّه غروي بخطى واسعة إلى حيث يقف شارلوك.

«حسناً، أيّ من اللوحات هي الزائفة؟» سأل. «هذا إن كانت هناك لوحة زائفة».

تفحّص شارلوك اللوحات بدقة. وبالرغم من ملاحظته الدقيقة، لم يكن واثقاً تماماً. فأشار إلى لوحة محدّدة غير مرسومة بإتقان تُظهر فارساً يمتطي حصاناً نحيل القوائم إلى حد كبير لدرجة إمكانية انقصامها تحت وطأة وزن الفارس. «تلك بالذات ليست مرسومة بشكل جيد»، قال، مجازفاً. «فالمنظور كله مشوّه والتركيب البِنيويّ للّوحة خاطئ. هل هي اللوحة الزائفة؟».

«في ما يتعلق بالزِّيف»، قال غروي، متفحّصاً اللوحة، «يمكن اكتشاف تلك المرسومة بموهبة أقلّ وبسرعة كبيرة. غالباً ما تكون اللوحات الزائفة أكثر إقناعاً من الحقيقية. أنت محق في أن اللوحة نُفِّذت على نحو غير مُتقَن، لكنها حقيقية». ثم اتجه نحو لوحة تُظهر مشهداً ساحلياً مثيراً تتحطّم أمواجه على الشاطئ، في حين تتقاذف الأمواج سفينة في الخلفية. «هذه هي اللوحة الزائفة».

حدّق شارلوك إليها. «كيف تعرف ذلك؟».

«على غرار عدد من لوحات عمّك، تُنسَب هذه اللوحة إلى كلود جوزيف فيرنيه. ولدى عمّك أيضاً لوحات قليلة لهوراس، ابن فيرنيه. كان فيرنيه الأب مشهوراً برسم المشاهد الساحلية، وهذه لوحة لميناء دوفر، ولكن فيرنيه لم يزر إنكلترا أبداً. والتفاصيل واقعية على نحو كبير: من الواضح أنها رُسمت من خلال مشاهدة حية؛ لذلك، فهي ليست لفيرنيه قَطعاً، بل هي لوحة زائفة رُسمت بأسلوبه».

«ما كنت لأعرف ذلك»، اعترض شارلوك. «لم أتعلّم أي شيء عن فيرنيه، أو عن أي رسام آخر».

«وماذا تستنتج من ذلك؟» سأل غروي. وحدّق إلى شارلوك بعينَيه الزرقاوَين المخبأتَين تقريباً وراء بشرته المتغضّنة.

ففكر شارلوك للحظات. «لست أدري».

«باستطاعتك استنتاج ما شئت، ولكن من العبَث القيام بذلك بدون امتلاك معرفة. فعقلك يشبه دولابَ غَزْل يدور باستمرار وبشكل عبَثيّ ما لم يلقَّم بالخيوط، وعندئذٍ يبدأ بإنتاج غَزْل. فالمعرفة هي أساس كل تفكير عقلاني. ابحث عنها، وواظب على جمعها، واملأ عقلك بأكبر قدر ممكن من الحقائق. لا تحاول التمييز بين الوقائع المهمة والوقائع العاديّة: ربما تكون كلّها مهمة».

فكر شارلوك للحظة. كان قد جهّز نفسه للشعور بالإحراج، ولكن لم يكن هناك أي أثر للانتقاد في صوت غروي، وما يقوله جدير بالاهتمام. «فهمتُ»، قال، وأومأ برأسه.

«أنا واثق من ذلك»، أجاب غروي. «دَعنا نذهبْ في نزهة سَيراً على الأقدام ونرى ما يمكننا العثور عليه».

استعاد غروي قبّعته وعكازه من المكان المحاذي للباب، ثم خرجا معاً للتجوّل تحت أشعة الشمس الساطعة. انطلق غروي عبر المرج الأماميّ وتغلغل بين الأشجار، متحدثاً عن الأشكال المختلفة للغمام في السماء وعن علاقتها بالطقس.

«هل تساءلت يوماً عن الثعالب والأرانب؟» سأل بعد برهة.

«ليس تماماً»، أجاب شارلوك، متسائلاً عما سيؤول إليه هذا التغيير المفاجئ في مسار الحديث.

«لِنقُل إنك تملك مئة ثعلب ومئة أرنب في غابة، وهناك سور حول الغابة كي لا يتمكن أيّ منها من الخروج. ماذا سيحدث؟».

ففكر شارلوك لبرهة. «سَتَلِد الأرانب أرانب صغيرة، وتَلِد الثعالب ثعالب صغيرة، وتأكل الثعالب الأرانب».

«كلّها؟».

«معظمها، ويكون من الصعب العثور على الأرانب المتبقّية، وقد تبدأ بالاختباء».

«وما الذي سيحدث بعد ذلك؟».

هز شارلوك كتفَيه، غير واثق مما سيؤول إليه ذلك. «تبدأ الثعالب بالموت بسبب التضوّر جوعاً، كما أفترض».

«والأرانب؟».

«تبقى مختبئة، متناولةً العشب ومتكاثرة، فيبدأ عددها بالازدياد». وبدأ وميض الاستيعاب يتفجّر في ذهنه. «بعد ذلك، تبدأ أعداد الثعالب بالازدياد لأنها تصطاد مزيداً من الأرانب وتأكل بشكلٍ ملائم، فتتكاثر. وأخيراً، يصبح عدد الثعالب كبيراً جداً بسبب تناولها مزيداً من الأرانب، ويبدأ عدد الأرانب بالتناقص مجدداً».

«وتُكرَّر العملية نفسها كموجتَين ناهضتَين وهابطتَين، واحدة تِلو الأخرى. وفي مكان ما وراء كل ذلك عمليات رياضية تُدعى حساب التفاضل، وينبغي عليك الإطلاع عليها لأنها مفيدة بشكل غريب. يمكنك تطبيق هذه المعادلات عينها على المجرمين ورجال الشرطة في البلدة إن شئت». وضحك فجأةً. «لا يأكل رجال الشرطة المجرمين في العادة، ولكن الأسس هي نفسها. لقد طوّر إسحق نيوتن وغوتفريد ليبنيتز الرياضيات، كلٌّ على حدة، ولكنها تطورت بشكل أكبر مؤخراً من قِبَل أوغستين كاوتشي وبرنارد ريمان. تُوُفّي ريمان منذ أشهر عدة؛ إنه خسارة كبيرة للعالم في اعتقادي، بالرغم من عدم وثوقي من إدراك العالم لهذه الخسارة بعد».

كان شارلوك يشك بأن الرياضيات ستكون مهمة يوماً، لذلك لم يأبه بها، وملأ ذهنه بأشياء تتعلق بالفن والموسيقى التي كان يجدها ممتعة. ولكن باستطاعته تدبّر أموره بمعزل عن المعادلات.

بعد برهة، وصلا إلى الجدار الذي يحدّد تخوم مِلكية هولمز. فأشار غروي إلى اليمين. «اذهب في هذا الاتجاه، واجمع أكبر قدر ممكن من الفطر وفطر الغاريقون. سأذهب في الاتجاه الآخر. دَعْنا نلتقِ هنا بعد نصف ساعة وسأريك كيف تتمكن من التمييز بين الفطور السامة وتلك غير السامة. لا تختبر أيًّا منها قبل أن أقول لك، انتبه! إنها تقنية تحليل صحيحة قَطْعاً، ولكنها ربما تكون قاتلة».

انطلق غروي إلى اليسار، مُبعِداً الشَّجَيرات والأعشاب جانباً بعصاه ومحدِّقاً إلى الأسفل. ومضى شارلوك في الاتجاه المعاكس، متفحصًّا الأرض بَحثاً عن الفطور اللَّبّية البيضاء التي تشقّ طريقها بين السراخس.

في غضون ثوانٍ، غاب عن ناظرَي آميوس غروي. وواصل التقدم، ولكنه لم يجد شيئاً باستثناء مجموعات متتالية من ثمار بُنّيّة اللون شبيهة بالأطباق تنبثق بالقرب من جذع شجرة، ولم يكن متأكداً ما إذا يتعيّن عليه جمعها أم لا.

لقد استرعى انتباهه وميضُ لونٍ بين الأشجار: بُقَع حمراء على خلفية بيضاء. دنا منها، معتقداً أنها أجَمة من فطر الغاربقون، ولكنْ ثمة شيء ما في شكلها أربكه. لقد بدت أشبه...

وبدأت غمامة دخان بالتصاعد من الكتلة المجهولة، وسرعان ما أدرك شارلوك ماهيّتها: جثة رجل مُلقاة بشكل مُلتوٍ على الأرض. واندفع الدخان بعيداً مع هبوب النسيم، ولكن لم يكن ثمة أثرٌ لنار. اعتقد شارلوك للوهلة الأولى أن الرجل مستلقٍ هناك يدخّن الغليون ووجهه مغطّى، لسبب ما، بمنديل أبيض يحمل بُقعاً حمراً. وعندما اقترب أكثر، أدرك أن البقع الحمر ليست علامات على فطر الغاربقون ولا بُقعاً على منديل أبيض.

إنها دمامل دَمَويّة على وجه جثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

سحب آميوس غروي مِنديلاً من جَيبه وأعطاه لشارلوك. ومن جَيب آخر أخرج قنينة معدنية مسطّحة ومقوَّسة، وحولها عصابة جِلدية. فتح السِّدادة وسكب سائلاً بنِّيّاً على المنديل الذي يحمله شارلوك، مبلِّلاً إيّاه تماماً. انبثقت من القماشة المُشبَعة بالسائل رائحة تخز الأنف، وتدمع العينين.

«إنه شراب»، قال غروي «تحسُّباً فقط من أن يكون ما قتل هذا الرجل مُعدِياً. لا نريد التقاط ما أبعده عن هذا العالم». وسحب مِنديلاً آخر من جَيب أخرى وقام بالأمر نفسه.

«ما قتله؟» سأل شارلوك حائراً. «إنه مرض من نوع ما بالتأكيد. انظر إلى وجهه!».

وتركزت عينا غروي الزرقاوان البرّاقتان على وجه شارلوك. وحدّق إلى الفتى باهتمام للحظات قليلة، وهو لا يزال حاملاً المِنديل. «هل تعتقد أن المرض أمر يحدث فحسب؟ تتطوّر الأمراض فقط في جسد لم يتلقَّ أي مساعدة؟».

«أفترض ذلك»، أعلن شارلوك بتردد. «في الواقع لم يسبق لي أن فكرت في الأمر».

«ولكنك تعلم أن باستطاعة الأمراض الانتقال من شخص إلى آخر إذا لمسه أو كان قريباً منه».

«أجل...» قال شارلوك بحذر، متسائلاً عما سيؤول إليه هذا الأمر.

«إذاً، أليس من المنطقي أن ينتقل شيء ما من الشخص المريض إلى الشخص السليم ويجعله مريضاً بدَوره؟».

لزم شارلوك الصمت. هو يعلم أن هذا الأمر سيصبح عِبرةً أخرى مهما قال.

«كنت في فيينا منذ سنوات قليلة»، قال غروي. «التقيت رجلاً يدعى إغناس سِمِلويس. إنه هنغاري يعمل مع نساء على وشك الولادة. لقد لاحظ أن النساء اللواتي يعاينهنّ أطباء أو طلاّب طب تكون فرصة موتهنّ بحُمّى النِّفاس أكبر من أولئك اللواتي تعاينهنّ قابلات. إنه رجل ذكي. سِمِلويس لاحظ ما لم يلاحظهُ أطباء آخرون. أدرك أن هؤلاء الأطباء غالباً ما كانوا يأتون من المشرحة مباشَرةً للإشراف على عمليات الوَضْع. لقد حمل الأطباء على غسل أيديهم بالماء والكِلس قبل معاينة النساء الحوامل، فانخفضت نسبة الوفيات بسبب حُمّى النِّفاس في مستشفاه. من الواضح أن الكِلس قتل أو

دمّر شيئاَ ما على أيدي الأطباء كان ينتقل من الجثث إلى النساء». ورفع المِنديل. «لهذا السبب نستخدم الشراب. فللشراب مفعول مماثل».

«أي نوع من الأشياء؟» سأل شارلوك.

ابتسم غروي. «كتب الكاتب الروماني ماركوس ترنتيوس فارو... تولَد بعض المخلوقات البالغة الصِّغر التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجرَّدة، وتطفو في الهواء وتدخل الجسم عبر الفم والأنف، متسببةً بأمراض خطرة. ليست من نوع الأمراض الكلاسيكية التي درستموها في الكلّية، كما أعتقد. تكلّم أشخاص عن هذه المخلوقات البالغة الصِّغر طوال قرون، ولكن مهنة الطب لم تتعاطَ مع الأمر بجِدّية».

«ولكن، ألا يمكننا ترك الجثة هنا وإخبار أحدهم؟» سأل شارلوك. «ألن يكون ذلك أكثر أماناً لنا؟».

نظر غروي حَوله إلى الأشجار والخمائل. «هناك فرصة كبيرة لقدوم ثعلب أو غُرَير إليها والتهام كفايته منها. لم ألتقِ هذا الرجل أبداً، ولكنني لا أتمنى ذلك لأحد، سواءً أكان حيًّا أو مَيتاً. لا، سيتعيَّن نقله من الغابة في مرحلة ما لدفنه، والآن أفضل من أي وقت آخر. سنكون في أمان ما دمنا لا نلمسه ونضع أقنعة الوجه هذه».

ربط غروي المِنديل حول وجهه بحِرص. لقد جعلت الأبخرة المنبثقة من الشراب عينَيه تدمعان. ضحك، وتجعّدت الخطوط العميقة حول عينَيه. «لم أقل إنه شراب جيد»، قال. «تذكّر ألا تتذوّقه. الآن، انطلق بسرعة وأحضر عربة يد بعجَلة واحدة من الحدائق. أحضرها إلى هنا بالذات».

تاركاً غروي منحنياً فوق الجثة، وداسًّا المِنديل في جَيبه لوقت لاحق، عاد شارلوك أدراجه بسرعة عبر الغابة في اتجاه المنزل. لقد اجتاز طريقه عبر مختلف الأشجار، والخمائل، والفُطريات، التي كان آميوس غروي قد أشار إليها على امتداد الطريق، منطلقاً بأقصى سرعة وهو يجتاز الشجَيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، ويشعر بالأعشاب تصطدم بكاحلَيه كضربات سِياط أثناء ركضه. امتزج في مِنخرَيه أريج الخِنشار اليابس والخُزامى، وشعر بالعرَق يتصبّب من جبينه ومن بين عَظمتَي لوحَي كتفَيه، متقطراً على خدَّيه وعموده الفِقري.

اندفع خارج الغابة إلى الأرض المفتوحة التي تفصله عن المنزل، وتوقف للحظات كي يلتقط أنفاسه ويبرد جسمه قليلاً. لقد بَهَرته شمس بعد الظهر مؤقتاً كمن تلقّى ضربة على رأسه. وانحنى، يداه على رُكبتَيه، مستنشقاً جُرعات من الهواء الدافئ. فجأةً، عادت الأصوات التي كتمتها الأشجار - قَطْع

الأشجار، نخير الحيوانات البعيد، غناء أحدهم- مطالبةً بصخَب أن يعيرها انتباهه.

وقف وحدّق إلى شكل بشريّ في البعيد، جالس على صهوة حصان. كانا تماماً وراء البوّابة المؤدية إلى الطريق، في الجانب الآخر للجدار العالي. كان الحصان ساكناً، وبدا لشارلوك أن الشكل البشري يراقبه. نظر شَزَراً، رافعاً يده ليقي عينَيه أشعة الشمس، ولكن الحصان تحرك واختفى الشكل البشري لحظة قيام يده بحجب نظرته المتفرّسة.

ناسياً أمر الشكل البشري، عثر شارلوك على عربة يد بعجَلة واحدة قرب خُمِّ الدجاج، ودفعها بسرعة، عائداً عبر الغابة إلى حيث الجثة ممدَّدة. وجد غروي يتفحص جيوب الرجل بدقة.

«لا شيء يدلّ على هويّته»، قال دون أن ينظر حَوله، والمِنديل يكتم صوته. «هل تعرفه؟».

حدّق شارلوك إلى الوجه المنتفخ، شاعراً بتوعّك في معِدته. وحاول تصوّر معالم الوجه عبر الدُّمَّل والاحمرار. «لا أعتقد ذلك»، قال أخيراً، «ولكن يصعب التمييز».

«انظر إلى الأُذُنَين»، قال غروي. «آذان الناس مميِّزة تماماً. بعضهم ليس لهم شحمة أُذُن، وبعضهم آذانهم مجعَّدة، وآذان بعضهم الآخر تشبه الصَّدف تماماً. إنها طريقة بسيطة لتمييز الأشخاص، ولا سيما إذا كانوا يحاولون التنكّر».

قضم شارلوك شفته، مانعاً شفتَيه من التفوّه بما تبادر إلى ذِهنه؛ يكاد الرجل الممدَّد مَيتاً على الأرض ألاّ يكون في وضع يتيح الكشف عن هويّته، وركّز بدلاً من ذلك على أُذُنه اليسرى المكشوفة. لاحظ وجود شَقّ واضح في البشرة في الوسط تقريباً كما لو أن سكّيناً تسبب به في قتال، أو فأساً أثناء قَطع الحطب. وأثارت الفكرة ذِكرى: لقد رأى هذا الرجل من قَبل. ولكن أين؟

«أعتقد أنه يعمل لصالح عمّي»، قال أخيراً. «رأيته يقود عربة نَقل».

«متى حدث ذلك؟» سأل غروي.

«هذا الصباح». وعبس شارلوك. «ولكن يبدو أنه كان مريضاً طوال أيام. كان بخير عندما رأيته».

«معلومة جيدة»، تمتم غروي. «جيد جداً؛ لِنضعْه في عربة اليد ولْنعُد إلى المنزل. باستطاعة مدبّرة المنزل استدعاء طبيب جرّاح».

«طبيب جرّاح؟».

«طبيب»، وضحك غروي. «ألم تسمع أبداً بعبارة طبيب جرّاح من قَبل؟».

هز شارلوك رأسه.

«يُدعَون بهذا الاسم لأن هذا ما كان باستطاعتهم القيام به منذ مدة غير بعيدة: بَتر أصابع يد أو قَدَم، أيدٍ أو أقدام، أذرع أو سيقان، إذا وقع حادث». ونخر غروي. «لحسن الحظ، تقدّمت الحضارة بطريقة ما منذ ذلك الحين». وانحنى في إتجاه الجثة، ومن ثم قوّم وقفته ثانيةً وألقى نظرة سريعة على شارلوك. «تذكَّر، لا تلمس بشرته، فقط ملابسه. من الأفضل لك عدم المجازفة».

دامت الرحلة عبر الغابة نصف ساعة تقريباً. وكان آميوس غروي يدفع عربة اليد، والجثة بداخلها تكاد لا تكون في حالة من التوازن، بينما كان شارلوك يركض أمام العربة منحنياً وهو يزيل الحجارة والأغصان التي قد تعترض طريق العجَلة أو تتسبب بتعثّر غروي. كانت يدا المَيت تتحركان بتراخٍ نحو الأعلى والأسفل كلما مرّت العربة فوق مطب، فبدا الأمر كما لو أنه يناَضل للجلوس بشكل منتصب. حاول شارلوك عدم النظر إليه.

عندما رأيا المنزل، كان شارلوك يلهث، ويشعر بتوهّج عضلاته ألَماً من فَرْط التعَب. لا بد من أن يكون أحدهم قد رآهما لأن السيدة إيغلانتين كانت تمشي في اتجاههما بخطى واسعة.

التقتهما أثناء خروجهما من صف الأشجار، وبادرت بجفاء:

«لنتُدخلا، هذا الشيءإلى أي مكان قرب المنزل».

«هذا الشيء»، وبّخها غروي بهدوء، «هو أحد عمال سيدك. أعرف أنه مَيت، ولكنني أعتقد أنه يستحق قليلاً من الاحترام بالرغم من ذلك».

شبكت السيدة إيغلانتين ذراعَيها. «سواء أكان عاملاً أم لا، لن أسمح بوضعه في أي مكان قرب المنزل. أنظر إليه. لا أعرف إذا كان الجُدَري أو الطاعون، ولكن يجب حَرق الجثة».

«أوافق»، قال غروي، «ولكن أولاً أريد أن يرى طبيب الجثة. وبالطبع، يجب إبلاغ عائلته. من فضلك، أرسلي في طلب طبيب من البلدة. في غضون ذلك، هل يمكن وضع الجثة في مكان ما؟».

تنشّقت السيدة إيغلانتين وأجابت «هناك كوخ قرب مكان تكويم الروث، لا يُستخدَم لأي شيء. ضعاه هناك. يمكننا حرق الكوخ لاحقاً»، ثم استدارت وعادت إلى المنزل.

«سيدة جذّابة»، تمتم غروي.

سار شارلوك في المقدِّمة حول المنزل إلى مكان تكويم الروث قبل توزيعه على الأراضي المزروعة خُضَراً وعلى البساتين. فالرائحة مُنتِنة ودافئة بالرغم من المِنديل المبلَّل تماماً بالشراب، وتخترق أنفه وفمه.

كان الكوخ متداعياً، وتعيّن على شارلوك وغروي إزالة أكوام الخشب المحطَّم وأدوات المزرعة الصدئة قبل تمكنهما من إدخال الجثة. أضاءت الشمس المتسرّبة عبر ثقوب في السطح والجدران الجثةَ برُقَعِ نورٍ بحجم اليد، تاركةً ما تبقّى من الجثة تحت رحمة الظُّلمة، وقد بدت لشارلوك أشبه بدُمية هزليّة الشكل بالحجم الطبيعي مَرميّة بطريقة مُهمَلة، وذراعاها وساقاها متدلّية فوق حافّات عربة اليد.

«لا فائدة من بقائنا معاً»، قال غروي، وخطا إلى الخارج وأزال مِنديله. «عُدْ إلى المنزل. دَع إحدى الخادمات تُعدّ لك ماء للاستحمام، ماء ساخن. افرك نفسك بصابون فينول. بدِّل ملابسك، ودعهم يحرقونها إذا كانت لديك ملابس احتياطية كافية، وإلا دَعِ الخادمة تأخذها بعيداً لغسلها».

بعد استحمامه، وعندما أصبحت بشرته حمراء ومكشوطة بعد فَركها بصابون فينول، ارتدى شارلوك ملابسه الاحتياطية وغادر المنزل. كان باستطاعته شم الرائحة القَطرانية التي تركها الصابون على بشرته، ولذعته عيناه. انعطف عند زاوية المنزل، ومسح الدموع المنبثقة من عينَيه. رأى آميوس غروي واقفاً خارج الكوخ المتداعي يُجري حديثاً مع رجل قويّ البُنية يرتدي مِعطفاً فضفاضاً أسود. لا بد من أن يكون الطبيب المحلّي. وباقتراب شارلوك أكثر فأكثر، سمع الطبيب يقول بصوته المتعجرف عالي الطبقة: «علينا تنبيه السلطات المدنية. إنها الجثة الثانية التي نعثر عليها حاملةً أعراضاً مماثلة. يجب إلغاء السوق ليوم الغد وإغلاق كل الحانات بهدف الحؤول دون انتشار المرض. يا الله، قد يتعيّن علينا أيضاً ضرب طوق حول الطرقات المؤدية إلى البلدة حتى زوال الخطر!».

«على رُسْلك»، قال آميوس غروي بصوته الجهير وبطء. «لدينا جثتان فقط. قَطرتا ماء لا تشكّلان عاصفة مطرية».

«ولكن إذا انتظرتَ انهمار المطر قبل فتح مِظلتك تتبلّل تماماً»، أجاب الطبيب.

فجأةً، أدرك شارلوك أنه يعرف أكثر مما يعرفان. فالجثة والدمامل وسحابة الدخان هي ما رآه ماتي آرنات بالتحديد عندما مات رجل البلدة. ما كانالدخان؟

«لِننتظر على الأقل حتى نتمكن من إحضار خبير لمعاينة الجثتَين».

هز الطبيب رأسه، مستاءً. «أي خبير؟ يمكنني إجراء تشريح للجثة، ولكن رؤية تلك الأورام في الغدّة اللمفاوية كافية بالنسبة إليّ. علينا الافتراض أننا نتعاطى مع طاعون دَبليّ، وعلينا التصرف بناءً على ذلك».

رفع غروي يداً مطمئِنة. «أعرف مُحاضراً في الأمراض الاستوائية يُقيم في غيلدفورد. إنه البروفسور وينشكومب. يمكننا الإرسال في طلبه. سأكتب رسالة».

«اكتُب إذا شئتَ»، قال الطبيب، «ولكن أثناء قيامك بذلك سأتحدث إلى رئيس البلدية، والمجلس البلدي، وأسقف وينشستر أيضاً».

«ما علاقته بهذا الأمر؟» سأل غروي.

«قصر فارنهايم هو المقر الرسمي لسيادته».

دنا شارلوك، ولكن آميوس رآه ولوّح له كي يبتعد. مرّ شارلوك بلحظة غضب. هو من عثر على الجثة، ولكن يبدو أن غروي يريد إبعاده عن الأمر. ماذا يتوقع منه غروي أن يفعل؟ التسكّع في الأرجاء حتى انتهاء الحديث، ومن ثم الإصغاء فقط إلى العِبرة التي استنتجاها دون معرفة كيفية توصّلهما إليها؟ لديه أمور أفضل يقوم بها لقضاء وقته. إذا أراد غروي التذمّر، فَلْيتصل بمايكروفت.

شعر بالغضب يتمخّض في نفسه، فاستدار وسار مبتعداً إلى داخل الغابة.

حالما دخل الغابة، غاب المنزل عن مرآه في غضون لحظات. كانت الأرض إسفنجية تحت قدمَيه، وفي كل مكان من حوله طقطقةٌ خفيفة للنباتات التي تجفّ تحت أشعة شمس بعد الظهر، وحفيفُ أوراق من حين لآخر مع تحرّك طائر أو ثعلب في الشَّجَيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة. وتنبعث من الأرض رائحة أوراق نَدِيّة، تغطي آثار الشراب التي تخز الأنف والتي لا يزال يشمها مع آثار رائحة الفينول الحادة. لا علامات مَسير، ولا دروب عبر الخمائل يمكن سلوكها؛ وجد شارلوك نفسه مضطراً للخَطو بحذر فوق أشجار ساقطة والالتفاف حول خمائل الزعرور البَرّي لتحقيق أي تقدّم.

لقد دخل الغابة من مكان مختلف عن المكان الذي دخل منه هو وغروي، ولكنه لم يكن متأكداً من مكانه. ففي غضون لحظات قليلة، لم يَعُد باستطاعته رؤية المنزل، ولم يَعُد واثقاً من وُجهته. ربما يكون وسط الغابة أو عند طرفها، وإذا لم يكن حذراً فقد يواصل السير حتى يصل إلى وسط الغابة. لا سبيل له للتحقّق من وُجهته، وبالرغم من محاولة تصنيف أشكال الأشجار التي يمرّ بجانبها، وجد أنها تشبه بعضها بعضاً.

كان هناك شيء ما يدفعه إلى التوغّل في عمق الغابة أكثر فأكثر، شيء ما أساسي لم يفهمه. فبعض الأشخاص يتحدثونَ عن بلدات ومدن كما لو أنها

تتمتع بشخصية، وسبق لشارلوك أن خَبِر شيئاً من هذا القَبيل في لندن في زياراته التي كان يقوم بها مع والده من حين لآخر، وبدرجة أقل في فارنهايم مع ماتي آرنات، ولكن باستطاعته الشعور بنوع مختلف من الشخصية هنا؛ شيء ما موحِش. أيًّا يكن هذا الشيء، فقد شهد موتَ عاملِ المزرعة ولم يُبالِ.

تخلّص من أحاسيسه، فوجد نفسه يتعثّر بآثار عجَلة عربة اليد. تتبّعها إلى حيث كان قد اكتشف الجثة. لقد عاد النبات الذي سُحق تحت الجثة للنمو مجدداً، ولا أثر للمكان الذي كانت ممدَّدة فيه. لقد عرف الموقع بالتحديد من خلال المكان الذي توقّفت فيه آثار عجَلات العربة.

حدّق شارلوك إلى الأرض، غير واثق تماماً عما يبحث. لقد حاول تخيُّل اللحظات الأخيرة للمتوفى. هل تهادى في البَراح، هاذياً، وسقط على ركبتَيه قبل أن ينهار على الأرض، أم أنه كان يسير، غير مُدركٍ أنه مريض قبل أن يُغمى عليه فجأةً ويرقد فاقداً الوعي أثناء ازدياد حجم الدمامل على وجهه ويدَيه؟ ينبغي وجود طريقة ما لمعرفة الحقيقة انطلاقاً من خطواته. إذا كان يهذي تكون إذاً خطواته متعرّجة، في حين أنها تكون في خط مستقيم إذا كان يسير بشكل طبيعي. من المفيد للطبيب أن يعرف مدى سرعة ظهور المرض، عندئذٍ قد يُحدث على الأقل انطباعاً إيجابياً في نفس آميوس غروي بسبب مهاراته الاستنتاجية.

جثم شارلوك وتفحّص الأرض عن كَثَب. لقد أحدثت جزمة الرجل طبعة واضحة في التُّربة؛ كان كعب أحد الحذاءَين بالياً مقارَنةً مع الآخر، ووجد شارلوك أن باستطاعته التفريق بين خطوات الرجل بسهولة وبين خطواته وخطوات آميوس غروي. وتتبّع الخطوات إلى داخل الأشجار. إنها غريبة؛ تارةً، تكون الخطوات في اتجاه، وطَوراً تكون في اتجاه آخر، كما لو أن الرجل يدور في مكانه. كان يرقص، ربما؟ لا، إنه استنتاج سخيف. مُصاب بدُوار؟ إنه استنتاج أكثر احتمالاً. ربما أثّر المرض - أيًّا يكن المرض - في توازنه.

تبع شارلوك درب الخطوات الأشبه بالخَربشة إلى خارج المَراح حتى استقامت في مكان ما. من هناك، تواصلت بشكل مستقيم، وانحرفت من حين لآخر، ثم دارت حول شجرة أو جِذع شجرة ساقط، مبتعدةً عما افترض أنه منزل عزبة آل هولمز. لقد بدا الأمر كما لو أن ما ألمّ به حدث فجأةً: يمشي بشكل طبيعي كما يبدو في لحظة ما، ويترنّح في دوائر في لحظة أخرى كما لو أنه ثَمل، ومن ثم يقع بعد ذلك بقليل، ويفارق الحياة.

عاد شارلوك إلى المنطقة حيث تغيّرت طبيعة الخطوات، وقف بلا حِراك، ناظراً حَوله وقد أسقط في يده. هناك شيء ما يزعجه في شأن الأرض في

الجوار. حدّق إلى الأشجار والخمائل والعشب للحظات قليلة، محاولاً اكتشاف المسألة، ومن ثم أدرك الأمر. إن لَون العشب مختلف قليلاً- أكثر اصفراراً من لون العشب في أي مكان آخر من الغابة. فركع شارلوك ولمس الأرض بإصبعه، ووجد عليه بعد رفعه بُقَعاً وغباراً. لقد نُثر شيء ما هناك.

فرك شارلوك أنامله ببعضها ووجد أن المادة زَلِقة. أيًّا يكن ذلك المسحوق الأصفر، لم يتمكن من التفكير سوى في أمر واحد. وذُعر للحظات، وخفق قلبه بسرعة، كما لو أنه خطر بباله أن المسحوق الأصفر ربما يكون قد تسبب بمرض الرجل، ولكنه اقتنع بعد لحظات من التفكير بأن الأمراض لا تحدث بسبب رُقَعٍ مسحوق؛ هي تُنقَل من شخص إلى آخر. والسُّم احتمال آخر، ولكن أي سموم تُحدث دمامل في وجه رجل وفي يديه؟

فكّر بسرعة، أخرج من جَيبه المغلّف الذي يحتوي على الرسالة التي تلقاها من مايكروفت في ذلك الصباح. ووضع الرسالة في جَيبه، ومن ثم حمل المغلّف من طرفه المقفل فانفتح الطرف الآخر على شكل فم بالغ الصِّغر ومرّره على امتداد العشب، غارفاً. فانتقل بعض الغبار الأصفر إلى داخل المغلّف، وأغلقه بسرعة واحتفظ به في جَيب أخرى. لم يكن يعرف مدى أهمية الغبار، ولكن آميوس غروي قد يتمكّن من تمييزه.

هام على وجهه عبر الغابة، ووجد نفسه أخيراً يخرج إلى طريق- لا يمكن معرفة ما إذا كان يؤدي إلى منزل عزبة آل هولمز أم إلى منزل مختلف. وكان الطريق يتفرّع في اتجاهين، ما جعل من المستحيل عليه أن يعرف مكانه. فجلس بجانب الطريق وانتظر. أخيراً، قال في نفسه إن عربة نقل ستمر أمامه وبإمكانه أن يطلب من السائق إقلاله.

كان وقتاً متقدماً من فترة بعد الظهر. أين يريد الذهاب- إلى منزل عزبة آل هولمز أو إلى البلدة؟ بعد ثوانٍ قليلة، اعتبر أن العودة إلى منزل عزبة آل هولمز ستعرّضه لفترة بعد ظهر مُمِلّة ليس إلا. بدت البلدة أكثر إثارة للاهتمام.

كانت عربات النقل العشر أو الاثنتَي عشرة الأولى التي مرّت أمامه تسلك بأجمعها الاتجاه نفسه، محمَّلةً بأكداس من الصناديق، والأقفاص، وأكياس خَيش، وعلى وجوه السائقين وركّابها أمارات خوف. لم يكن شارلوك واثقاً من الأمر، ولكن شعوراً انتابه بأنهم سمعوا بخبر حالتي الوفاة وهم ويتجهون إلى خارج فارنهايم، مبتعدين قَدْر الإمكان عن داء الطاعون المحتمَل. لم يتكبد عناء طلب قيامهم بإقلاله: توحي النظرات على وجوههم بأنهم لن يستحسنوا فكرة إقلاله. أخيراً، وبعد نصف ساعة تقريباً، سمع جلجلة عَجلات عربة على

صفحة التراب الصلبة تسلك الاتجاه المعاكس للعربات الأخرى. فوقف وانتظر ظهورها عند المنعطَف.

«عُذراً»، نادى على السائق الأشيب الشعر، النحيل الوجه. «في أي اتجاه تذهب؟».

فأومأ السائق برأسه ببطء، مشيراً إلى الطريق أمامه. لم يتكبد عناء النظر إلى شارلوك، عِلماً أنه قام بشدّ الرَّسَن على الأقل لإيقاف الحصان.

«في أي اتجاه يقع منزل عزبة آل هولمز؟» نادى شارلوك.

فأمال الرجل رأسه وأشار إلى الطريق خلفه.

«هل يمكنك إقلالي إلى البلدة؟» سأل.

فكر الرجل في الأمر مليًّا، ومن ثم حرك رأسه في اتجاه مؤخّر العربة. معتبراً ذلك رداً إيجابياً، صعد شارلوك إلى العربة التي انطلقت بأقصى سرعة، متسبّبةً تقريباً بقذفه إلى الخلف، ولكنه هوى على كومة من القش.

لم يتكلّم السائق أبداً أثناء الرحلة، ووجد شارلوك أن لا شيء لديه أيضاً ليقوله. لقد قضى وقته مفكراً، على التوالي، بالرجل المَيت، بالفارس الغامض، وبالمظهر الغريب ولكن الجذّاب لآميوس غروي. بالنسبة إلى مكان بدا في بادئ الأمر مثيراً للاشمئزاز والملل، تبيّن أن منزل عزبة آل هولمز وجِواره المباشَر بعيد كل البُعد عما خُيِّل له.

وانجرفت أفكاره إلى القصة التي سبق لماتي أن رواها له عن الجثة التي نُقلت خارج المنزل في فارنهايم، والسحابة الغريبة التي قال ماتي إنه رآها تطفو خارج النافذة. لقد رفض شارلوك الاستماع إلى القصة في ذلك الوقت - على الأقل، الجزء الصغير المتعلق بالسحابة - ولكنه بدّل رأيه. فإذا كان آميوس غروي مُحِقاً في شأن الأمراض التي تتسبب بها مخلوقات بالغة الصِّغَروتنتقل من شخص إلى آخر، فما الذي رآه وماتي إذاً؟ سحابة من هذه المخلوقات البالغة الصِّغَر المسببة للأمراض؟

لم يبدُ الأمر منطقياً. فأحد لم يذكر أبداً رؤية سُحُب المخلوقات هذه من قَبل. لا يمكن أن يكون شارلوك وماتي هما الشخصان الوحيدان اللذان صادفاها؟ لا بد أن هناك خطباً ما.

لم يُدرك أنهما وصلا إلى فارنهايم إلا عندما توقفت العربة واهتزّت. كان السائق جالساً كتمثال، منتظراً نزول شارلوك، وعندما ترجّل شارلوك انطلقت العربة من دون أن يلقي السائق نظرة إلى الوراء حيث كان شارلوك

يبحث في جيوبه عن بعض الفكّة، متوقعاً دفع بعض المال للرجل لقاء تكبّد عناء إقلاله.

نظر شارلوك حوله. لقد عرف الشارع: إنه الطريق الرئيسي الممتد عبر وسط فارنهايم. في الأمام مبنى كبير من الآجرّ، مربَّع الشكل، محاط بقناطر، وسبق لماتي أن قال له إنه مخزن حبوب. ألقى نظرة سريعة في الأرجاء؛ تجري الأمور في سوق البلدة بشكل طبيعي، ويسير الناس على امتداد الشارع ويعبرونه من جهة إلى أخرى، متوقفين عند واجهات متجر أو بسطات تبيع معجَّنات، متحدثين بعضهم إلى بعض، أو مهتمّين بشؤونهم الخاصة. يصعب إيجاد اختلاف كبير بين الوحدة الموحشة للغابة والوحدة في فارنهايم.

ربما تكون مخيّلته، ولكن حشوداً صغيرة من الناس بدأت تتشكل عند زوايا الشارع وخارج المتاجر. لقد بدت رؤوسهم منحنية معاً كما لو أنهم يتحدثون بأصوات منخفضة، مُلقين نظرة سريعة على كل مارٍّ وفي عيونهم ارتياب. هل يتحدثون عن إمكانية انتشار الطاعون في فارنهايم؟ هل يُنعمون النظر في كل وجهٍ مارّ بحثاً عن أورام في الغدّة اللمفاوية أو احمرار بسبب الحُمّى؟

فكّر شارلوك بسرعة في الأماكن حيث يمكن العثور على ماتي. كانت هناك ساعة واحدة أو ساعتان تفصلان عن إغلاق بسطات البيع أبوابَها، لذلك وجد أن باستطاعته التسكع قليلاً أملاً في رمي فاكهة أو خضار في اتجاه مكان وجوده، ووفقاً لجدول مواعيد سكة الحديد التي استظهره بعناية، لم يَعُد بإمكانه السفر على متن القطار حتى الصباح إذا وجد أنه لم يَعُد باستطاعته تحمُّل الإقامة في منزل عزبة آل هولمز. وافترض أنه ربّما سيجد ماتي متسكّعاً، خارج إحدى الحانات المحلية، آملاً في قيام أحد الزبائن الثملين برمي بعض الفكّة له.

في النهاية، أدرك شارلوك أن لا دليل كافٍ لديه لاكتشاف مكان وجود ماتي. كما سبق لمايكروفت أن قال: «وضْع نظريات بدون دليل هو خطأ أساسي، يا شارلوك». لذلك، شق طريقه عبر الشوارع حتى وصل إلى المكان الذي دلّه عليه ماتي - المنزل حيث توفّى أول رجل، وحيث زحفت سحابة الموت خارج النافذة، إلى أعلى الجدار، وعلى السطح.

بدا المبنى مهجوراً، والأبواب والنوافذ موصَدة بإحكام، وهناك لافتة على الباب كما يبدو. فافترض شارلوك أنه تحذير من وفاة شخص ما فيه بسبب حُمّى. وشعر بأحاسيس متناقضة في نفسه: أراد جزء منه الدخول وإلقاء نظرة، والتحقق ما إذا كانت هناك أي آثار للمسحوق الأصفر، ولكن جزءاً آخر أكثر بدائيةً كان خائفاً. فبالرغم من المنديل المبلَّل تماماً بالشراب والذي لا يزال في جَيبه، لم يشأ تعريض نفسه لعدوى محتمَلة.

فُتح باب المنزل قليلاً، فتراجع شارلوك إلى داخل ظلال مدخل على الطريق. مَنْ في الداخل؟ هل يجازف أحدهم بتنظيف المنزل، أم أن شخصاً انتقل للعيش فيه أم عاد إليه، بصرف النظر عن المخاطر المترتبة على ذلك؟ للحظات قليلة، لم تزدد فُتحة الباب اتّساعاً، وشعر شارلوك بوجود شكل بشري، أكثر مما رأى هذا الشكل البشري، في الظُّلمة يراقب. فدفع نفسه إلى الوراء إلى داخل الظلال، وقلبه يخفق بقوة عِلماً أنه لم يعرف السبب.

أخيراً، فُتح الباب أكثر فأكثر بما يكفي لانسلال رجل عبره. كان يرتدي ملابس بدرجات متنوّعة من اللون الرمادي، وألقى نظرة سريعة على الشارع يميناً ويساراً قبل الخروج، حاملاً كيساً بيد.

واليد الممسكة بعُنُق الكيس مكسوّة بمسحوق أصفر.

لقد أثير اهتمامه بالمسحوق وبموقف الرجل الذي يشير إلى عدم رغبته في أن يلاحظه أحد وهو يغادر المنزل، راقب شارلوك الرجل وهو يسلك الطريق حتى وصوله إلى الشارع العريض، عندها انعطف الرجل يساراً، وانتظره شارلوك لحظات قليلة، ومن ثم تبعه. لم يكن يعرف ما يجري، ولكنه اعتزم اكتشاف الأمر.

كان هناك أمر مألوف على نحو غريب في شأن الرجل. لقد سبق لشارلوك أن رآه في مكان ما: وجهه عريض شبيه بوجه ابن عِرس، وأسنانه ناتئة تحمل بُقعاً صفراء بسبب التبغ. عندئذٍ، تذكّر شارلوك؛ كان الرجل في محطة قطارات فارنهايم أثناء وجوده هناك مع ماتي. كان يحمّل عربة النقل صناديق الثلج.

نقله الدرب الذي سلكه الرجل من أحد جانبَي فارنهايم إلى الجانب الآخر. وبقي شارلوك خلفه طوال الطريق، مختبئاً في المداخل أو وراء أشخاص آخرين عندما يرتاب بإمكانية استدارة الرجل. في النهاية، دخل الغريب طريقاً جانبياً عرفه شارلوك. إنه الذي سلكه وماتي في وقت مبكّر من ذلك اليوم عندما كادت المركبة التي يقودها الرجل الغريب أن تصدمهما.

تقدّم الرجل ببطء على امتداد جدار عالٍ مطيَّن، وصولاً إلى بوّابات خشبية كانت العربة قد خرجت منها، وقرع - بإيقاع معقّد لدرجة انسلال هذا الإيقاع خارج عقل شارلوك حتى أثناء محاولته استظهاره - ففُتحت البوّابات، صارفةً، وانسلّ الرجل إلى الداخل. بعد ذلك أُغلقت البوّابات قبل أن يحظى شارلوك بفرصة رؤية ما يوجد في الداخل.

نظر حوله، مُحبَطاً. لقد أراد في الواقع إلقاء نظرة من فوق الجدر لرؤية ما يوجد في الداخل، ولكنه لم يعرف كيفية القيام بذلك. فالأمر برمّته متصل

بعضه ببعض بطريقة ما: الوفيّتان، السُّحُب المتحركة، المسحوق الأصفر - ولكنه لم يتمكن من رؤية الخيوط التي تحقّق ذلك الرابط. ربما تكون الإجابات التي يريدها وراء ذلك الجدار، ولكنها قد تكون أيضاً في الصين.

كانت الشمس منخفضة وبرتقالية في كبد السماء. لن يمرّ وقت طويل قبل اضطرار شارلوك للعودة إلى منزل عزبة آل هولمز والاغتسال استعداداً للعشاء. نظر حوله بيأس. وراءه، حيث ينعطف الجدار عند الزاوية، وجد المَلاط مفتَّتاً بسبب اصطدام عربات النقل وعربات اليد ذات العجلتين به على مَرّ السنين، ومتآكلاً بسبب المطر. ربما يكون الآجرّ الخشن الذي سقط عنه المَلاط كافياً ليوفر موطئ قدم لشارلوك ويدفعه إلى أعلى الجدار.

بدا له الأمر جديراً بالمحاولة.

من دون تفكير، انسلّ شارلوك على امتداد الزاوية ونظر حوله. وعندما تأكّد أنه ما من أحد يراقب، مدّ يدَيه إلى أعلى مسافة ممكنة، تاركاً أصابعه تعثر على فجوة بين آجرّتَين، ومن ثم تلمّس طريقه بقدمه اليمنى للعثور على قوة ارتكاز مساوية. وعندما وجد أنه بات مستعداً، دفع نفسه إلى الأعلى. لقد آلمته عضلات ساقَيه بسبب النشاط الفجائي، ولكنه لم يشأ الاستسلام. ورفع يده اليسرى إلى أعلى مسافة ممكنة، وشعر بأنه وصل إلى أعلى الجدار. تمسّك بالحافة بإحكام، رفع قدمه اليسرى ثم سحبها على الجدار حتى وجدت نقطة ارتكاز، ونقل وزنه من قدمه اليمنى إلى قدمه اليسرى، آملاً في عدم تفتُّت الآجرّ. لقد صمد الآجرّ، فسحب نفسه إلى الأعلى بيده اليسرى، دافعاً بقدمه اليسرى. احتك جسمه بالجدار، ثم وجد نفسه ممدَّداً بشكل منبسط - وعلى نحو عجائبي - أعلى الجدار، مترجّحاً على الحافة مخافةَ السقوط داخل الباحة التي ظهرت تحته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

تمكّن شارلوك، من هذا الموقع، من رؤية الباحة بأكملها ممتدّة أمامه. لم يكن هناك أحد؛ مبنى خشبيّ فقط بلا نوافذ مكوَّن من طابق واحد- أقرب إلى الهُري من أي شيء آخر- يهيمن على المساحة، وتُركت المنطقة حوله للتراب والأعشاب الضارّة. تربط آثار عجَلات البابَين الخشبيَّين الضخمَين عند الناحية الأمامية للمبنى ببوابات الجدار، ولا يعدو كون بعضها خدوشاً في التراب في حين لا تزال الأخرى العميقة مليئة بالماء بسبب المطر الحديث العهد. اعتبر شارلوك أن عربات النقل تصل إلى الهُري محمَّلةً قليلاً ومُحدثةً آثار عجَلات ضَحلة، وتغادر بحمولة ثقيلة تجعل العجَلات تغرق في الأرض الطريّة. ولكن ماذا يخزَّن أو يُصنَع في الهُري، وهل هو مرتبط بطريقة ما بالمسحوق الأصفر، وبوفاة الرجل الذي كان قد رآه وماتي؟

دلّى شارلوك ساقاً فوق الجدار، مستعداً للنزول إلى الأرض، ولكن مشاجرة فجائية جعلته ينسحب بسرعة. لقد اندفع شيء قاتم وسريع من وراء ظِلال المبنى. تمكن شارلوك من رؤية رأس كبير عضليّ البُنية يمتلك أُذُنَين صغيرتَين متجهتَين نحو الخلف على امتداد الجمجمة، وجسم صغير مغطى بشعرٍ قصيرٍ وكثيف. لم ينبح الكلب عليه بل زمجر بردٍّ عميق كمنشار ينحت خشباً قاسياً. وسال لُعاب من أسنانه البارزة. لقد كفّ عن الزمجرة تحت المكان حيث يستلقي شارلوك، وشرع بمراقبته بانتباه وتركيز، مجرجراً خُطاه من جانب إلى آخر على قوائم صغيرة، مُبقياً ذنَبه منخفضاً.

عليه دخول ذلك الهُري. هناك لُغز ما، ويكره شارلوك الألغاز التي لا يجد حلاًّ لها. ولكن الكلب بدا جائعاً ومدرَّباً على التصرف بعدوانية.

نظر إلى الجانب الآخر من الجدار حيث تسلّق. هل هناك طريقة أخرى؟ إنه أمر مستبعَد وسيقتفي الكلب أثره بعد أن شم رائحته. هل يمكن مصادقته؟ إنه أمر غير محتمَل، ولا يمكن القيام بذلك بالتأكيد دون النزول عن الجدار، ومن المروِّع جداً تأمّل عقوبة الإخفاق. باستطاعته العثور على آجرّة غير ثابتة أو حجر كبير ورميه على الحيوان من الأعلى، ولكن ذلك يبدو تصرفاً همجياً لا داعي له. هل يمكنه تخديره بطريقة ما؟ لقد افترض أن باستطاعته العودة إلى سوق فارنهايم رَكضاً وشراء قطعة لحم كبيرة بالمال القليل الذي يحمل، ولكن ماذا بعد ذلك؟

أنعم النظر إلى الأرض عند جانبَي الجدار، باحثاً عن شيء ما يمكن أن يساعده. رأى في الزاوية حيث يلتقي الجدار الأرض، قرب البوّابات، شيئاً ما يشبه قبّعة فَرو. إنه الغُرير المَيت الذي رآه قبلاً. قفز بسرعة عن الجدارِ

وركض في اتجاه المكان حيث تتكوّم الجيفة، والتقطها. كان الفرو جافاً ومُغبَرًّا ويكاد يكون وزن الجيفة معدوماً. شم شارلوك رائحة مثيرة للاشمئزاز، فانحنى قليلاً مُهمهِماً، ومدّ ذراعه ورمى الغُرير فوق الجدار. لقد انفرجت أطرافه الجامدة أثناء طيرانه كدولاب هواء. وتوارى عن الأنظار وراء الآجرّ، وسمع شارلوك صوتاً مكتوماً ترافق مع اصطدام الجيفة بالأرض. بعد لحظات، سمع الصوت الذي كان يأمل سماعه: قوائم مسرعة على تراب جافّ وزمجرة مع غرس الكلب أسنانَه في الجيفة. تسلّق شارلوك الجدار ثانيةً وألقى نظرة سريعة من الأعلى. كان الكلب يمسك الغُرير بقائمتَيه الأماميّتَين، ويصارع الجيفة إلى الأمام والوراء بفكّيه القويَّين، منتزعاً قِطَعاً منه. وعندما وقع على الأرض، توقف الكلب فجأةً، ألقى عليه نظرة سريعة مرتابة، ومن ثم واصل تمزيق الجيفة. لقد اعتبر شارلوك صديقاً له بسبب إعطائه هذه الدُّمية الرائعة ليلعب بها، أم أنه ادّخره لوقت لاحق. وأمِل شارلوك بحرارة في أن يكون صديقاً لا فريسة.

بسرعة، وقبل أن يمزّق الكلب الغُرير إِرَباً إِرَباً ويفقد اهتمامه به، انطلق شارلوك بأقصى سرعة عبر الباحة في اتجاه الهُري. كان هناك باب جانبيّ في أحد الجدران، ففتحه قليلاً. سكون وظلام. وفتح الباب أكثر فأكثر وانسلّ إلى الداخل، مُغلِقاً إيّاه وراءه.

تطلّب الأمر لحظات قليلة كي تتكيّف عيناه مع الظلام وتجدا أن الناحية الداخلية للهُري مُضاءة بمَناور، وضوء الشمس يشعّ إلى الداخل عبر الزجاج المتّسخ، مُحدِثاً أعمدة ضوء قُطرية بدت كما لو أنها تحمل السقف على سِقالة وهمية. وتفوح من المكان رائحة تعرُّق وتراب قديم وجافّ، ولكن هناك رائحة أخرى تحت تلك الروائح - شيء ما عِطريّ الرائحة ومُزهِر. وهناك أكوام من الصناديق والأقفاص في أماكن متنوعة حول المبنى، وفي الجانب البعيد المقابل رجال عدة يضعونها على متن عربة نقل. كان الرجل الذي تبعه من فارنهايم أحدهم، وكيس الخَيش الذي كان يحمله مُلقى بخشونة على الأرض في الجِوار. كان هناك عربة حصان يأكل بهدوء تِبناً من مِخلاة عُلّقت برأسه. وفي أحد جوانب الهُري عربة ثانية مركونة.

في مكان قريب كُدّست أقفاص خشبية فارغة موضوعة بشكل عشوائي، فتوجّه شارلوك نحوها بسكون كي يختبئ وراءها. راقب بانتباه وتركيز الرجال يحمّلون العربة بما بدا أنه الحِمل النهائي. كانوا يشتمون ويتدافعون أثناء حمل الصناديق ونقلها واحداً تِلو آخر إلى متن العربة. ووفقاً للقذارة على ملابسهم والعرق على وجوههم، فهم يعملون على هذا المنوال منذ وقت ليس بالقليل.

ساعد الرجل الذي تبعه شارلوك من فارنهايم برفع الصندوق الأخير، ومن ثم نفض يدَيه ومسحهما بصدرته كما لو أنه يعمل هناك طوال اليوم. لقد تركت

يداه بُقعاً صفراء مع انتقال الغبار - أيًّا يكن - إلى القماش الخشن. ألقى أحد الرجال الآخرين - هو رجل فظ ضخم البنية، حَليق الرأس، مع أوشام تغطي ذراعَيه حتى مِعصمَيه مثل كُمّين، ويتدلّى مصباح زيت مُضاء من شريط مربوط بحزامه - نظرة سريعة إليه باحتقار.

«هل تستمتع بنزهتك الصغيرة؟» سأل باهتمام صُوَريّ.

«هِيه، كنت أعمل أيضاً»، أجاب الرجل الأول.

«ماذا عن خُطّاف وينت؟».

هز الوافد الجديد رأسه. «إن البارون مُحِق، كانوا يأخذون المادّة منا بمَكر ويحاولون بيعها. كانت هناك سترات وسراويل مكوَّمة بجانب سريره».

«هل رآك أحد؟».

«لا أحد. كنت كحِرذ».

«هل حصلتَ عليه كله؟».

أومأ الرجل برأسه في اتجاه كيس الخَيش. «جمعتُه كله ووضعته هناك».

«حسناً، إرمِه في العربة أيضاً».

مع توجّه الوافد الجديد لالتقاط الكيس، نادى زميله في العمل القويّ البنية: «هل أحرقتَ خطّاف وينت؟».

فهز الوافد الجديد رأسه. «لم أرَ حاجة لذلك».

هز الرجل القويّ البنية كتفَيه. «بإمكانك شرح هذا الأمر للبارون عندما تراه».

«هِيه، يا كليم، لن نستخدم الأخرى»، صاح رجل، محرّكاً رأسه بسرعة في اتجاه العربة الاحتياطية.

استدار الرجل القويّ البنية جزئياً نحو فريق العمال. «دَعهُ وشأنه»، قال. «كانت حاجتنا إليه قليلة الاحتمال بأي حال، ولكن البارون لا يحب المخاطرة. البارون رجل محترِس». واستدار نحو الوافد الجديد وأشار إلى بُقع المسحوق الأصفر على صُدرة الرجل. «هناك بعض من مادّتهم عليك. سيتلوّث خطّاف وينت أيضاً. يريد البارون إحراقه كما يريد إحراق هذا المكان. تخلّص من أي دليل».

نظر الوافد الجديد إلى صُدرته. «ما هذه المادة؟» سأل.

ضحك زميله في العمل بصوت هو مزيج بين نَخير وسعال. «من الأفضل ألا تعرف».

نظر الوافد الجديد إلى يدَيه، ثم ألقى نظرة سريعة على الرجل القويّ البنية، فذوى وجهه وشَحُب فجأةً. «هِيه، يا كليم، هل هذا يعني أن ما حدث لوينت سيحدث لي؟».

هز كليم رأسه. «ليس إذا غسلتَه بالشكل الملائم، كما قال لنا البارون». التفت إلى الرجال الآخرين الواقفين في أرجاء المكان قائلين إن الصناديق وُضعت على متن العربة. «حسناً، يا رجال - حان وقت المغادرة. مارتين وجو - أنتما مع العربة. تعرفان المكان الذي ستُقلاّنها إليه. سْتوفر وفلين - أنتما ابحثا عن البارون». والتفت إلى الوافد الجديد. «يا دِني، أنت وأنا سنحل مسألة هذا المكان. سنُضرم النار فيه. فالمكان كبير جداً لدرجة أننا لا نعرف ما يمكن أن نكون قد تركنا فيه».

ألقى الوافد الجديد دِني نظرة في أرجاء الهُري. «هل علينا القيام بذلك؟» سأل بحزن. «فكِّر فحسب في ما يمكننا القيام به في هذا المكان عندما ينتهي البارون منه. ربما تأسيس شركة، أو تحويله إلى أكبر حانة في المنطقة. بإمكاننا الحصول على فتيات يُغنّينَ ويرقصنَ، وكل شيء. من العار إحراقه».

غطّى وجه كليم تجهّم مرعب وقال: «تريد الذهاب وشرح مخططك الصغير للبارون، تفضَّل. أما أنا فسأتّبع التعليمات التي وُجّهت لي».

بدا دِني منكمشاً تحت وطأة نظرة الرجل الآخر المحدّقة إليه. «كنت أسأل فحسب».

رفع أحد الرجال الواقفين قرب العربة يده للفت انتباه كليم. «متى نتلقّى أجرنا؟».

«عندما يتم تسليم الأدوات»، زمجر كليم. «لِيلتقِ الكل غداً في حانة مُولي. سأحضر المال من البارون وأوزّعه حينذاك».

«وكيف نعلم أنك ستكون هناك؟» سأل رجل آخر، رافعاً يده جزئياً ومن ثم مفكراً في الأمر بشكل أفضل.

حدّق كليم إلى الرجل. «لأن البارون يشتري صمتنا، تذكّر... صمتك وصمتي. إذا لم تتلقَّ أجرك وقررت إخبار أحدهم بما نفعل سيأتي البارون بحثاً عني، وهذا أمر لا أريده. الكل سيتلقى أجره تماماً، اتفقنا؟».

أومأ الرجل برأسه «اتفقنا».

انسحب شارلوك إلى مكان أبعد وراء الأقفاص مع تفرُّق الرجال، وصعود اثنين منهم إلى العربة، وفتح اثنان آخران البابَين الخشبيَّين الضخمَين لإخراج العربة. بقي كليم للإشراف وبدا دِني تائهاً. لقد أحدث الرجل الذي يقود العربة صوت طقطقة، ووكز مؤخّرة الحصان بعصا، فشرع بالسير وكان لا يزال يأكل من مِخلاة التبن.

سار كليم نحو البابَين الخشبيَّين الضخمَين، وكان مصباح الزيت المعلَّق بحزامه يصطدم بفَخِذه أثناء تحرّكه. دون الالتفات إلى الوراء، حرّك إبهامه في اتجاه مكان اختباء شارلوك. «أقفلْ ذلك الباب، ثم لاقِني في الناحية الأمامية».

خفق قلب شارلوك مع شروع دِني بالسير في اتجاه مكان اختبائه. إذا دار حول الصناديق فإنه سيراه بالتأكيد، وإذا رآه لن تكون أمام شارلوك فرص عديدة للنجاة. بدّل وضعيّته، واستعدّ للركض. هل يمكنه بلوغ الباب الجانبي قبل إمساك دِني به؟ لم يكن واثقاً من ذلك، ولكنه كان أقل ثقة من وجود أي بديل.

وصل دِني، وكان على مستوى الصناديق وتفوح منه رائحةُ تعرُّق ملابسِه القذرة. ألقى شارلوك نظرة سريعة على كليم، محاولاً معرفة ما إذا كان الرجل الضخم البنية قريباً بما يكفي لمساعدة دِني على الإمساك به، ولكن كليم كان قد بلغ البابَين الرئيسيَّين تقريباً. فأنزل شارلوك رأسه وراء الأقفاص. وبمرور دِني بجانبه، انزلق شارلوك إلى الجانب الآخر من الصناديق. فلو أدار كليم رأسه قبل خروجه من البابَين الرئيسيَّين لَرأى شارلوك كما يرى أي شيء آخر، ولكنه لم يفعل. راقب شارلوك، ونَفَسه عالق في حَلْقه، اختفاء كليم عن الأنظار في ضوء الشمس الساطع لفترة ما بعد الظهر. بعد لحظات، بدأ أحد البابَين بالانغلاق وتركت حافّته الخشبية أثراً على التراب.

ألقى شارلوك نظرة سريعة من فوق الأقفاص. لقد تحقّق دِني من أن الباب الجانبي الذي دخل منه شارلوك مُغلَق بالشكل المناسب، وهمّ بتثبيت المزاليج لضمان عدم دخول أحد. حالما يغادر، يمكن لشارلوك تحرير المزاليج ثانيةً، وفتح الباب والفرار.

لكن دِني التقط قِفلاً عن الأرض ووضعه داخل أُنشوطة في المزلاج الأعلى، ومن ثم داخل حَلْقة معدنية مثبَّتة بإطار الباب، وأغلق القفل. فنتأ المفتاح من القفل، وسحبه دِني ودسّه في جَيبه، ومن ثم استدار، صافراً، وعَبَر الهُري.

خفق قلب شارلوك وأصبحت راحتا يدَيه دَبِقتَين. ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه على الباب المُقفَل الذي بدا راسخاً. لن يكون بإمكانه الخروج بتلك الطريقة، ليس بعَجَلة وليس دون إحداث قَدْر كبير من الضجيج. سيتعيّن عليه

انتظارَ مغادرة دِني وكليم، والانتظار مدة خمس دقائق إضافية، ومن ثم الخروج كما خرجا.

توجّه دِني إلى البابَين الرئيسيَّين أثناء قيام كليم بإغلاق المِصراع الثاني من الخارج، وضاق مستطيل الضوء المنبعث من الباحة أكثر فأكثر، وتقلّص حتى غدا على شكل شريطٍ رفيع، ثم خطٍّ، وبعد ذلك اختفى كلّياً. وأُغلق البابان بصوت مكتوم.

انقبض قلب شارلوك عندما سمع صوت قطعة خشبية مستطيلة وثقيلة توضع في مكانها عبر البابَين، وهو صوت لا لَبس فيه. لا وجود لأي مَخرج!

للحظات قليلة فقط، عرف أن الرجلَين يتحدثان دون أن يتمكن من سماع ما يقولان. فوقف بشكل مستقيم مستعداً للتوجه إلى البابَين الرئيسيَّين ليرى إذا كان بإمكانه سماع أي كلمة، ولكن صوتاً فجائياً أوقفه في مكانه على الفور.

إنه صوت مصباح زيت كليم الذي اصطدم بالبابَين.

لقد تحطّم زجاج المصباح، وتناثر السائل على الخشب. وساد السكون للحظات، ومن ثم علا صوت فرقعة مع تمدّد ألسنة اللهب المنبعثة من فتيل المصباح لتطال الخشب المنتقِع بالزيت.

لقد أضرم كليم ودِني النار بالهُري.

هدّد الذُّعر شارلوك. أراد الفرار، ولكنه لم يعرف أين يذهب، لذلك انتهى به الأمر إلى أن يتحرك إلى الأمام والخلف في مكانه. وامتلأ فمُه مَذاقاً أشبه بمَذاق معدن لاذع الطعم، وخفق قلبه بقوة لدرجة شعوره بالنَّبْض في حَلْقه وصُدغَيه. لمدة دقيقة تقريباً، لم يتمكن من استجماع قدرته على التفكير، ولم يتمكن من ربط فكرتَين بطريقة واعية، ولكنه تخلّص من الذُّعر تدريجاً من خلال التكرار لنفسه بوجود مَخرج، فكل ما يتعيّن عليه القيام به هو اكتشافه. وشعر بقلبه الخافق يُبطئ تدريجياً إلى السرعة العادية، ويتراجع الاختلاج في ساقَيه وذراعَيه.

بدأت الرائحة الفجائية للدخان بملء الهُري، وشرعت ألسنة لهب بالغة الصِّغر بتلمّس طريقها كأصابع فُضولية عبر الفراغات القائمة بين ألواح البابَين.

قال لنفسه. فكِّر بوتيرة أكبر مما فعلتَ يوماً في حياتك.

ألقى نظرة محترِسة على أرجاء الهُري. لقد أخذ كليم وبقيّة الرجال معظم الصناديق، ولا يعرف شارلوك ما يوجد في الداخل. فالأقفاص التي اختبأ وراءها لا تزال مكدّسة بجانب الباب الجانبي المُقفَل، ولكنها فارغة.

ركض شارلوك إلى الجانب الآخر للهُري، ودفع الجدار الخشبي بكتفه. فاهتز الخشب بفعل قوة الاصطدام، ولكن شيئاً لم يتحرك. وحاول ثانيةً ولكن دون جدوى. فإذا كان يعتزم اختراق الجدار سيكون بحاجة إلى فأس، أو مِطرقة، أو شيء ما، وليس كتفه.

بحث في أرجاء الهُري بيأس عن أداة ما يمكنه استخدامها لتحطيم الجدار، أو انتزاع الألواح، فوقع نظره فجأةً على العربة الاحتياطية التي تُركت في مكانها. لقد بدا أن بالإمكان استخدامها، وكان كليم قد أشار إلى إمكانية الاستعانة بها في حال وجود عدد كافٍ من الصناديق. هل يمكن لشارلوك استعمال العربة بطريقة ما للخروج؟ هل يمكنه تحريكها؟

هناك طريقة واحدة فقط للحصول على إجابة. ركض شارلوك نحو العربة والتقط أحد القضيبين اللذَين يُربط إليهما الحصان لجرّ العربة، ورفعها بيدَيه بسهولة. حاول جرّها ولكنها لم تتحرك. وجرّها ثانيةً بقوة أكبر، فتحركت العربة قَيد أنمُلة، ولكن القضيب الآخر لا يزال مُلقى على أرض الهُري، ولم تؤدِّ جهود شارلوك إلا إلى دفعه أكثر فأكثر داخل التراب ومنع العربة من التحرك.

المنطق.. استعمل المنطق. إذا لم يكن بالإمكان جرّ العربة، فربما يمكن دفعها. أفلت قضيب العربة، وألقى بثقله على الناحية الأمامية للعربة حيث يجلس الحوذي. لقد تحركت! لقد تدحرجت العربة بأكملها إلى الوراء بضع بوصات! فشكر الله الذي يسهر عليه ويحميه من البارون المُبهَم، أيًّا يكن هذا البارون، الذي يؤثّر حذره في عمّاله إلى حد كبير لدرجة عدم تدبّر عربة نقل احتياطية فحسب، بل إبقاء محاور العجَلات مشحَّمة أيضاً. بعد ذلك، عاد خطوات قليلة إلى الوراء واندفع نحو العربة، دافعاً إيّاها بكتفه بكل ما أُوتِي من قوة. إنها الكتف نفسها التي دفع بها جدار الهُري وشعر بعد ذلك بألمٍ حاد على امتداد ذراعه وصولاً إلى عُنُقه، ولكن العربة تدحرجت بضع أقدامٍ إلى الوراء قبل أن تتوقف.

انجرف الدخان عبر وجه شارلوك وأُصيبت عيناه بألم حادّ لاسع. فاستدار ورأى ألسنة اللهب تشق طريقها إلى أعلى البابَين الرئيسيَّين في اتجاه عارضة الباب. من المنطقي أن يضعف بابا الهُري بسبب النار وهو المكان المثالي لتحطيمهما بواسطة العربة إذا تمكن من تحريكها تلك المسافة وبسرعة كافية، ولكن يتعيّن عليه وضعها في الاتجاه المعاكس بهدف تصويبها نحو البابَين.

تجاهل الألم الحاد في كتفه، ووضع يدَيه على مقدّم العربة وثبّت قدمَيه في تراب أرض الهُري الطريّ، وركبتاه مثنيّتان. كان جسمه أفقياً تقريباً، واستعمل كل الطاقة المتوافرة لديه، طاقة أكبر من الطاقة التي استخدمها يوماً أثناء

ممارسة رياضة الرُّكبي في ملاعب مدرسة ديبدن للفتيان، وأكبر من الطاقة التي استخدمها يوماً أثناء خوض مباريات في حلبة مدرسة الملاكمة في قاعة الألعاب الرياضية. للحظات، بدا جسده معلّقاً بين شيئَين لا يمكن تحريكهما، ومن ثم بدأت العربة بالتقدم. لقد اصطدمت إحدى عجَلاتها بشيء ما - حجر أو كتلة تراب - وكانت على وشك التدحرج إلى الوراء إلى مكانها، لكن شارلوك غرس قدمَيه في التراب عميقاً ودفع حتى صرخت عضلاته. فتحركت عجَلة العربة تدريجاً فوق العقبة، أيًّا تكن تلك العقبة، ومن ثم شرعت بالتدحرج إلى الوراء. نقل شارلوك قدمه اليسرى، وخطا خطوة كبيرة، ثم نقل قدمه اليمنى. سند التراب قدمَيه الضاغطتَين، واستجمع كل طاقته لتحريك العربة، بوصةً بوصة. وعلى غرار قاطرة، بدأت تتسارع، وفي غضون ثوانٍ قليلة، انتقلت من دبيب متثاقل الحركة إلى تقدّم بطيء، ومن ثم إلى سير سريع، وإلى عَدْو بطيء بعد ذلك. شعر شارلوك بألم في كتفه مع ضغط عَظمةٍ على وتر. وكادت ذراعه تسقط خائرةً، ولكنه أبقاها مُطبِقةً على مقدّم العربة بقوة، وبعد لحظات قليلة، انحسر قلقه؛ لقد واصلت العربة التحرك. لم يجرؤ على رفع نظره لرؤية مدى قرب الجدار البعيد كي لا يخفّض تبديلُ الوضعية القوةَ التي يستجمعها للتحمّل، وتبطئ العربة ثانيةً. كل ما تمكن من القيام به هو عدّ الخطوات: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة... وكل منها أسرع من سابقتها. لا بد من أن يكون قد بلغ الجدار بالتأكيد؟ شعر بالحرارة على مؤخّر عُنُقه مع اشتعال البابَين، وتمكن من رؤية ظلّه أمامه قرب ألسنة اللهب مؤطَّراً بلون أحمر ومرتعشاً من جانب إلى آخر.

فجأةً، اصطدم الطرف الخلفي للعربة بالجدار البعيد ودفعه إلى الخارج، وتفلّقت القِدد الخشبية من حول العربة واقتُلعت المسامير، وعصف هواء نقيّ بجانب رأس شارلوك، دافعاً الدخان إلى الوراء ومتسبّباً بامتداد النار. علقت العجَلتان الخلفيّتان للعربة بالخشب، ولكن شارلوك تمكن من رؤية ضوء النهار يشعّ حول الحافّات الممتلئة لبدن العربة. صعد بصعوبة إلى مقعد الحوذي، وعَبَر القاعدة المسطّحة للعربة، وخرج إلى الهواء النقي وضوء الشمس الرائع.

لقد توقّع بسذاجة رؤية حشود من الناس وفرقة الإطفاء المحلية مع مِضخات يدوية ودِلاء، ولكن الباحة كانت مُقفِرة. حتى إن الكلب فرّ هارباً، تابعاً، كما هو مفترَض، الأشرار إلى خارج البوّابتَين الرئيسيّتَين. وبالرغم من كون الناحية الداخلية للهُري المُغلَق بشكل خطر أشبه بمكان جهنّميّ، يكاد المرء يُخطئ في التمييز بين ألسنة اللهب في الخارج وبين السماء الساطعة، ولم يكن هناك سوى خط رفيع من الدخان متجه نحو الأعلى، يفوق بقليل خط الدخان الذي تُحدثه نار مطبخ. في النهاية، سيلاحظ شخص ما ويتحقّق من الأمر، ولكن ليس في مدة زمنية قصيرة.

كانت البوّابات الرئيسية مُقفَلة، فافترض شارلوك أن كليم وأوغاده المنسحبين ربطوها بالسلاسل والأغلال. سبق لهم أن أظهروا احتراساً مماثلاً في كل شيء آخر تقريباً قاموا به. تجاهل البوّابات، وبحث في أنحاء الجدران عن مكان ملائم للتسلق وبلوغ الجانب الآخر. فالناحية الداخلية للجدران مبنيّة بالآجرّ ولم يجد أي مشكلة في التسلق.

توقّف قليلاً عند الجدار، ونظر إلى الهُري خلفه. كانت النار قد بدأت بالزحف شيئاً فشيئاً إلى السطح، ودِعامات السقف تشتعل. إنه بحاجة إلى الخروج من هناك.

متسلّقاً تارةً، وساقطاً على الأرض طَوراً، واصل شارلوك سيره بمشية عرجاء، محاولاً تسلّق الجدار، حتى شعر بأن رئتَيه ستنفجران وعضلات ساقَيه تتوسّله التوقف. انهار في وضعية جلوس بجانب جدار حجريّ منخفض، واستسلم للإنهاك وللذُّعر الذي تعيّن عليه مكافحته إلى الأبد كما بدا له. لقد تنشّق ملء رئتيه من الهواء، وترك الاضطراب المتراكم في نفسه يخرج من صدره وذراعَيه وساقَيه. بعد قليل، شعر بأنه قويّ بما يكفي لرفع يدَيه أمام وجهه. فالبشرة مخدوشة وملطّخة بالدماء، وهناك شظايا ناتئة من راحتَي يدَيه لم يشعر بها. سحبها شظيّةً تِلو أخرى، تاركاً يدَيه منقّطتَين بقطرات دم.

بعد كل ذلك الجهد، وكل ذلك الخطر، ما الذي عرفه بالتحديد؟ إذا كان موت الرجل الموجود في المنزل في فارنهايم حادثاً، فهو إذاً حادث بسبب نشاط إجرامي من نوع ما. كان الرجل الميت يسرق شيئاً ما من شركائه، وذلك الشيء أودى بحياته. لقد جمع المجرمون ما تبقّى من ذلك الشيء في صناديق ونقلوها على متن عربة إلى مكان غير محدَّد، ومن ثم أضرموا النار بالهُري لتغطية نشاطهم. وحدث كل ذلك وفقاً لتوجيهات بارون ما غامض.

بعد ذلك، تذكر شارلوك وقوفه للمرة الأولى خارج البوّابات المؤدّية إلى ذلك الهُري عندما كادت عربة تصدمه وماتي. هل الرجل في المركبة - الرجل أبيض البشرة وزهريّ العينَين - هو البارون؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو ذلك الشيء الذي هو منهمك فيه؟

لاحظ شارلوك فجأةً مدى حلول الظلام. لقد غابت الشمس تقريباً ولم يَعُد بعد إلى منزل عزبة آل هولمز فحسب، بل يتعيّن عليه أيضاً تنظيف نفسه وتبديل ملابسه؛ كل ذلك قبل أن ترى السيدة إيغلانتين أن شيئاً ما قد حدث. لقد اعتقد للحظة من الزمن أن متاعب اليوم انتهت، ولكنه أدرك بقلب غائر أنه لا يزال عليه مواجهة بعض المتاعب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

أغفل شارلوك الفطور في صباح اليوم التالي. لقد أرهقته مغامرات اليوم السابق وتسبّبت له بالألم، وها هو رأسه ينبض على وقع نَبضات قلبه، ويشعر بانقباض في صدره وبصرير في حَلْقه بسبب الدخان الذي تنشّقه. كان قد أغفل العشاء، ولكن زوجة عمه حرصت على إبقاء صَينية لحوم باردة وجُبن له؛ ما كانت السيدة إيغلانتين لتتكبّد عناء القيام بذلك. سبق له أن قضى الليلة بقلق مترجّحاً بين نوم وأرَق، بين أحلام وذكريات حتى لم يَعُد بإمكانه التفريق بينها. استسلم إلى نومٍ عميق خالٍ من الأحلام، أثناء شروق الشمس، ولكن الناقوس الذي قرعته إحدى الخادمات إيذاناً بحلول موعد الفطور جعله يستيقظ منتفضاً ويمنحه عشر دقائق على الأكثر كي يستعدّ لمواجهة اليوم.

لحسن الحظ، كانت خادمة أخرى قد تركت في غرفته وعاء ماء دون إزعاجه. فغسل وجهه، وفرك أسنانه بمسحوق طباشيريّ بنكهة القِرفة نثره على فرشاة أسنان ذات مِقبض عَظميّ، وارتدى ملابسه. عليه التحقق من قيام أحدهم بغسل ملابسه قريباً، فقد بدأت الملابس النظيفة تنفد منه.

تحقق من الوقت على ساعة الجَدّ في القاعة أثناء اندفاعه على الدرج إلى الطابق السُّفلي. إنها السابعة.

دخل بسرعة غرفة الطعام، متجاهلاً النظرة الشريرة المحدِّقة للسيدة إيغلانتين، وسكب لنفسه بعض الطعام عن الطاولة الطويلة المليئة بالأطباق والصواني والتي تشغل جانباً من الغرفة. إنه مزيج لذيذ من الأرزّ، والبيض، وسمك الحَدوق المدخَّن، وهو طبَق لم يسبق له أن تذوّقه قبل وصوله إلى منزل عزبة آل هولمز، ولكنه بات يميل إليه. وبذل قُصارى جَهده لتجنّب إقامة اتصال بصري مع أي شخص، غارفاً الطعام إلى داخل فمه بسرعة كبيرة لدرجة عدم تمكنه من الاستمتاع بمذاقه. كان جائعاً جداً، فقد استحوذت أحداث اليوم السابق على قَدْر كبير من طاقته، وتعيّن عليه استبدالها. كان العم شرينفورد يقرأ كُرّاساً دينياً أثناء تناول الطعام وتُحدِّث العمة آنّا نفسها كالعادة. برأي شارلوك، إنها تتفاعل مع كل فكرة تخطر ببالها سواءً أكانت ذات صلة بالموضوع أم لا.

«يا شارلوك»، قال عمّه، رافعاً نظره عن الكُرّاس الذي يقرأ فيه، «فهمتُ أنك تورّطت في حادث مؤسف يوم أمس». كانت هناك آثار عَصيدة على لحيته الطويلة.

صُعق شارلوك للحظات، وتساءل عن كيفية معرفة عمّه عن المستودع والنار، ولكنه أدرك عندئذٍ أن شرينفورد يتحدث عن جثة الرجل التي عثر عليها هو وآميوس غروي في الغابة. «أجل، يا عمّي».

«رجلٍ مولود من امرأة لا يعيش سوى لمدة قصيرة»، رنّم شرينفورد، «ممتلئاً بؤساً. يكبر ويُقطع كزهرة؛ يتلاشى كما لو أنه ظل، ولا يبقى في حالة واحدة». رامقاً شارلوك بنظرة حادّة ثاقبة، تابع: «في الحياة، نكون في حالة من الموت: ممن يمكننا طلب النجدة سواك، يا الله، أنت يا من تستاء بعدلٍ من آثامنا؟».

لم يكن شارلوك واثقاً بما يجيب، فأومأ برأسه كما لو أنه فهم بالتحديد ما يرمي إليه عمّه.

«لقد عشتَ حياة آمنة في كنَف شقيقي وزوجته»، قال شرينفورد. «ربما تكون قد أغفلتَ وقائع الموت، ولكنه جزء طبيعي من قدر الله. لا يُقلقنّك الأمر. إذا أردتَ التحدث، يكون باب قاعة المطالعة مفتوحاً على الدوام».

تأثّر شارلوك بسبب محاولة العم شرينفورد توفير المساعدة بطريقته الخاصة. «شكراً لك. هل كان الرجل الذي عثرنا عليه يعمل هنا، في العَقار؟».

«أعتقد أنه كان بستانياً. لا يمكنني القول إنني أعرفه، ولكننا سنذكره وعائلتَه في صلواتنا. سنوفر الدعم المالي للذين يعتمدون عليه».

«كان حديث العهد»، قالت العمّة آنّا. «لقد انضمّ إلينا منذ فترة قصيرة، كما أعتقد. عمل في السابق في صناعة الملابس في فارنهايم لصالح شركة يملكها نبيل أو كونت، أو شخص ما من الطبقة الأرستوقراطية. كانت توصياته ممتازة...».

«كيف مات؟» سأل شارلوك، ولكن آنا واصلت الكلام بهدوء مع نفسها.

«ليس موضوعاً مناسباً للنقاش على مائدة الفطور»، قالت السيدة إيغلانتين من حيث تقف بجانب طاولة الطعام. ألقى شارلوك نظرة سريعة عليها، متفاجئاً بوقاحة كلماتها وبعدم قيام عمّه وزوجته بزَجرها. إن جرأتها تتخطى كثيراً وضعها كخادمة. ووجد نفسه يتذكّر تحذير مايكروفت - ليست صديقة لآل هولمز - وتساءل عما إذا كانت هناك أمور أخرى يجهلها عن السيدة إيغلانتين، وعن وجودها في المنزل، أكثر مما كان يعتقد.

«الفتى فُضوليّ»، قال شرينفورد، رامقاً شارلوك بنظرة محدّقة من تحت حاجبَيه الكثَّين. «أشجّع الفُضول. هذا ما يميّزنا عن الحيوانات، بالإضافة إلى أرواحنا الخالدة». التفت إلى شارلوك وأضاف: «سُلّمت الجثة للطبيب المحلّي، وقد أرسل برقية إلى هامبشيرِ كورونرِ الشمالية. تعود لهم مسألة

إعلان سبب الوفاة، ولكنني فهمت أن قُروحاً مميِّزة للجُدَري أو لوباء الطاعون ظهرت على وجه الرجل ويدَيه». هزّ رأسه، عابساً. «آخر ما نحتاج إليه هنا هو تفشّي عدوى ما. سيكون الطبيب مرغَماً على التعاطي مع الأمر إذا مرض شخص آخر. فهمتُ أن بعض تجار السوق يُغلقون بسطات بيعهم وينقلونها إلى مكان آخر. قد ينتشر الذُّعر بسرعة أكبر من الداء. فارنهايم قائمة على التجارة: أغنام، حبوب، صوف.. وهكذا دواليك. وإذا انتقلت تلك التجارة إلى بلدة أخرى، يذوي ازدهار فارنهايم ويضمحلّ».

ألقى شارلوك نظرة سريعة على طبَقه. لقد تناول ما يكفي من الطعام كي يمدّه بالنشاط لفترة من الزمن، وأراد العودة إلى فارنهايم والتحقق ما إذا كان ماتي في الأرجاء. «هل تأذن لي بالمغادرة، يا سيدي؟» سأل. فأومأ عمّه برأسه، قائلاً: «طلب مني آميوس غروي أن أقول لك إنه سيعود في وقت الغداء لإكمال الدروس. احرص على أن تكون هنا». ربما أجابت عمّته من خلال مونولوجها المستمر- تصعب معرفة ذلك. وقف شارلوك وتوجّه إلى الباب، ولكن فكرة فجائية جعلته يقف في مكانه.

«أيتها العمّة آنّا؟» قال. فرفعت عمّته نظرها. «هل قلتِ إن الرجل المتوفى عمل في السابق لصالح نبيل أو كونت؟».

«صحيح، يا عزيزي. في الواقع، أذكر ذلك...».

«هل يمكن أن يكون باروناً؟».

توقفت للحظات، مفكرة. «أعتقد أنك مُحِق. كان باروناً. لديّ الرسالة في مكان ما. كانت مجرّد...».

«هل تذكرين اسمه؟».

«موبرتْوي. يُدعى البارون موبرتْوي. إنه اسم غريب، كما أعتقد. من الواضح أنه فرنسي، أو بلجيكي ربما...».

«شكراً لك»، قال شارلوك، وغادر أثناء مواصلتها الكلام.

ارتعش أثناء دخول الرَّدهة. لا يمكن أن يكون هذا الأمر مَحض صُدفة بالتأكيد؟ رجلان ميتان، قُتلا بالطريقة نفسها كما يبدو، وأحدهما على علاقة بمجموعة مجرمين يعملون في مستودع في فارنهايم يملكه بارون مجهول، وترك الآخر مؤخَّراً عمله لدى بارون موبرتْوي. لا يمكن أن يكون بارونان مشاركَين في هذا العمل، أليس كذلك؟ لا بد من أن يكون مالك المستودع، الرجل الغريب الذي رآه شارلوك وماتي مغادراً بمركبته، هو البارون موبرتْوي. وإذا كان الرجل الذي عثر شارلوك وآميوس غروي على جثته في الغابة يعمل لدى البارون موبرتوي في السابق في معمل صناعة الملابس، فهل كان ذلك

المعمل قائماً في المستودع في فارنهايم؟ وهل يعني ذلك أن الأشياء التي قام وينت المتوفى بسرقتها، كما هو مُفترَض، من المستودع - الأشياء التي تحدّث عنها كليم ودِني - هي ملابس؟

بدا لشارلوك أن كثيراً من صور الأُحجية المقطَّعة الطافية في ذهنه اتصلت بعضها ببعض فجأةً بالشكل الصحيح. لم تكن الفكرة واضحة بعد - لا تزال هناك بعض القطع مفقودة - ولكن كل شيء بدأ يكتسب معنى ما غريباً.

عالماً بشأن المعمل، الملابس، البارون، والرجلَين المَيتَين، يمكن لشارلوك وضع بعض الاستنتاجات بالاستناد إلى المعلومات المتوافرة لديه. ليس مجرّد حَدْس، بل بإمكانه الخروج ببعض النظريات المحتمَلة. على سبيل المثال، توفّى رجلان مشاركان في معمل للألبسة بسبب الجُدَري أو الطاعون. هل يعني ذلك أن الملابس ملوَّثة بطريقة ما؟ وانتاب شارلوك شعور، مردُّه أمور سبق له أن قرأها في صحف والده، بأن معظم الملابس مصنَّعة في البلدات الصناعية في إنكلترا الشمالية، إسكتلندا وإيرلندا، ولكنه يعرف أن بعضها مستورد من الخارج، من الصين إذا كان حريراً، والهند في العادة إذا كان موسلين أو قطناً. ربما تلوّثت دُفعة واصِلة إلى ميناء بريطاني بالداء، أو تفشّت فيها حشرات ربما تحمل الداء فأُصيب عمّال المصنع بالمرض. إنه شرح ممكن، وشعر شارلوك بحاجة مُلِحّة إلى اخبار شخص ما، والفكرة التي تبادرت إلى ذهنه مباشَرةً إخبار عمّه، ولكنه صرف النظر عن تلك الفكرة في الحال. ربما يكون شرينفورد هولمز بالغاً، ولكنه ليس خبيراً بالحياة والناس، وسيستبعد نظرية شارلوك على الفور، على الأرجح. وغاص قلب شارلوك مؤقتاً. من هناك سواه؟

ثم تذكر مايكروفت. باستطاعته تدوين كل شيء في رسالة وتوجيهها إلى شقيقه. فمايكروفت يعمل لصالح الحكومة البريطانية. هو يعرف ما يجب القيام به.

لقد شعر بحلِّ عُقدة القلق في صدره قليلاً لدى التفكير في مايكروفت الموثوق الذي يمكن الاعتماد عليه، ولكن خطر بباله أن يتساءل عما سيفعل مايكروفت بالتحديد: التخلي عن عمله والإسراع إلى فارنهايم لتولّي مسألة التحقيق؟ إرسال الجيش؟ على الأرجح، سيرسل برقية فقط للعم شرينفورد، وقد أعاد هذا الأمر شارلوك إلى المربَّع الأول.

خرج شارلوك من المنزل إلى ضوء الصباح، متوقفاً للحظة كي يستمتع بالهواء. فاشتم رائحة دخان الحطب، ورائحة القش المجزوز حديثاً، ورائحة العَفَن الضعيفة المنبعثة من مصنع الشراب في فارنهايم. كانت الشمس

ترتفع فوق رؤوس الأشجار، مفاجئةً الأوراق ومزيِّنةً إيّاها بهالة ذهبية، ومُلقيةً بظلالها الطويلة على المَرجة في اتجاهه كأصابع ممدودة.

كان هناك ظل آخر، ظل متحرك. اقتفى أثره عبر المَرجة إلى الجدار الذي يفصل المنزل وأراضيه عن الطريق. هناك، في الجانب الآخر للجدار، رأى شكلاً بشريًّا على حصان. بدا الأمر كما لو أنه يراقبه. وأثناء رفع يده لحماية عينَيه من وهج الشمس، نخس الفارس الحصان بالمِهماز، فخبّ على امتداد الطريق، متوارياً عن الأنظار وراء سياج منخفض من الشجَيرات.

سار شارلوك نحو البوّابات الرئيسية، ولم يجد الفارس والحصان. ولكن إذا كان محظوظاً، ربما يجد أثر حافر، أو شيء ما أوقعه الفارس ربما يمكّنه من كشف هويّته.

لم يجد أي أثر لحافر أو أي شيء آخر، ولكن شارلوك وجد ماتي آرنات جالساً قرب البوّابات، ووجد دراجتين هوائيتين إلى جانبه.

«من أين حصلت عليهما؟» سأل شارلوك.

«لقد عثرت عليهما. ظننتُ أنك ربما تريد القيام بجولة. فركوب الدراجة أسهل من السير على الأقدام، ويمكننا الذهاب إلى مزيد من الأماكن».

حدّق إليه شارلوك للحظة. «لماذا؟».

هزّ ماتي كتفَيه. «لا شيء آخر لدينا نقوم به». توقّف، وأشاح بنظره. «فكّرتُ في إفلات القارب من مراسيه وعبور القناة على متنه، ولكن ذلك يعني البدء من جديد في بلدة جديدة: البحث عن طعام وعمّا نحتاجه. على الأقل، أعرف أشخاصاً هنا. أنا أعرفك».

«حسناً. بعض التمارين تفي بالغرض. عضلاتي متيبّسة بعد يوم أمس».

«ماذا حدث يوم أمس؟».

«سأخبرك أثناء جولتنا». ألقى شارلوك نظرة على الطريق الذي يمرّ بجانب البوّابات. «هل رأيتَ شخصاً ما يمرّ من هنا على صهوة حصان ويتوقف لبعض الوقت؟».

«أجل. لقد مرّ بقربي وتوقف هناك». وأومأ برأسه في اتجاه المكان الذي شاهد فيه شارلوك الفارس. «يبدو أنه كان ينظر إلى شيء ما، ثم أكمل طريقه».

«هل عرفته؟».

«في الواقع لم أكن منتبهاً. هل للأمر أهمية؟».

هز شارلوك رأسه. «ربما لا».

انطلقا معاً على الطريق في اتجاه فارنهايم، بالاتجاه المعاكس للذي سلكه الفارس. مرّ بعض الوقت على ركوب شارلوك دراجة هوائية للمرة الأخيرة، ووجد نفسه يترنّح كثيراً أثناء السير وراء ماتي، ولكن الأمر لم يتطلب سوى دقائق قليلة قبل إجادة ركوب الدراجة من جديد واللحاق به. أثناء تقدّمهما جَنباً إلى جَنب على امتداد الطرقات الظليلة، حيث تنحني الأشجار معاً لتشكل قنطرة فوق رأسَيهما، ومرورهما بحقول مليئة بأزهار صفراء برّاقة، أخبر ماتي عما حدث في اليوم السابق - الرجل الذي تبعه من المنزل حيث رأى ماتي السحابة الغريبة، المستودع، العربة المكدَّسة بصناديق، والنار. وواصل ماتي طرح الأسئلة، ووجد شارلوك أنه يواصل العودة بالذاكرة إلى الوراء وإخبار أجزاء من القصة ثانيةً، والابتعاد عن موضوع البحث لشرح أمور أخرى دون التطرق إلى الفكرة الرئيسية بصورة عامة. لم يكن راوياً طبيعياً، وتمنى للحظة أن يجد شخصاً قادراً على وضع الوقائع في عقله وعرضها بطريقة ذات معنى.

«كنتَ محظوظاً بالخروج حيًّا»، قال ماتي عندما انتهى شارلوك. «عملتُ في مخبز منذ شهرَين. لقد احترق، وكنتُ محظوظاً بالخروج على قَيد الحياة».

«ماذا حدث؟» سأل شارلوك.

هز ماتي رأسه. «كان الخباز أحمق. لقد أشعل عود ثِقاب لإشعال غليونه أثناء قيامه بفتح أكياس الدقيق».

«ما علاقة ذلك بالنار؟».

نظر إليه ماتي بغرابة. «اعتقدتُ أن الكل يعرفون أن الدقيق الموضوع في الهواء الطَّلق يكون أشبه بمتفجرة. فإذا اشتعلت حبة دقيق واحدة، تنتشر النار إلى بقيّة الحبوب في غضون ثانية كشرارة تقفز من حبة إلى أخرى». هزّ رأسه. «تحوّل المخبز برمته إلى أنقاض. كنت محظوظاً بوجودي وراء طاولة آنذاك. بالرغم من ذلك، تطلّب الأمر شهراً كي ينمو شعري ثانيةً بشكل لائق». ألقى نظرة سريعة على شارلوك وقال: «أياً يكن الأمر، ماذا ستفعل الآن؟».

«يُفترض بنا إبلاغ الشرطة المحلية»، قال شارلوك. لقد بدت الكلمات خاطئة حتى ولو خرجت من فمه. جثتان هامدتان، سحابة موت غريبة، مسحوق أصفر مجهول الماهية، ومجموعة من المجرمين يُضرمون النار في مستودع! الأمر أشبه بلعبة أطفال قائمة على الأحلام والأوهام. حتى ولو كان بالإمكان التحقق من نصف الرواية من خلال الوقائع - رجلان تُوفّيا، والبقايا المُسوَدّة والمدخِّنة

في المستودع ستكون دليلاً لمدة من الزمن - فإن البقية تشبه كثيراً مجموعة تخمينات عشوائية وافتراضات وهمية رُبطت ببعضها لإقامة صِلة بين الوقائع.

لقد أنبأته نظرة إلى وجه ماتي بأن الفتى يفكر في الأمر نفسه بالتحديد، وشعر أن فمه يتلوّى من فَرط الإحباط. لم يكن يعرف أحداً في المنطقة يستطيع المساعدة، والأشخاص الذين يعرفهم ويمكنهم تقديم يد العون غير موجودين في المنطقة. إنها عبارة قائمة على تناقض ظاهري.

ثم تذكر المظهر الجليل لآميوس غروي، واعتراه شعور بالارتياح أبعد سحابة الرّيبة التي تجمّعت حوله كماء بارد يزيل التراب والوحل عن حجر. فغروي قادر على التحدث إلى الشبان كما لو أنهم بالغون، ويعمل عقله بطريقة منطقية، مستخدماً الدليل لبلوغ استنتاجات بدلاً من القفز إلى آخر الطريق مباشَرةً. إنه الشخص الوحيد الذي قد يصدّقهما.

«سنخبر آميوس غروي»، قال.

بدا ماتي متردداً. «الرجل ضخم البنية؟ أنت واثق؟».

أومأ شارلوك برأسه بحزم. «أنا واثق». ثم شعر بامتقاع وجهه وانكماش جسده. «ولكنني لا أعرف أين يعيش. علينا انتظار عودته إلى منزل عمّي، أو سؤال عمّي عن مكانه».

هز ماتي رأسه. «يستأجر منزلاً عند طرف البلدة»، قال. «كان كوخَ حارس طرائد. باستطاعتنا على الأرجح بلوغ ذلك المكان في غضون نصف ساعة بواسطة الدراجتَين الهوائيّتَين». وردَّا على الدهشة التي ظهرت على وجه شارلوك، أضاف، «ماذا؟ أعرف أين يقطن الجميع، أعرف ذلك جيداً. إنه جزء من المعلومات التي ترشدني إلى حيث يمكنني الحصول على طعام في أي وقت من اليوم. أحتاج إلى معرفة بعض التفاصيل: أين يُقيم الناس، أين يعملون، أين يوجد السوق، أين تُخزَّن الحبوب، أين يكون الشرطي في الصباح والظهر والمساء، وأي بساتين تُحرَس وأيها لا يُحرَس. إنها مسألة حياة أو موت».

الرصْد! قال شارلوك في نفسه، متذكراً ما سبق لآميوس غروي أن قال له. كل شيء مرتبط بالرصد في نهاية المطاف. إذا كنت تملك قَدْراً كافياً من الوقائع، يمكنك معرفة أي شيء تقريباً.

وتلك هي مشكلة الجثتَين وسحابة الموت؛ لم يكونوا يملكون قَدْراً كافياً من الوقائع.

توجّه الاثنان إلى البلدة، وتجنبا الطرق العامة المزدحمة بالمارّة. لقد انتهت الرحلة تقريباً قبل بدئها، ولكن عقل شارلوك كانِ يقلّب مجموعة غنيّة من

الوقائع والافتراضات والنظريات، عندما توقفا أمام منزل ريفيّ حجريّ الجدران حيث يقيم آميوس غروي كما يبدو.

لفتت حركة ما في أحد الجانبَين انتباه شارلوك. فألقى نظرة سريعة ولاحظ حصاناً يقضم العشب في الحقل، حصاناً على عُنُقه لمعة بنّيّة اللون.

إنه الحصان نفسه الذي رآه مرتَين، وعلى صهوته في كل مرة شكل بشريّ مُبهَم يراقبه.

فشعر بقشعريرة تسري عبر ذراعَيه وصدره. ماذا يجري؟

انتظر ماتي عند البوّابة أثناء عبور شارلوك الحديقة الأمامية. فاستدار شارلوك ليُلقي نظرة سريعة عليه بطريقة متسائلة، ووجهه عابس ومتلوٍّ.

«سأبقى هنا»، قال ماتي.

«ما الأمر؟».

«لا أعرف هذا الرجل. قد لا أروق له».

«سأقول له إن بالإمكان الوثوق بك. سأقول له إنك صديقي».

بانبثاق كلمة صديق من شفتَيه، شعر شارلوك باحمرارٍ فجائي. لقد افترض أن ماتي صديق، ولكن الفكرة أربكته. لم يسبق أن كان له أي صديق من قَبل، ليس في المدرسة، بالتأكيد، ولا حتى في بيت الطلاب، المكان الذي اعتبره منزلاً. كان الصغار هناك يميلون إلى ربط البيت بذوي المنزلة الرفيعة في المجتمع، طبقة الأغنياء من مالكي الأراضي، كان شارلوك يقضي معظم وقته بمفرده. حتى إن مايكروفت لم يكن أكثر من حضور مُطمئِن لدى جلوسه في مكتبة والدَيهما، شاقًّا طريقه عبر مجموعة الكتب الكبيرة التي جمعتها العائلة على مَرّ أجيال عدة. أحياناً، كان شارلوك يترك مايكروفت هناك بعد الفطور ويعود في موعد العشاء ليجده في الوضعيّة نفسها، والفارق الوحيد في محيطه انخفاض كومة الكتب غير المقروءة وازدياد كومة الكتب التي أنهى قراءتها.

«بالرغم من ذلك»، قال ماتي، «سأبقى في الخارج».

تبادرت فكرة إلى ذهن شارلوك. «في الخارج»، كرّر. «تحب البقاء في العراء، أليس كذلك؟ لم يسبق لي أن رأيتك في الداخل منذ التقيت بك».

فازداد عبوس ماتي، وأشاح بنظره كي لا يقع نظره على نظر شارلوك. «لا أحب الجدران»، تمتم. «لا أحب ألاّ يكون لي مكان ألجأ إليه شريطة أن أعرف من يوجد في الجانب الآخر من الباب».

أومأ شارلوك برأسه. «لقد فهمتُ»، قال برِفق. «لا أعرف كم ستدوم زيارتي. ربما أراك عندما أخرج». وألقى نظرة سريعة على الباب خلفه. «بادئ ذي بدء، لِنفترضْ وجود شخص ما في المنزل». نظر لبضع لحظات إلى الحصان الأسود الذي يواصل انتزاع كُتَل من العشب ومضغها، ثم قرع الباب بثبات.

عندما أدار رأسه، كان ماتي قد اختفى مع درّاجته.

بعد لحظات، فُتح الباب. كان شارلوك ينظر إلى الأعلى قليلاً، متوقعاً رؤية آميوس غروي واقفاً في المدخل، وأُربك للحظة لدى رؤية الفراغ. أنزل نظره، وغاص قلبه عندما وقع على وجه فتاة بطول قامته، ملابسها قاتمة اللون، وبدا وجهها في الظلال مضيئاً.

«كنت... كنت أبحث عن السيد غروي»، قال، شاعراً باحمرار وجهه بسبب تقلُّب صوته. لقد تمنى بيأس أن يبدو واثقاً بنفسه وغير مُبالٍ بقدْر مايكروفت.

«والدي في الخارج»، قالت الفتاة. كان صوتها مماثلاً لصوت آميوس غروي لجهة الخُنّة... لهجة أميركية؟ أيًّا يكن، فقد أعطاها هذا الأمر جاذبية غير عادية. «هل يمكنني أن أقول له من مرّ به؟».

وجد شارلوك أنه لا يستطيع رفع نظره عن وجهها. إنها في سنّه تقريباً، شعرها طويل، ذهبيّ مائل إلى الحُمرة، مُسدَل ومجعَّد على كتفَيها كشلال نحاسيّ يصطدم بالصخور ويتطاير رذاذاً نحو الأعلى؛ عيناها بدرجة اللون البنفسجي، ولم يسبق لشارلوك أن رأى أزهاراً برّية بهذا اللون، وبشرتها بنّيّة اللون منمَّشة كما لو أنها قضت وقتاً كثيراً في الخارج.

«أنا شارلوك»، قال. «شارلوك هولمز».

«أنت الفتى الذي يدرّسه».

«لست فتى؛ أنا في سنّك تماماً»، قال، متظاهراً بالشجاعة قَدْر الإمكان.

خرجت إلى ضوء الشمس، وتمكن شارلوك من رؤيتها مرتديةً بنطالاً قصيراً للفروسية، بنّيّ اللون، يلائم فتى أكثر مما يلائم فتاة، وقميصاً من الكتّان يبرز تفاصيل جسدها.

«سأخبر والدي بأنك قدِمتَ إلى هنا»، قالت كما لو أنها لم تتكلم. «أعتقد أنه قصد منزل عمّك بحثاً عنك. كان يتوقع رؤيتك اليوم».

«لقد التهيت»، شرح شارلوك. وتبادرت فكرة إلى ذهنه بسبب بنطال الفروسية والحصان. «كنتِ تراقبينني!» صاح بدون تفكير، شاعراً باحمرار وجهه بشكل فجائيّ بسبب الإحراج.

«لا تمتدح نفسك. رأيتك مرتَين أثناء امتطائي الحصان، هذا كل شيء».

«إلى أين كنتِ ذاهبة؟ لا شيء قرب منزل عزبة آل هولمز باستثناء ريف مترامي الأطراف».

«إذاً، كنت ذاهبة إلى هناك». ورفعت حاجبها. «هل تجيد امتطاء الجياد؟».

هزّ شارلوك رأسه.

«يُفترض بك أن تتعلّم. الأمر مسلٍّ».

متذكراً الشكل البشري الذي كان قد رآه عن بُعد، قال: «تمتطين الحصان كرجل!».

«ماذا تعني؟».

«عندما رأيت نساء يمتَطين جياداً، كُنَّ جالساتٍ على السَّرج بشكل جانبيّ وسيقانهنّ على جانب واحد من الحصان. يُدعى سَرج جانبيّ. أنت تمتطين الحصان كرجل مع ساق واحدة على كل جانب من الحصان».

«هكذا تعلّمتُ». وبدت غاضبة. «الناس هنا يسخرون مني بسبب امتطائي الحصان بهذه الطريقة، ولكن إذا امتطيتُه بالطريقة التي يريدون أقع أرضاً إذا جعلت الحصان ينطلق بسرعة أكبر من الخبَب. هذا البلد غريب. ليس كموطني». واندفعت بجانبه، وأُغلق الباب خلفها، واتجهت نحو الحصان بخطى واسعة. فراقب ظهرها المبتعد.

«ما اسمك؟» صاح شارلوك.

«لماذا تريد أن تعرف؟».

«كي لا أواصل التفكير في أنك ابنة آميوس غروي».

توقفت وتكلمت دون أن تستدير. «فرجينيا. إنه مكان في أميركا، في ولاية على ساحل البحر الشرقي، قرب العاصمة واشنطن».

«سمعتُ عنها. إنها قرب ألبوكيرك؟».

استدارت وبدت ملامح وجهها تتراوح بين الازدراء والتسلية. «لا شيء قربها على بُعد آلاف الأميال. فرجينيا غاباتٍ وجبال بمعظمها، ولكن ألبوكيرك تقع وسط الصحراء. ولكن هناك جبال أيضاً».

«ولكنك قادمة من ألبوكيرك».

فأومأت برأسها.

«لماذا أتيتِ إلى هنا؟».

لم تُجب فرجينيا بل استدارت وواصلت السير في اتجاه الحصان. تبعها شارلوك، شاعراً بأنه دُمية تُحرَّك بأسلاك، عاجزاً عن التصرف وفقاً لرغباته. وألقى نظرة حوله، آملاً في ألا يكون ماتي هناك كي لا يشهد ما سيحدث، ولكن الفتى ودرّاجته كانا غائبَين.

«ألا تريدين إخبار شخص ما إلى أين أنت ذاهبة؟» سأل مع وضع فرجينيا قدمها داخل الرِّكاب، وإمساكها بمقدّم السَّرج بيدها اليسرى، وسحْب نفسها إلى صهوة الحصان في وضعية الجلوس. وداعبت يدها عُرفَه.

«لا أحد في المنزل»، نادت. «والدي في الخارج، تذكّر».

«ماذا عن والدتك؟» سأل. إن طريقة تغيّر ملامح وجهها بطريقة غريبة إلى قساوةٍ هشّة جعلته يتمنى لو كان باستطاعته سحب الكلمات من الأثير في الحال.

أجابته برتابة: «تُوُفّيت والدتي، ماتت على متن السفينة أثناء عبورها المحيط الأطلسي إلى ليفربول. لهذا السبب أكره هذا البلد، وأكره وجودي فيه. لو لم نأتِ إلى هنا لكانت بقيت على قَيد الحياة».

بضربة خفيفة وسريعة بواسطة الرَّسَن، استدار الحصان وخبّ مبتعداً. راقبها شارلوك تذهب، وهو يشعر بالإحراج بسبب الألم على وجهها، والغضب من نفسه لتسبّبه به.

أخيراً، عندما استدار للمغادرة، وجد آميوس غروي واقفاً بصبر عند آخر الدرب، متكئاً على عُكاز، وكان يحدّق إلى شارلوك.

«أرى أنك قابلت ابنتي». قال أخيراً بلهجة مماثلة للهجة فرجينيا.

«لم أترك في نفسها انطباعاً جيداً كما يبدو». أقرّ شارلوك.

«لا يترك أحد في نفسها انطباعاً جيداً. إنها تجوب الريف على صهوة حصانها معظم الوقت، مرتديةً ملابس فتى». وتلوّى فمه جانبياً. «لا يمكنني القول إنني ألومها. فجرّها من ألبوكيرك إلى هنا كافٍ لجعل مِزاج طفل سيّئاً، دون...» وتوقف بشكل فجائي، وتولّد لدى شارلوك انطباع بأنه سيقول أمراً آخر، وأوقف نفسه في الوقت المحدَّد. «هل أردتَ رؤيتي لأجل أمر خاص، أم أنك كنت تبحث عن فرصة للحصول على درس آخر؟».

«في الواقع»، قال شارلوك، «هناك أمر ما». وأَوجز بسرعة لغروي ما حدث في فارنهايم: رجلُ المسحوق الأصفر، المستودع، النار. ووجد نفسه يبلغ

النهاية، مُدركاً أنه يُقرّ بإمكانية اعتبار الأمر نشاطاً إجرامياً إذا نُظر إليه من وجهة نظر معيَّنة، وبأنه غير واثق من رد فعل غروي انطلاقاً من ملامحه.

في النهاية، هز غروي رأسه فحسب، وحدّق إلى البعيد. «لقد مررتَ بوقت ممتع»، قال. «ولكنني لست واثقاً مما سيؤول إليه كل ذلك. لا يزال لدينا شخصان متوفّيان وتفشٍّ محتمَل لمرض. إذا كنت تريد رأيي، فَلْيَكُن. دَعِ الأطباء والمسؤولين يتعاطون مع الأمر. هناك قاعدة مفيدة في الحياة تقول إنه لا يُفترض بك خوض المعارك التي تعترض طريقك. اختر المعارك المهمة ودَع شخصاً آخر يخوض المعارك المتبقية. وفي هذه الحالة، ليست معركتك».

شعر شارلوك بالإحباط في داخله، ولكنه حافظ على هدوئه. لقد انتابه شعور قويّ بأنها معركته لأنه الوحيد الذي رأى الرجل في المركبة وفكّر في أهمية المسحوق الأصفر. ولكن ربما تكون لآميوس غروي وجهة نظر. لقد اعتبر محاولة إقناع غروي بحدوث أمر ما ليست معركة ينبغي عليه خوضها. ربما تكون هناك طريقة أخرى.

«إذاً، ماذا على جدول الأعمال اليوم؟» سأل.

أعتقد حقاً أننا لم نصل إلى صميم الفُطر الصالح للأكل»، أجاب غروي. «دعنا نقم بجولة ونَرَ ما يمكننا أن نجد. وفي طريقنا، سأدلّك على بعض النباتات البرّية التي يمكن تناولها نيئة، مطهوّة، أو مغليّة مع شراب يمكنه تخفيف الألم».

«رائع»، قال شارلوك.

قضى مع آميوس غروي الساعات القليلة التالية يجوبان الريف المحلّي، كانا يتناولان كل ما يقع في متناول أيدهما ولا يشكل أي خطر على حياتهما. رُغماً عنه، تعلّم شارلوك كثيراً عن قضاء الوقت في البرّيّة والخروج منها سالماً، لا بل الإفلاح أيضاً في ما يقوم به. حتى إن غروي أراه كيفية إعداد سرير مريح من خلال تكويم الخِنشار حتى ارتفاع الكتف، ومن ثم التسلّق عليه واستخدام وزنه لسحقه وجعله بسماكة وطراوة فراش.

أثناء عودته إلى منزل عزبة آل هولمز على متن الدراجة، حاول العودة بالذاكرة إلى الرجلَين المَيتَين، والمستودع المحروق، والمسحوق الأصفر، وظِل الموت الزاحف المُبهَم، ولكن أفكاره كانت تُقاطَع باستمرار بشعر فرجينيا الأحمر المنسدل على كتفَيها، وطريقةِ ترجّح جسدها إلى الأعلى والأسفل أثناء ابتعادها عنه على صهوة حصانها. وتذكّر عيّنة المسحوق الأصفر التي غرفها عن الأرض في الغابة، وأغلق عليها بإحكام داخل المغلّف. إذا كان الأشرار في المستودع مُحِقّين، يكون موت الرجلَين إذاً مرتبطاً بشيء ما

معدٍّ، أو ملوِّث، أو يتسبب بمشاكل صحّية على الأقل إذا لَمِس. لقد افترض أن المسحوق الأصفر هو السبب ولكنه كان بحاجة إلى اكتشاف ماهيّته، بالرغم من تحذير آميوس غروي المموَّه. ليس لديه المعرفة أو التجهيزات للقيام بالأمر بنفسه، لذلك فهو بحاجة إلى عالِم كيمياء، أو صيدليّ، أو ما شابه، باستطاعته تحليل المسحوق، ومن غير المحتمَل أن يعثر على شخص مماثل في فارنهايم. لقد سبق لشقيقه أن اصطحبهم عبر غيلدفورد في طريقهم إلى فارنهايم، وإذا كانت البلدةَ الكبيرةَ الأقرب، ربما يعثر شارلوك هناك على شخص مدرَّب في العلوم الطبيعية يمكنه تحديد ماهيّة المسحوق. كان آميوس غروي قد ذكر خبيراً هناك - البروفسور وينشكومب. ربما يمكن لشارلوك الذهاب ورؤيته.

كل ما تعيّن عليه القيام به في الحال هو الوصول إلى غيلدفورد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

في اليوم التالي، لحق شارلوك بماتي آرنات في السوق. لقد بات باستطاعته توقّع تحركات ماتي. كان وقتاً متأخراً من الصباح وتجار السوق يعملون منذ الصباح الباكر. لا بد من أنهم يفكرون في الطعام وربما يتناوبون على الذهاب وإحضار شيء ما يتناولونه: يتولى أحدهم مراقبة بسطتَي بيع في حين يذهب الآخر لإحضار بعض الخبز واللحم، أو فطيرة. يعني ذلك أن وقت الغداء هو أحد تلك الأوقات عندما يصبح الانتباه موزَّعاً، ما يمنح ماتي فرصة سرقة بعض الفاكهة أو الخُضَر من زاوية بسطة بيع دون أن يلاحظه أحد. لم يوافق شارلوك على السرقة، ولكنه لم يكن يوافق أيضاً على تضوّر الناس جوعاً وتجميع الصغار وإرسالهم إلى مشغل للفقراء، لذلك افترض أنه توازن في المُعضلات الأخلاقية، ولم يبخل على ماتي بالتفاحة الزائدة التي تأكلها دودة. لن يؤدي ذلك إلى انهيار الإمبراطورية.

كانت السوق منتشرة فوق حقل صغير تقوم مبانٍ على ثلاثة من جوانبه. كان هناك بسطات تبيع أكواماً من البصل والجزر الأبيض، والبطاطا، والشمندر، وخُضَراً أخرى متنوّعة الألوان لم يعرفها شارلوك. وفي بسطات أخرى فَخِذ مقدَّدة مدلاّة من علاّقات والذباب يئزّ حولها، وسمكٌ ممدود على قش. هناك أشخاص يبيعون أدوات متنوّعة وملابس أيضاً: بُسط خشنة، وبَمبازين)[1])، وشَلّون)[2])، وقماش صوفيّ مضلَّع. وفي حظيرة مؤقتة قائمة على أحد الجانبَين قطيع غنم. كان مزيج الروائح غامراً تقريباً مع رائحة عفَن ضعيفة في الهواء. وعند المغيب، عرف شارلوك أن المكان برمّته ستعمّه رائحة خُضَر وسمك نتنة وكريهة، ولكن معظم المتسوّقين يكونون قد غادروا حينذاك ولا يبقى سوى السكان المحليّين الأكثر فقراً، آملين في شروع تجار السوق بتخفيض أسعارهم للتخلّص من مخزونهم.

لم تكن السوق مُفعَمة بالحياة كما اعتاد شارلوك أن يجدها. فبدلاً من التدافع والاستعجال اللذَين ينبغي لسوقِ بلدة صغيرة أن تولّدهما، وبدلاً من تعاطي الناس مع السوق كحدث اجتماعي ومناسبة لشراء كل ما يحتاجون إليه، بدا المتسوّقون مركّزين على شراء حاجياتهم بأقل قدْر ممكن من المقايضة، والخروج بعد ذلك من السوق.

«هل كان غروي في المنزل؟» سأل ماتي مع اقتراب شارلوك. كان جالساً على قفص خشبيّ مقلوبٍ رأساً على عقِب، يراقب تجار السوق مراقبة حثيثة، متحيّناً لحظة عدم انتباه.

«ليس في بادِئ الأمر، ولكنني التقيت ابنته».

«أجل، لقد رأيتها في الأنحاء».

«كان بإمكانك أن تُخبرني عنها»، تذمّر شارلوك. «لقد أخذتْني على حين غَرّة. لم أكن أتوقع أن تكون هناك. لا بد من أنني بَدوتُ كالأحمق».

ألقى ماتي نظرة سريعة على شارلوك، رامقاً إيّاه من الأعلى إلى الأسفل. «أجل، جداً»، قال.

بدا شارلوك مُربَكاً وغيّر الموضوع. «خطرت لي فكرة...».

كفّ عن الكلام مع اندفاع ماتي فجأةً إلى داخل الحشد، منسلاًّ بين متسوّقين كانسلال ثعبان ماء بين الصخور. وما هي إلا لحظات حتى عاد الفتى ثانيةً، نافضاً التراب عن فطيرة لحم. «وقعتْ عن حافة بسطة بيع»، قال بفخر. «كنت أنتظر حدوث ذلك. أغراض كثيرة مكوَّمة عالياً جداً؛ إن وقوع شيء ما كان أمراً حتمياً في النهاية». تناول قضمة كبيرة، ومن ثم سلّمها لشارلوك. «إليك بها، تذوّقها».

قضم شارلوك قطعة صغيرة من حافة القشرة الخارجية ووجدها مالحة، ومدهنة، وسميكة. وتناول قضمة أخرى، غارفاً بعض اللحم الزهريّ الفاتح اللون والهلام الشفاف. كان اللحم طيّب المَذاق ومرصَّعاً بقِطع صغيرة من الفاكهة، خوخ مجفَّف، ربما؟ أيًّا يكن، بدا المزيج مدهشاً.

أعاد إليه الفطيرة. «لديّ بعض التفاح والجُبن. كُلْها».

«قلتَ إن لديك فكرة».

«عليّ الوصول إلى غيلدفورد».

«تستغرق الرحلة إلى هناك بضع ساعات على الدراجة»، قال ماتي ذلك منعماً النظر في الحشد.

عاد شارلوك بالذاكرة إلى رحلته من مدرسة ديبدن للفتيان إلى فارنهايم، مروراً عبر غيلدفورد ومن ثم ألدرشوت. لم يستمتع بصفة خاصة بفكرة التوجه إلى غيلدفورد والعودة منها على متن دراجة هوائية، ولم يكن واثقاً من تمكنه من القيام بذلك يوماً ما، والعثور على خبير يتحدث إليه عن السموم والأمراض أيضاً.

تنهّد. «انسَ الأمر. كانت فكرة غبية».

«ليس بالضرورة»، أجاب ماتي. «هناك وسائل أخرى للوصول إلى غيلدفورد».

«لا أجيد الفروسية، ولا حصان لديّ».

«ماذا عن القطار؟».

«أفضّل القيام بذلك دون ترك أي أثر، ودون أن يعرف أحد. تبدو السيدة إيغلانتين لطيفة مع ناظر المحطة؛ لا أريدها أن تعرف ما أفعل طوال الوقت».

السيدة إيغلانتين ليست صديقة للعائلة. فجأةً، مرّت كلمات رسالة مايكروفت في ذهنه، جاعلةً إيّاه يرتعش.

«هناك طريقة أخرى»، قال ماتي بحِرص.

«ما هي؟».

«الواي».

«أي طريق (way)؟».

«لا، الواي. نهر الواي. يجري بين فارنهايم وغيلدفورد».

فكر شارلوك مليًّا في الأمر للحظات. «سنكون بحاجة إلى مركب». وقبل أن يتمكّن ماتي من قول أي شيء، هتف، «ولديك واحد! مركب ضيّق، على الأقل!».

«وحان الوقت لجرّه».

«كم ستدوم الرحلة؟».

فكر ماتي مليًّا للحظات. «ربما بقدْر ما تدوم الرحلة على الدراجة، ولكنها تتطلب جهداً أقل. لا أعتقد أن باستطاعتنا القيام بها اليوم. يمكننا أن نلتقي في الغد وقت الشروق، وبإمكاننا قضاء اليوم على الماء، ولكن ذلك لن يسمح لك بقضاء وقت طويل في غيلدفورد».

«ماذا لو انطلقنا قبل الفجر؟» سأل شارلوك.

ألقى ماتي نظرة فُضولية عليه. «ألن يقلق عليك عمّك وزوجته؟».

أجابه شارلوك: «يمكنني العودة لتناول العشاء، وأُخبرهما بعد ذلك بأنني ذاهب إلى السرير. باستطاعتي التسلّل خارج المنزل في وقت لاحق عندما يحلّ الظلام ويكون الجميع نياماً. أنا واثق من ذلك. لا أحد يتفقّدني في غرفتي. ويمكنني ترك رسالة في غرفة الطعام تقول إنني نهضت قبل الفطور وخرجت مع آميوس غروي. لن يعثروا على الرسالة قبل الصباح. سينجح الأمر!».

«ينعطف النهر قرب منزل عمّك»، قال ماتي. «باستطاعتي رسم خارطة لك ولقاؤك هناك. يمكننا الوصول إلى غيلدفورد في الصباح والعودة قبل

المغيب».

رسم ماتي بسرعة خارطة على قطعة خشب انتزعها من القفص الجالس عليه، مستخدماً حجراً حادّ الأطراف التقطه عن الأرض. شك شارلوك بأن الفتى لا يُجيد القراءة أو الكتابة، ولكن هذه الخارطة كانت مثالية ووفقاً لمقياس الرسم النسبيّ تقريباً. تمكن شارلوك من تخيُّل المكان الذي سيلتقيان فيه بالتحديد.

«أريد منك القيام بأمر ما»، قال شارلوك.

«ما هو؟».

«اسأل في الأنحاء. حاول جمع معلومات عن الرجل المَيت، الرجل الذي كنتَ واقفاً خارج منزله. اعرَف ماذا كان يفعل».

«ماذا تعني؟».

«ما كان عمله. كيف يكسب ماله. ينتابني شعور بأن هذه المعلومات قد تكون مهمة».

أومأ ماتي برأسه. «سأبذل قُصارى جهدي، ولكن أحداً لا يخبر الصغار بأي شيء في العادة».

بعد ذلك، حدث كل شيء بسلاسة. عاد شارلوك إلى منزل عزبة آل هولمز بواسطة الدراجة، ووصل أثناء جلوس العائلة إلى مائدة الغداء. حاول التفكير في خطته، مختبراً كل خطوة بهدف التمتع بالمرونة لدى مواجهة أحداث غير متوقعة، وباحثاً عن عيوب في التفاصيل، ولكنه وجد أنه ينتقل تلقائياً للتفكير في فرجينيا غروي. لم يتمكن من تخيُّل شكل وجهها وشعرها.

وصل آميوس غروي بعد الغداء وقضى ساعات عدة في الخارج على الشرفة، مختبراً طُرق التفكير لدى شارلوك بواسطة ألعاب ذهنية وأُحجيات، وعلقت إحداها في ذهن شارلوك.

«لنتخيّلْ ثلاثة أصدقاء قرروا اقتسام كلفة غرفة فندق»، قال غروي. «تبلغ كلفة الغرفة ثلاثين شِلناً في الليلة الواحدة بما في ذلك العشاء والفطور، من الواضح أنه مكان رفيع المنزلة. وهكذا، دفع كل من الأصدقاء عشرة شِلنات للمدير. هل كل شيء مفهوم حتى الآن؟».

أومأ شارلوك برأسه.

«جيد. في صباح اليوم التالي، يدرك المدير أنه ارتكب خطأ فادحاً. هناك حسم خاص على الغرفة بسبب الإنشاءات في الفندق. لذلك، يرسل خادم فندق-

ندعوه خادم فندق، كما أظن - إلى غرفة الأصدقاء لإعادة خمسة شِلنات. يُسَرّ الأصدقاء جداً ويقررون احتفاظ كل منهم بشِلن واحد وإعطاء خادم الفندق شِلنَين بقشيشاً. إذاً، انتهى الأمر بدفع كل من الرجال تسعة شِلنات بدلاً من عشرة، وحصل خادم الفندق على شِلنَين. صحيح؟

أومأ شارلوك برأسه ثانيةً، ولكن عقله كان يعمل بسرعة لاستيعاب كل ما يقوله غروي. «تمهّل. إذا انتهى الأمر بدفع كل رجل تسعة شِلنات فقط، فهذا يعني أنهم دفعوا ما مجموعه سبعةً وعشرين شِلناً. أَضِف الشِّلنَين اللذَين حصل عليهما خادم الفندق فتحصل على تسعة وعشرين شِلناً. هناك شِلن مفقود».

«صحيح»، قال غروي. «أَخبرني أين ذهب».

قضى شارلوك الدقائق العشرين التالية في محاولة حلّ اللغز في عقله أولاً ومن ثم على الورق. في النهاية، أقرّ بالهزيمة. «لا أعرف»، قال. «أعاد المدير خمسة شِلنات، إذاً فهو لم يحتفظ بها؛ حصل خادم الفندق على شِلنَين، إذاً فهو لم يحصل عليها من مصدر آخر، واستعاد كل من الرجال شِلناً واحداً، إذاً فهم لم يحصلوا عليها من مصدر آخر».

«تكمن المشكلة في الوصف»، شرح غروي. «أجل، تسعة شِلنات ضرب ثلاثة تساوي سبعة وعشرين شِلناً، ولكن هذه القيمة تتضمن البقشيش أيضاً. إذاً لا معنى لإضافة البقشيش البالغ شِلنَين إلى القيمة الآنف ذكرها فتكون الإجابة تسعة وعشرين شِلناً. إذا أعدتَ تركيب المسألة، تُدرك أن الرجال دفعوا خمسة وعشرين شِلناً لقاء الغرفة، وشِلنَين بقشيشاً، ومن ثم استعاد كل منهم شِلناً، مما يجعل المجموع ثلاثين شِلناً. والنتيجة هي...؟».

أومأ شارلوك برأسه. «لا تدَع شخصاً آخر يشرح المسألة لك لأنه قد يضلّلك. خُذ الوقائع التي يوفّرها لك، ومن ثم أَعِد شرح المسألة بطريقة منطقية تُمكّنك من حلّها».

غادر آميوس غروي قبل العشاء، وعاد شارلوك إلى غرفته للتفكير في ما تعلّمه. توجّه لتناول العشاء وأكل بصمت، في حين كان عمّه يقرأ وزوجته تُحدّث نفسها. رمقته السيدة إيغلانتين من جانب الغرفة بارتياب، ولكن أنظارهما لم تلتقيا. إن الحديث الوحيد الذي شهده العشاء جرى عندما رفع عمّه نظره عن الكتاب الذي يقرأه، وقال لمدبّرة المنزل: «يا سيدة إيغلانتين، ما هي مقادير الطعام التي لدينا ضمن حدائق العزبة؟».

«بالنسبة إلى الخُضَر، نزرع ما يفي بحاجاتنا»، قالت، زامة شفتيها. «والأمر سيّان بالنسبة إلى الدواجن والبيض. أما بالنسبة إلى اللحم والسمك، فهي

تكفينا لمدة أسابيع قليلة قبل أن تنفد، هذا إذا اقتصدنا في استهلاكها».

أومأ العمّ شرينفورد برأسه. «أعتقد أنه يجب علينا افتراض الأسوأ. استعدّي لتدخينها وإلا احتفظي بأكبر قدْر ممكن من اللحم. ضعيها في مخزونات الأساسيات. إذا وصل الطاعون إلى فارنهايم، قد نكون معزولين عندئذٍ لبعض الوقت. أعلم أن آميوس غروي ينصح بالحذر، ولكن يُفترض بنا اتخاذ الحِيطة». والتفت إلى شارلوك. «بالمناسبة، قال لي السيد غروي إنك لم تقضِ وقتاً طويلاً في حصّتَي اللغة اللاتينية واللغة اليونانية».

«أعلم»، قال شارلوك. «كنتُ والسيد غروي نركّز على... الرياضيات».

«وقت السيد غروي قيّم»، تابع العمّ شرينفورد بسلوكه الهادئ والمدروس بعناية. «ولشقيقك خدمات تُلزمه ببعض النفقات. ربما تكون راغباً في التفكير مليًّا في الأمر».

«سأفعل، يا عمّي».

سيعود السيد غروي بعد ظهر غد. ربما يمكنك القيام ببعض الترجمة لي».

تذكّر شارلوك تقدير ماتي بأنهما لن يعودا قبل العشاء، فجفل. لم يكن بإمكانه إخبار عمّه بأنه ذاهب إلى غيلدفورد؛ ربما يُمنع من الذهاب. ألقى نظرة سريعة إلى الأعلى، فوجد أن السيدة إيغلانتين تحملق إليه بعينَيها الصغيرتَين الخرزيّتَين. ماذا تعرف؟

«سأكون هنا»، قال ذلك وهو على علم بأنه لن يكون هنا في الوقت المحدد.

أنهى العشاء، استأذن بالانصراف وفتح باب المكتبة. كان عمّه لا يزال في غرفة الطعام يأكل، وسبق له أن قال قبل يوم واحد أو يومَين أن باستطاعته دخول المكتبة إذا رغب، ولكنه كان لا يزال يشعر بأنه متسلّل في هذه الغرفة الهادئة، والستائر مُسدَلة لحجب نور الشمس، ورائحة الجِلد والورق القديم تملأ كل زاوية وشِقّ. جال شارلوك ببصره على امتداد الرفوف، باحثاً عن شيء ما مرتبط بالجغرافيا المحلية. فعثر على مجموعات مختلفة من الموسوعات، ومجلّدات لمجلات دَورية كنَسية، وعدد كبير من الكتب التي تحتوي على مجموعاتِ مواعظ افترض أنها لرجال دين ذائعي الصيت من الماضي، وسجلات تاريخية عديدة للكنيسة، ووصل أخيراً إلى رفوف التاريخ والجغرافيا المحلية. فاختار كتاباً عن الخطوط الملاحية لساري وهامبشير، وغادر المكتبة وعاد إلى غرفته.

خلال نصف ساعة، كتب رسالة صغيرة يشرح فيها خروجه باكراً وأنه سيعود في وقت لاحق. كانت محاولاته القليلة الأولى مفصَّلة جداً، مركِّزاً على أكاذيب متنوعة عن مكان وجوده وما سيفعل، ولكنه أدرك بعد قليل أنه كلما كانت

رسالته أبسط والوقائع التي يمكن التحقق منها أقل، كان الأمر أفضل. وعندما أنجزها، تمدّد على سريره وقرأ الكتاب الذي أخذه من المكتبة.

ألقى شارلوك نظرة سريعة على الكتاب بحثاً عن معلومات عن نهر واي مع خارطة يمكنه استظهارها، ولكنه سرعان ما عثر على أكثر مما كان يتوقع. فقد كان النهر مليئاً بالهويسات.

ازدحم رأس شارلوك بتفاصيل عن المآثر الهندسية الهائلة الضرورية لتطويع النهر وفقاً لمشيئة الإنسان، وقد تطلّب إنجازها هذه الهويسات سنوات عدة. أخيراً، حاول النوم، عالماً بأن يوماً طويلاً سيكون بانتظاره. وبالرغم من جيشان عقله بالأفكار، والصور، والوقائع، غط في نوم خالٍ من الأحلام قبل أن يَعي ذلك. عندما استيقظ، كان الظلام سائداً، ولكن نسيماً عليلاً هبّ عبر النافذة، وبدأت الطيور بالتغريد على الأشجار والخمائل. إنها الرابعة فجراً.

كان قد استلقى على السرير بملابسه، لذلك وجد نفسه ينسلّ في غضون لحظات عبر المنزل المُظلم، ونزل السلّم الخشبيّ الضيّق، وحرص على الخَطو على الناحية الخارجية لسطح الدرجات بهدف تجنّب الصريف، ومن ثم عبر باحتراس الطابق الأول، ومرّ أمام غرفة نوم عمه وزوجته، وأمام غرفة ارتداء ملابسهما، والحمّام، محاولاً عدم التنفّس بقوة، ومن ثم نزل السلّم الرئيسي الذي ينحدر مع انحناءة إلى وسط الطابق الأرضي، وبقي قرب الجدار شاعراً بثِقل اللوحات المعلَّقة فوقه حيث الأُطُر الخشبية المنحوتة بطريقة تزيينية تجعل الرسوم نفسها تبدو صغيرة الحجم وتافهة نسبياً. والصوت الوحيد هو تكتكة الساعة الكبيرة عند الزاوية حيث يرتاح السلّم على الأرض المبلَّطة.

توقف قليلاً عندما بلغ الرَّدهة. الآن، عليه عبور الأرض المبلَّطة في اتجاه الباب الأمامي. لا مزيداً من الانسلال على امتداد الجدار، فقد يراه شخص ما في الخارج، في العراء، إذا صودف خروجه من مدخل أو نظر إلى الأسفل من شرفة الطابق العُلوي. فركع للحظات، محاولاً التحقق من وجود أي ضوء تحت أيٍّ من الأبواب، ولكن كل شيء كان مُظلماً. أخيراً، استجمع شجاعته وتابع طريقه. وعندما وصل إلى الباب الأمامي، كان قلبه يخفق بقوة وبسرعة تفوق سرعة تكتكة الساعة بمقدار الضعف.

لقد وجد الباب مثبَّتاً بمِزلاج، ولكنه رفع المِزلاج وفتحه ببطء. ربما لاحظ أحدهم في الصباح أن الباب غير مُقفَل، ولكنهم قد يفترضون، كما يرجو، أن شخصاً آخر خرج.

كان الباب مُغلَقاً تقريباً عندما تذكّر شارلوك الرسالة التي يتعيّن عليه تركها، شارحاً فيها أنه خرج باكراً. فارتمى بكل ثقله على الباب، فاتحاً إيّاه ثانيةً، ومن

ثم انسلّ إلى الداخل وترك الرسالة على طاولة جانبية صغيرة في الرَّدهة بجانب حامل القبّعات حيث يوضع بريد الصباح وبعد الظهر في العادة بانتظار جمعه.

كان الهواء في الخارج معتدل البرودة ومنعشاً مقارنةً مع فساد الجوّ داخل المنزل، وارتاب بوجود توهّج فوق الأشجار حيث الظلام يُفسح الطريق لزرقة الفجر. فركض شارلوك بأقصى سرعة ممكنة على حجارة الطريق الخاص بالمنزل، سامعاً إيّاها تصرف تحت قدمَيه، قبل بلوغ سكون المَرجة.

استغرق الأمر عشر دقائق لبلوغ ضفّة النهر، متّبعاً توجيهات ماتي. كان هناك شكل أسود طويل مستلقياً على النهر الفضّي، متحركاً إلى الأمام والوراء مع تماوج الماء، وبدا ككوخ طويل ومنخفض بُني على صالِب([3]) ضيّق. وهناك فجوة وحيدة في المؤخَّر حيث ينتهي الكوخ، إضافةً إلى منصة تتسع لشخصَين واقفَين يمسك أحدهما ذراع الدفّة. ويهبط حبل متصل بمقدَّم المركب في اتجاه سطح الماء، ومن ثم يرتفع ثانيةً إلى حيث يقضم حصان العشب برِضى على امتداد الضفة المُعشوشبة. بخلاف الحصان الأسود الخاص بفرجينيا غروي، بدا هذا الحصان ثقيلاً، مخلوقاً سميك القوائم مع عُرْفٍ أشعث. لقد ألقى نظرة سريعة على شارلوك مرة واحدة، وعلى نحو غير فُضولي، ومن ثم واصل الأكل.

بادر ماتي الذي كان ينتظر عند مقدَّم المركب الضيّق «لِنذهبْ»، أثناء تسلّق شارلوك المركب. «هذا ألبرت، بالمناسبة». وأصدر صوت طقطقة بلسانه، فالتفت الحصان إليه وعلى وجهه الطويل تعبير أسف، ومن ثم شرع بالسير على امتداد جانب النهر. وشُدّ الحبل الممتد بينه وبين المركب، ومن ثم شرع المركب بالتحرك أثناء قيام ألبرت بجرّه. استخدم ماتي خُطّاف المركب لدفع المركب الضيّق بعيداً عن الضفّة كي لا يعلق في القصب.

«هل يعرف أين يذهب؟» سأل شارلوك.

«ماذا عليه أن يعرف؟ يسير على امتداد الضفة، ساحباً المركب خلفه. إذا اعترضته عقبة، يتوقف ويعالج المسألة. ابقَ في المؤخَّر وابقِ يدك على ذراع الدفّة. إذا بدأنا بالانجراف إلى داخل النهر، وَجِّه مسارنا في اتجاه الضفة. هناك بطانية على سطح السفينة، تحسُّباً لشعورك بالبَرْد. إنها بطانية حصان، ولكنها ستُبقيك دافئاً كبطانية مُتقَنة».

انجرف المركب الضيّق والمياه ترتطم بجانبَيه في إيقاع منتظم هدهد شارلوك فهدّأه وأدخله في حالة منوِّمة تقريباً. كان النهر فارغاً من كل شيء إلا من بطة أو إوزّة تنجرف بقربهما من حين لآخر.

«ماذا اكتشفتَ عن الرجل الذي مات؟» نادى شارلوك بعد قليل. «الرجل الأول. الرجل الذي في المنزل».

«كان خياطاً يعمل لصالح شركة تصنع بِذلات موحدة للجيش في ألدرشوت. كان هناك طلبية كبيرة، كما يبدو، لذلك استدعت الشركة كل السكان المحليين الذين يُجيدون تفصيل الملابس أو خياطة القِطع».

«كيف علمتَ؟».

ضحك ماتي. «قلت إنني ابنه وأن أمي تريد معرفة ما إذا كان يتقاضى مالاً من مستخدِم ما».

«أين تقع الشركة؟» نادى شارلوك.

«لديهم مكتب رئيسي قرب السوق، ولكنهم يملكون أيضاً مستودعاً عند طرف البلدة حيث كان الرجل يعمل. ربما يكون المستودع الذي أُضرمتَ فيه النار!».

فكّر شارلوك مليًّا أثناء انجراف المركب الضيّق الذي يجرّه حصان ماتي. فالرجل المتوفى خيّاط يصنع بِذلات موحدة. والمستودع حيث كان يعمل مليء بصناديق وضعها المجرمون على متن عربة النقل. صناديق بِذلات موحدة؟ يبدو الأمر محتمَلاً. ولكن ذلك لا يشرح سبب وفاة الرجل، أو كيفية وفاته، ولا يشرح كيفية وفاة الرجل الثاني، ذلك الذي عُثر على جثته في الغابة.

كانت سماء الشرق أرجوانيّة اللون، قانية، كلون كَدمة حديثة العهد، والأشجار القائمة على امتداد النهر مرئية كأشكال أكثر قتامة على الخلفية المُظلِمة. كان هناك نجم وحيد يسطع قرب الأُفُق. في الأمام، تمكن شارلوك من رؤية قنطرة سوداء فوق طريقهم؛ ربما يكون جسراً. ربما يكون ذلك الذي سبق له وماتي أن جلسا عليه قبل يوم واحد أو يومَين فقط، وراقبا السمك في النهر.

أطلق ألبرت ضحكة مكبوتة كما لو أن شيئاً ما فاجأه، فحدّق شارلوك إلى الضفة، محاولاً معرفة شكل الحيوان إزاء ظُلمة الوشائع القائمة على امتداد الضفة. لقد تغيّر صوت حوافره على الدرب، وبدا لشارلوك أن الحصان يحاول الابتعاد عن شيء ما بات على مقربة كبيرة منه.

فقال ماتي شيئاً مهدّئاً - صوت مطمئِن أكثر منه كلمات فعلية - ولكن شارلوك عرف من نبرة صوته بأنه قلق. ما المشكلة؟ هل هناك كلب برّي في الأنحاء يخيف الحصان، أم أنه اشتمّ فحسب رائحة شيء ما غير متوقَّع؟

كان شارلوك على وشك مناداة ماتي وسؤاله عن المشكلة عندما تحرك شيء ما على الجسر وراء الشكل الأسود لرأس ماتي وكتفَيه.

التفت شارلوك إلى الشكل القاتم الذي يعبر النهر أمامهما. شيء ما يشق طريقه عبر التقوّس الخفيف للجسر: ظِلّ كثير الكُتَل. ظِلّان كثيرا الكُتَل، مع انضمام الظل الثاني إلى الأول. وتشاورا للحظات، مائلَين الأول نحو الثاني، ثم افترقا.

اثنان من سكان فارنهايم المحليين خارجاً في وقت باكر تقريباً؟ ربما صائدان منتهكان لأملاك الغير؟

تخلى شارلوك عن هذه النظريات عندما أضاء توهّجُ عودِ ثِقاب، مؤقتاً، وجهاً أسمر عرفه من المستودع.

يدعى المجرم كليم.

تحوّلت الشعلة إلى توهّج دافئ أضاء الجسر المشيَّد بالآجر. رفع كليم مصباحاً إلى الأعلى، مسلّطاً الضوء على المركب الضيّق المقترب. أثناء توجههما إلى الجسر، رأى شارلوك ابتسامة خبيثة جعلت فمه يتلوّى. وأضاء التوهّج المنبعث من المصباح الخط الكفافي لجسم ماتي بسبب وقوفه عند مقدمة المركب. أرجح كليم المصباح فوق رأسه، مرسلاً ظلالاً مرتعشة في كل مكان، ومن ثم رمى المصباح على رأس ماتي.

أنزل ماتي رأسه، وقفز المصباح مرتَين قبل أن يتحطم على مؤخَّر المركب الضيّق، مُريقاً زيتاً في كل مكان. وارتفعت من الخشب ألسنة اللهب، وامتدّت بسرعة عبر القشرة الخشبية. فألقى شارلوك نظرة سريعة حوله. إنهما في النهر، يا الله، ووجد أن لا وسيلة لغَرف الماء إلى حيث هم بحاجة إليها!

علقت نظرته المحدّقة على بطانية الحصان المتغضّنة عند زاوية سطح المركب قرب ذراع الدفة. فالتقطها شارلوك ودفعها بقوة إلى الأمام على ألسنة اللهب، مواصلاً الإمساك بإحدى زوايا البطانية كي لا تنزلق إلى الماء. وارتفع الدخان من تحتها، ولكن لا ألسنة لهب. سحب شارلوك البطانية في اتجاهه. لقد أطفئ نصف النار بعد خنقه بواسطة قطعة النسيج السميكة، ولكن تماوجات بالغة الصِّغر كانت لا تزال بين ألواح الخشب التي يتكوّن منها المركب.

صاح ماتي مع اصطدام مصباح زيت آخر بحافة المركب قرب رأس شارلوك وسقوطه في النهر حيث غرق، باصقاً ومهسهساً مع ملامسة الفتيل الماء. فدار شارلوك على مِروَده ورمى البطانية على جانب المركب، حارصاً على مواصلة الإمساك بها بإحكام. وقبل أن تصبح مُشبَعة جداً، سحبها وقذف بها

على الخشب ثانيةً. هذه المرة، هسهست ألسنة اللهب عندما أطفأتها قطعة النسيج المبتلّة.

ألقى شارلوك نظرة سريعة على الجسر في الأعلى مع مرور المركب الضيّق تحته، متوقعاً سقوط مصباح زيت ثالث على رأسه، ولكن المصابيح نفدت من مهاجمَيهما كما يبدو، وصُدم شارلوك لدى رؤية جسم يهوي في اتجاهه. لقد قفز كليم واصطدم بسطح المركب الضيّق، مصدّعاً الخشب بجزمته. فدفع نفسه للوقوف بأسنان مكزوزة وعينَين برّاقتَين، وتقدّم نحو شارلوك، وسحب من حزامه سكيناً متقوّساً بشدة.

«ظننتَ أن باستطاعتك اقتحام المستودع والفرار من العقوبة؟» قال بغضب. «شوهدتَ تهرب من اللهب كجُرَذ». ومدّ يده اليسرى للإمساك بشعر شارلوك. «استعدّ لملاقاة خالقك!».

تراجع شارلوك إلى زاوية منطقة سطح المركب الصغيرة، شاعراً بالنسمات الخفيفة التي تسببت بها أصابع كليم الخافقة أمام عينَيه. كان الرجل قريباً جداً لدرجة تمكّن شارلوك من اشتمام رائحة تعرُّق كريهة منبعثة من ملابسه الخشنة ورؤية القذارة مكدَّسة تحت أظافر أصابعه المتكسّرة.

اندفع كليم ولفّ أصابعه على شعر شارلوك، ساحباً الفتى إلى الأمام. لم يتمالك شارلوك نفسه عن الصياح من فَرط الألم بسبب جذب شعره لدرجة اقتلاعه تقريباً من فَروة رأسه. للحظات، ملأت عقلَه ذكرى ألبرت يقتلع كُتَل عشب من ضفة النهر.

سحب كليم شارلوك من قميصه وحدّق إلى عينَي الفتى. وشعر شارلوك بيد كليم اليمنى ترتفع في اتجاه حَلْقه، حاملةً السكين. كان على بُعد ثوانٍ من شَقّ حَلْقه.

اصطدم شيء ما بظهر كليم، فاتسعت عيناه بسبب الصدمة، وشعر شارلوك بإرخاء قبضته اليمنى عن شعره. فتراجع خطوة إلى الوراء، دافعاً كليم بعيداً بكلتا يدَيه. لم يقاوم الرجل، ولكنه ترنّح إلى الوراء قبل أن يجرجر خُطاه ويستدير، ويقوم بخطوات حذرة بشكل مبالَغ فيه.

كان ماتي واقفاً وراء كليم رافعاً خُطّاف المركب بيدَيه. للحظات، لم يفهم شارلوك تماماً ما حدث، ومن ثم، وباستدارة كليم نحو ماتي، تمكن شارلوك من رؤية جُرح بليغ عميق ودام، على امتداد مؤخَّر رأسه من أعلى الجمجمة حتى عُنُقه الغليظة. كان الجلدُ مشقوقاً، ورأى شارلوك عظمة بيضاء تحت الدم. لقد ضربه ماتي على مؤخَّر الرأس مباشَرةً بخُطّاف المركب.

تقدّم كليم خطوة إلى الأمام في اتجاه ماتي، ومن ثم خطوة أخرى. ورفع اليد التي تحمل السكين، ولكن لم يكن يعرف ما يفعل بها كما يبدو. حدّق إلى السكين بغباء، ومن ثم وقع بشكل جانبيّ عن متن المركب الضيّق إلى النهر كشجرة ساقطة. لقد بلغ الرذاذ المتطاير الجسرَ عندما اصطدم بسطح الماء، ورأى شارلوك وجه كليم أثناء غرقه، وسيماء عدم التصديق في عينَيه، ثم توارى عن الأنظار في قعر النهر. كانت يداه آخر ما اختفى تحت الماء، وأصابعه تتماوج كعشب ضارّ في التيار، ثم اختفت بدَورها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

كان شارلوك يرتجف عندما أصبحت الشمس فوق الأُفُق معلَّقةً في السماء وراء صور ظِلّيةٍ سوداءٍ للأشجار كفاكهة مُفرِطة النُّضج. لقد خلّفت قبضة كليم على كتفه أَلماً عميقاً امتدّ في اتجاه الأسفل داخل ظهره. فلو نظر لرأى بالتأكيد رُضوضاً هناك، خمس رُضوض بيضوية الشكل وإبهام.

بعد الهجوم، وبعد غرق كليم في الماء وفرار رفيقه، حدّق ماتي وشارلوك أحدهما إلى الآخر للحظات قليلة، متفاجئَين بالعنف الفجائي وبانتهائه الفجائيّ بالدرجة عينها.

«لم يكن يحاول سرقة المركب»، همس ماتي أخيراً. «كان يحاول تدميره. حاول أشخاص سرقته من قَبل، ولكن لماذا يقوم شخص ما بحرقه؟ لم يسبق لي أن رأيتهما من قَبل! ماذا فعلتُ لهما؟».

«كانا يريداننني»، قال شارلوك بتردد. «إنه أحد رجال المستودع. أعتقد أنه المسؤول؛ على الأقل، كان مسؤولاً عن الرجال هناك. فالبارون الذين تحدّثوا عنه هو المسؤول في الواقع. لا بد من أنه رآني أغادر المستودع أثناء احتراقه، وأدرك أنني استرقتُ السمع إليهم. ولكنني لا أعرف كيف تتبّعا أثرنا إلى المركب». وهزّ رأسه، غير مصدِّق. «ما الذي يفعلونه لدرجة استعدادهم لقتلنا بهدف حماية سرّهم. ما هو ذلك الأمر المهم؟».

حدق ماتي إلى شارلوك كما لو أنه تعرّض للخيانة، وأشاح بنظره عنه بعد ذلك بشكل مفاجئ وهزّ الحبل بقوة كي يحمل الحصان على التقدّم مجدّداً.

مع شروق الشمس وشعور شارلوك بألم كبير في كتفه كألم سنّ فاسدة، دخلا غيلدفورد، ولم يكن يملك بعد المعلومات التي يتعيّن عليه امتلاكها. فكل ما لديه أسئلة والهجوم الذي تعرّضا له.

كانت مجموعة صغيرة من الكلاب القذرة تتبعهما على امتداد ضفة النهر، مراقِبةً على أمل رمي بعض الطعام. فابتسم شارلوك بإيجاز، مفكراً في عدد الأشخاص الذين يحبون الاهتمام بالآخرين على غرار ماتي. ألقى نظرة سريعة إلى الأمام، إلى مؤخَّر رأس ماتي، وخبت الابتسامة على وجهه. لقد عرّض مركب الفتى للخطر، المنزل الحقيقي الوحيد الذي يملكه ماتي. والأسوأ من ذلك أنه عرّض حياة الفتى للخطر. ولأي سبب؟

بدأ الناس بالظهور عند ضفة النهر. من الواضح أن البعض متجه إلى خارج المدينة، والبعض الآخر إلى داخلها، مستخدمين ضفة النهر كطريق مناسبة،

في حين يجلس آخرون على صناديق ويُدَلّون قصبات صيد في الماء، أملاً في التقاط بعض الأسماك لفطورهم. ارتفع الدخان في السماء أمامها، مع شروع سكان غيلدفورد بإعداد طعام اليوم، وبدأت المباني تلوح أمامهما على امتداد ضفّتَي النهر: أكواخ خشبية ارتجالية في زوايا متنوّعة، وبعض التشييدات المتينة بالآجرّ. وظهرت بلاطات الرصف الحجرية غير المتساوية التي تشكل نوعاً من رصيف على امتداد حافة الماء.

بعد قليل، وأثناء دنوّهما من مجموعةٍ من المباني على شكل مستودعات قائمة على ضفة النهر، شرع ماتي بشدّ الحبل. فأبطأ الحصان وأبحر المركب الضيّق برفق قرب الضفة. سبق لماتي أن قاس الوقت بشكل جيد: انتهى بهم الأمر متوقفين قرب حلْقة حديدية كبيرة ثُبّتت داخل إحدى البلاطات. فتوقّع منه شارلوك ربط الحبل حول الحَلْقة، ولكن ماتي أخرج سلسلة بدت موثَقة بحلْقة معدنية مغروسة في الخشب. فرماها إلى الضفة وقفز. لفّ السلسلة على الحَلْقة الحديدية، وأخرج قُفلاً كبيراً وقديماً من جَيبه ومرّره عبر حَلْقات عدة من السلسلة.

«لا يمكنني الوثوق بأحد هنا»، همهم، غير ناظرٍ إلى شارلوك. «باستطاعتهم قطع حبل، ولكن الأمر يتطلّبهم قدْراً كبيراً من الوقت للتخلص من سلسلة وقُفل، وقتاً أطول مما يستحق المركب، كما أعتقد».

«ماذا عن الحصان؟» سأل شارلوك.

«إذا وجد شخصاً يعامله أفضل منّي، يمكنه الذهاب»، قال ماتي. وخطا على العشب، ومن ثم نظر إلى شارلوك. وتابع: «إنه مُسِنّ جداً وضعيف ليتمكن من جرّ مِحراث أو عربة نقل»، شرح. «فالمركب هو ضمن حدود قدرته على الجَرّ، ومع ذلك فهو بطيء. إن سرقته غير جديرة بالمحاولة».

«آسف على ما حدث»، قال شارلوك بارتباك.

«ليس خطأك»، قال ماتي، ماسحاً فمه بكمّه. «أنت في مأزق وأنا عالق فيه أيضاً. أفضل ما يمكن القيام به هو محاولة إخراج أنفسنا منه بأسرع ما يمكن، ومواصلة حياتنا». نظر حوله. «نحن في دابديون وارف»، قال. «إذا انفصلنا، وهو أمر محتمَل، تذكّر فقط أن نلتقي هنا مجدداً. لن أذهب من دونك». ونظر إلى شارلوك بطريقة حاسمة. «وأنا على ثقة تامة بأنك لا تستطيع المغادرة بدوني. الآن، ما اسم ذلك الشخص الذي كنتَ تبحث عنه؟».

«البروفسور وينشكومب»، قال شارلوك.

«إذاً، لِنذهبْ ونعثرْ عليه. ربما يمكننا الحصول على فطور في طريقنا».

ـَ

ابتعد الفتيان معاً عن النهر على امتداد درب تَعِد بإخراجهما إلى طريق عام أوسع. لقد تطلّبهما الأمر ساعة من السير، سائلَين عدداً من المارّة، قبل أن يكتشفا أن منزل البروفسور وينشكومب موجود في طريق شايليس رود المؤدّي إلى الشارع الرئيسي هاي ستريت، وتطلّبهما الأمر نصف ساعة أخرى للعثور على هاي ستريت الذي يتجه صعوداً إلى أعلى التلة بعيداً عن النهر وتقوم على جانبَيه متاجر بطابقَين أو ثلاثة طوابق مشيَّدة بعوارض خشبية سوداء. وتتدلى لافتات في الخارج: لوحات خشبية تحمل رسوماتِ سمك، خبز، خُضَر، وكل أنواع السِّلع الأخرى. وكان الناس السائرون على الطريق صعوداً ونزولاً، ناظرين إلى داخل النوافذ، يرتدون في معظمهم ملابس أفضل من سكان فارنهايم. فملابسهم مصنوعة من نسيج أكثر جودة، مزيَّنة برباطات وشرائط، وأكثر تنوّعاً بالألوان وأكثر نظافة مما رآه شارلوك منذ مدة.

يقع عدد قليل من بَسْطات بيع فواكه ولحمٍ بارد في أسفل هاي ستريت على امتداد جدار بارتفاع الخصر يفصل البلدة عن النهر. كان ماتي على وشك الزحف على امتداد الجدار وراء مالكي البَسْطات والبحث عن طعام سقط عنها، ولكن شارلوك سلك الشارع، مستخدماً بعض الموارد المتضائلة، التي سبق لمايكروفت أن أرسلها له، لشراء بعض طعام الفطور. فنظر إليه ماتي بارتياب وتولّد لدى شارلوك انطباع بأن ماتي يعتقد أن الطعام يكون أفضل مَذاقاً إذا لم يُدفَع ثمنه. وفقاً لشارلوك، يكون مَذاق الطعام أفضل إذا لم يكن ممرَّغاً بالتراب ولم تُضطر لقتال كلب لأجل الحصول عليه.

يتفرع شايليس رود من وسط هاي ستريت، وكان الفَتَيان يلهثان عندما بلغا أول الطريق الذي ينعطف بقوة ويغيب عن الأنظار، همّ شارلوك بسلوكه ولكنه توقّف عندما أدرك أن ماتي لا يلحق به. فاستدار وحدّق إلى الفتى بطريقة متسائلة.

«ما الأمر؟».

هز ماتي رأسه. «ليس نوع الأماكن المفضَّلة لديّ»، قال، ناظراً إلى المنازل الفخمة والحدائق المعتنى بها جيداً القائمة على امتداد الطريق. «تابع طريقك. سأنتظر هنا». نظر من حوله. «في مكان ما في الجوار، على أي حال».

أومأ شارلوك برأسه، ماتي مُحِق. ونفض أكبر قدْر من الغبار عن ملابسه، وتابع سيره.

كان المنزل الذي يبحث عنه وراء الانعطافة تماماً. ففتح البوّابة ودنا من الباب المحميّ برُواق مسقوف وفقاً للأسلوب اليوناني، وعلى أحد الأعمدة لوحة

نحاسية نُقشت عليها الكلمات: «البروفسور آرثر آلبري وينشكومب. مُحاضر في الأمراض الاستوائية».

قبل أن تتغلّب عليه حالته العصبية، شدّ شارلوك حبل الجرس.

فتح البابَ رجلٌ يرتدي بذلة سوداء بسيطة وصدرية رمادية، وحدّق إلى شارلوك من وراء نظارة صغيرة تكاد لا تغطّي عينَيه.

«هل البروفيسور وينشكومب في المنزل؟» سأل شارلوك.

لم يُجب الرجل للحظات، فافترض شارلوك أنه رئيس خدم. «من يسأل عنه؟» أخيراً سأل.

فتح شارلوك فمه للتعريف بنفسه، ولكنه تردّد. ربما من الأفضل استحضار اسم شخص آخر، شخص ما سمع البروفسور به من قَبل. مايكروفت، ربما؟ أو آميوس غروي؟ أيٌّ من الاسمَين هو الأفضل؟

أخيراً، اختار بشكل عشوائي قائلاً: «رجاءً، أَخبر البروفسور بأن تلميذ السيد آميوس غروي يرغب في استشارته».

أومأ رئيس الخدم برأسه. «هل ترغب في الانتظار في غرفة الجلوس؟» سأل، مبقِياً الباب مفتوحاً. وأومأ في اتجاه باب عبر الرَّدهة، معاملاً شارلوك كما لو أنه شخص صاحب امتياز وليس فتى أشعث الشعر نوعاً ما، عصبيّ المِزاج.

كان ورق الجدران القائم على امتداد الغرفة مغطّى بلوحاتِ نباتاتٍ طويلة ورفيعة، شبيهة بأعشاب كبيرة، لم يعرفها شارلوك. بدا الأمر كما لو أن لديها حَلَقات حول جذوعها على مسافات متساوية. ووجد نفسه مفتوناً بها. كان ينظر إليها عندما فُتح الباب ودخل رجل الغرفة. إنه قصير القامة - أقصر قامةً من شارلوك - ومعِدته ناتئة كما لو أن هناك وسادة مدسوسة تحت سترته، يعتمر قبّعة حمراء صغيرة غريبة لا حافّة لها؛ بُرج كبير وقصير مصنوع من حرير أحمر.

«خيزران»، قال.

«أستميحك عُذراً؟».

«تلك النباتات على ورق الجدران. خيزران. إنه شجر خشَبيّ دائم الخُضرة والتجدّد. قضيتُ بعض الوقت في الصين في صِباي وأَلِفتُ الخيزران، وهو النبات الخشبيّ الأسرع نموًّا في العالم، في الواقع. يمكن للنباتات الأكبر أن تنمو قدمَين في اليوم في ظروف معيَّنة. وورق الجدران نفسه صينيّ، بالمناسبة إنه ورق أرزِ».

لم يكن شارلوك واثقاً من أنه فهم. «ورق مصنوع من الأرز؟».

إنه سوء فهم شائع»، أجاب البروفسور. «في الواقع، يُصنع ورق الأرز من لُبّ شجرة صغيرة تدعى تيتراباناكس بابيرايفر». وأمال رأسه جانبياً. «قلتَ إنك تلميذ آميوس غروي؟» سأل. كانت عيناه وراء نظارته براقتين كعينَي طائر، زاخرتين بالفُضول.

«أجل، يا سيدي»، أجاب شارلوك، شاعراً بأنه عاد إلى مدرسة ديبدن.

«تلقّيتُ رسالة من السيد غروي هذا الصباح، رسالة شديدة الغرابة. غريبة جداً في الواقع. ألهذا السبب أنت هنا؟».

«هل الرسالة عن رجلَين مَيتَين؟».

أومأ البروفسور برأسه. «إنها كذلك في الواقع».

«لهذا السبب أنا هنا. سمعتُ السيد غروي يقول إنك خبير في الأمراض».

«أنا متخصص في الأمراض الاستوائية، ولكن أجل، يغطّي نطاق خبرتي معظم الأمراض الخطيرة المُعدية، من حمّى التابانولي وتعفُّن فورموزا الأسود، وصولاً إلى الكوليرا والتيفوئيد. فهمتُ أن هذَين الرجلَين ماتا ربما بسبب مرض مجهول».

«لست واثقاً جداً من ذلك». بحث شارلوك في جيب سترته وأخرج المغلّف الذي كان يحتوي على رسالة مايكروفت وبات يحتوي على عيّنة من المسحوق الأصفر. «جمعتُ هذا بالقرب من إحدى الجثّتَين، ولكنني أعلم بأنه كان موجوداً على كليهما»، قال على عجَل. «لا أعرف ما هو، ولكنني أعتقد أنه على صلة بالوفيّتَين. ربما يكون سامًّا».

مدّ البروفسور يده في اتجاه المغلف. «في تلك الحالة، سأتعاطى معه بحذر».

«أنت تصدّقني؟» سأل شارلوك.

«قطعتَ كل هذه المسافة لرؤيتي، لذلك أفترض أنك تأخذ الأمر بجدّية. أقلّ ما يمكنني القيام به هو أخذ الأمر بجدّيّة على غرارك. وعلاوةً على ذلك، أعرف آميوس غروي وأثق بأنه رجل نزيه. لا أستطيع تخيُّلَه يأخذ تلميذاً على عاتقه يستمتع بإعداد مقالب». وابتسم فجأةً، واكتست وجهُه ملامحَ ملائكية. «الآن، لِنذهبْ ونُلقِ نظرة على هذه العيّنة التي أحضرتها لي».

تقدّم شارلوك، وعبَر الرَّدهة ودخل غرفة أخرى، وكان هناك طاولة بجانب النافذة حيث الضوء أفضل. رأى مِجهراً على إضمامة ورق نشّاف أخضر على الطاولة، وسط أوراق وصُحف مبعثَرة وشمعة مشتعلة.

جلس البروفسور وينشكومب على كرسيّ ذي ظهر جِلديّ وراء طاولته، وأومأ لشارلوك بوضع كرسيّ آخر بجانبه. سحب ورقة بيضاء من الدُّرج ووضعها على النشّافة بجانب المِجهر، ثم فتح المغلّف بفتّاحة مظاريف وبحذر، وسكب المحتويات على الورقة. في غضون لحظات، بات أمامه كومة مسحوق أصفر. جمع برأس فتّاحة المظاريف قليلاً من المسحوق ونقله إلى شريحة زجاجية شُبكت مُسبَقاً بمنصّة المِجهر- بالطَّبَق المسطّح تحت العدسة. عدّل مرآةً تحت المنصة، وأمالها وفقاً لزاوية تسمح بانعكاس ضوء الشمعة عَبْر ثقب في المنصة وعَبْر الشريحة الزجاجية إلى العدسة. أثناء قيام شارلوك بالمراقبة، حاول عدم التنفس بقوة كي لا يُزيح المسحوق. حدّق البروفسور داخل المِجهر، بارماً عُجرات التعديل الدقيقة للحصول على الطول البؤري المناسب بهدف رؤية المسحوق بشكل أفضل.

«آه»، قال، ومن ثم، «أوم». وخلع قبّعته الحمراء، وحك رأسه، وأعاد وضع القبّعة حيث كانت.

«ما الأمر؟» همس شارلوك.

«لَقاح نَحل»، قال البروفسور. «أكيد».

«لَقاح نحل؟»كرر شارلوك، غير واثق ما إذا سمع بشكل صحيح أم لا.

«هل أجريتَ يوماً بحثاً عن النحل؟» سأل البروفسور، مُسنِداً ظهره إلى كرسيّه. «إنها مخلوقات فاتنة. أُوصيك بها إنها موضوع تحقُّق جدّي». ورفع نظارته وفرك عينَيه. «يجمع النحل اللَّقاح من الأزهار وينقله إلى القفير».

«ما هو اللَّقاح؟» سأل شارلوك، شاعراً بالخيبة على نحو غريب. «سمعتُ الكلمة من قَبل، ولكنني لم أكن واثقاً تماماً مما تعني».

«اللَّقاح»، قال البروفسور، «هو مسحوق مكوَّن من خلايا نباتية ناضجة بالغة الصِّغَر تُنتج الخلايا الذكَرية الناضجة، أو الخلايا التناسلية، للنباتات البزرية. ويُنتَج اللَّقاح من أعضاء التلقيح، أو أعضاء التلقيح الذكَرية، في الأزهار، وينقَل إلى أعضاء التأنيث، أو أعضاء التلقيح الأُنثوية، في زهرة أخرى ذات طبيعة مماثلة، بواسطة الريح أو حشرات تطوف بحثاً عن العلَف. هناك تنصهر لتشكّل بِزرة». وتفحّص نظارته، ثم أعاد وضعها على أنفه. حاول شارلوك فهم ما قاله البروفسور، ولكنه أدرك أن الرجل يتكلم ثانيةً. «في حالة النحل، يجمع اللَّقاح من الأزهار ويعيده إلى القفير في كُتَل أشبه بكُرة على قوائمه الخلفية. وما تجنيه النبتة من إفادة، بالطبع، هي أنه عندما تنتقل النحلة من زهرة إلى أخرى، توقع بعض اللَّقاح المأخوذ من عضو التلقيح في زهرة على أعضاء التأنيث في زهرة أخرى، مساعِدةً عملية التناسل. الآن، على القوائم الخلفية

العُليا للنحل شُعَيرات بالغة الصِّغَر تلعب دور سلّة حيث تلفّ النحلة ذَرّات غبار اللَّقاح وتمزجها مع رَحيق لتشكل كُرة. وهذا ما ندعوه «لَقاح النحل».

«وهل هو آمن؟».

«بالنسبة إلى معظم الناس، أجل، عِلماً أن لَقاح النحل يتسبب بحساسية جسدية لقِلَّة من الناس غير المحظوظين». وانحنى إلى الوراء وفكّر للحظات. «هل يمكن للحساسية أن تتسبب بهذه الأورام الشبيهة بالدُّمَّل التي وصفها السيد غروي في رسالته»؟. هممم، «أشك في ذلك. تميل ردود الفعل على اللَّقاح أن تكون أشبه بطَفْح جِلدي منها إلى دُمَّل، ومن غير المحتمَل العثور على شخصَين تمّ اختيارهما عشوائياً، كما هو مُفترَض، يعانيان من هذه الحساسية». فجأةً، ضرب الطاولة بيده، وجفل شارلوك. «بالطبع! أنا أتجاهل الجواب الواضح!».

«الواضح؟» فكّر شارلوك مليًّا. ما هو التفسير الواضح لأورام أشبه بدمامل في حالة النحل؟ وظهر إدراكه على صورة ومضة بَرْق. «لَسَعات!» صاح.

«أحسنتَ، يا فتاي. أجل، لَسَعات نَحل. لَسَعات مؤذية جداً، علاوةً على ذلك. لمعظم النحل في هذا البلد، على الأقل، لَسَعات تسبّب ألماً وتورّماً خفيفاً، ولكن ليس الدمامل التي وصفها السيد غروي». وألقى نظرة سريعة على شارلوك. «لا بد من أن تكون قد رأيتها أيضاً. كم كان حجم الدمامل؟».

رفع شارلوك يده اليمنى. «بحجم أنملة إبهامي تقريباً»، أجاب.

«يشير هذا الأمر إلى نوع عدائيّ جداً من النحل».

«كيف تعرف الكثير عن النحل؟». سأل شارلوك.

ابتسم البروفسور. «قلت لك إنني قضيتُ بضعة أعوام في الصين. يربّي الصينيون النحل منذ آلاف السنين، واكتشفتُ أن العسل يثمَّن عالياً من قِبَلهم بسبب فوائده الطبّية. وفقاً للسجلات الموجودة في المؤلَّف بنتساو قانغموأو خلاصة المواد الطبّيةالذي وضعه رجل يدعى لي شيتشن قبل ثلاثمئة عام، يملك العسل القدرة على تقوية الطِّحال، وتخفيف الألم، وإزالة المواد السُّمّية، وتخفيض حدة التكدّر، وإضفاء إشراقة على العين، وإطالة الحياة». وأشاح بنظره عن شارلوك في اتجاه الجدار، فتولّد لدى شارلوك الانطباع بأنه يتذكر أموراً حدثت منذ سنوات عدة. «هنا في بريطانيا العظمى، نحن معتادون على نحل العسل الأوروبي الوديع نوعاً ما، آبيس ملليفيرا. يُعتبر نحل الصخور الآسيوي، آبيس دورساتا، أكثر عدوانية ولسعته مؤلمة أكثر من سواها، ومع ذلك يربّيه الصينيون ويقطفون العسل من قُفرانه. بخلاف قُفراننا التي تتخذ شكل جرس، يستخدم الصينيون قُرَم شجر مجوَّفة أو سلالاً مُحاكة

بطريقة أسطوانية لتربية النحل فيها. أحياناً، يمكنك رؤية المزارعين الصينيين يحملون قُفرانهم إلى داخل الجبال، اثنَين اثنَين ويكونان معلَّقين على طرفَي عصا من الخيزران يضعونها بشكل متوازن على أكتافهم. أذكر مراقبتهم يتسلقون، والنحل يئزّ حولهم كسحابة دخان».

سحابة دخان. لقد صدمت الكلمات شارلوك كما لو أنه تلقّى ضربة بين عينَيه.

«هذاما كان عليه الحال»، وتنهّد.

«ماذا؟».

«رأيت ظِلاً يبتعد عن إحدى الجثّتَين، ورأى صديقي الأمر نفسه يخرج من نافذة حيث اكتُشفت الجثة الأخرى. لا بد من أن يكون نحلاً!».

أومأ البروفسور برأسه. «كانت صغيرة جداً بلا ريب لأنك اعتقدت أنها ظل، وربما تكون قاتمة اللون وليست صفراً فاتحة أو سوداً كنحلاتكم الكبيرة الطنّانة المعهودة. أعتقد أن هناك نحلاً أفريقياً أصغر حجماً وأسود، في الواقع. إنها عدوانية جداً أيضاً».

«هلاّ أسديتَني صنيعاً؟» سأل شارلوك.

«بالطبع».

«هلاّ كتبتَ رسالة لآميوس غروي تُخبره فيها عما تسبّب بوفاة هذين الرجلَين، برأيك؟ سأحملها معي إلى فارنهايم وأسلّمه إيّاها». وأشاح بنظره عن البروفسور، شاعراً باحمرار وجهه. «أعتقد أنني سأواجه مشكلة مع عمّي وزوجته عندما أعود، وقد تُنقذني الرسالة من العقوبة».

أومأ البروفسور برأسه. وأفرغ المسحوق الأصفر- على شارلوك أن يذكّر نفسه بأنه مسحوق أصفر غير مؤذٍ- عن ورقة الرَّق ووضعها على نشّافته. مدّ يده في اتجاه الدَّواة على طرف طاولته، وسحب ريشة كتابة وشرع يخطّ على ورقة الرَّق. كان خطّه عنكبوتيّ الشكل، ولكن شارلوك تمكّن من قراءة الكلمات.

عزيزي السيد غروي،

سرّني التعرّف إلى تلميذك -

«ما اسمك، أيها الشاب؟» سأل، ملتفتاً إلى شارلوك.

«هولمز، يا سيدي. شارلوك هولمز».

السيد شارلوك هولمز - الذي حمل لي عيّنة من مسحوق أصفر يقول إنه عثر عليه قرب الشخصَين المتوفّيَين السيّئَي الطالع اللذين وصفتَ وفاتهما لي في رسالتك التي وصلت هذا الصباح. بعد تفحّص المسحوق، وجدتُ أنه لَقاح نحل عادي، وهكذا أستنتج أن رجلَيك لم يُقتلا بسبب الطاعون الدَّبليّ أو أيّ مرض مماثل، بل بسبب لَسعات. إذا طلبتَ من طبيب محلّي فحص «الدمامل» المفترَضة، سيعثر برأيي على لَسعات صغيرة داخل كل دُمّل، أو على الأقل، على آثار خلّفتها هذه اللسعات. أوصي بهذا الشاب لأنه أحضر لي عيّنة المسحوق. لو لم يفعل، لَسرت شائعات بتفشّي حُمّى قاتلة في البلد، متسبّبةً بذُعر كبير.

أتطلّع إلى تجديد معرفتنا في وقت تجده ملائماً لك.

المُخلص

آرثر وينشكومب

طوى الورقة، ودسّها داخل مغلّف أخرجه من دُرج الطاولة، وأحكم إغلاق المغلف بنقطة شمع من الشمعة التي كان يستخدمها لإضاءة المِجهر، وسلّم شارلوك المغلف.

«أنا على ثقة بأن هذه الرسالة ستُنقذك من عقوبة أليمة جداً»، قال. «رجاءً، انقل احترامي لمدرّسك الخصوصي».

«سأفعل»، وتوقف شارلوك، ومن ثم واصل الكلام: «شكراً لك».

قرع البروفسور وينشكومب جرساً صغيراً موضوعاً على النشّافة قرب المِجهر. «سيرافقك رئيس خدمي إلى الخارج. إذا أردتَ معرفة مزيد عن الأمراض الاستوائية، وتربية النحل في الصين، لا تتردّد في الاتصال بي ثانيةً».

في الخارج، تفاجأ شارلوك عندما وجد أن الشمس لم تتحرك إلا بضع درجات في السماء. لقد بدا له أنه مكث في منزل البروفسور وينشكومب ساعات عدة.

كان ماتي جالساً على جدار الحديقة يتناول شيئاً ما من مخروط ورقيّ. «هل أنجزتَ ما جئت لأجله؟» سأل.

أومأ شارلوك برأسه، وأومأ في اتجاه المخروط الورقيّ. «ماذا لديك هناك؟».

«مَحارات وحَلَزونيات بحرية»، أجاب الفتى. وأمال فُتحة المخروط في اتجاه شارلوك. «هل تريد بعضاً منها؟».

داخل المخروط، رأى شارلوك كومة صَدَفات. «هل هي مطهوّة؟» سأل.

«مسلوقة»، أجاب ماتي بإيجاز. «عثرتُ على بَسْطة بائع سمك، كان يبيعها. جاء من بورتسماوث في الليلة السابقة، على الأرجح. لقد ساعدتُه لبعض الوقت في ترتيب الصناديق، وإحضار مزيد من الثلج والأغراض، فأعطاني هذه المخروط الورقي لقاء أتعابي». ومدّ يده إلى داخل المخروط وأخرج صَدَفة. واضعاً المخروط على الجدار، سحب من جَيبه سكيناً قابلاً للطيّ وأقحم رأسه المستدق داخل الصَّدفة، وحاول إخراج ما يوجد في داخلها. بعد ثوانٍ قليلة، سحب شيئاً ما قاتماً ومطاطياً، ومن ثم وضعه في فمه. «لذيذة»، قال، وأشرق وجهه. «لا تحصل على هذه الأشياء كثيراً ما لم تكن مقيماً قرب البحر. إنها وليمة نوعاً ما».

«أعتقد أنني سأترك لك مهمة تناولها»، قال شارلوك. «لِنذهبْ إلى المنزل».

هذه المرة، نزلا الشارع الرئيسي إلى النهر، ومن ثم سارا على امتداد ضفة النهر حتى عثرا على المركب الضيّق. كما سبق لماتي أن تنبّأ، كان المركب والحصان لا يزالان هناك. فتساءل شارلوك عن كيفية قيامهما بإدارة المركب الضيّق، ولكن ماتي قاد الحصان على امتداد الضفة في اتجاه البلدة حتى وصلوا إلى جسر عبره الحصان إلى الجانب الآخر، جارًّا مقدَّم المركب أثناء قيام شارلوك باستخدام خُطّاف المركب لمنعه من الاصطدام بضفّتَي النهر. بعد ذلك، عادوا أدراجهم ببطء، وشارلوك في مقدَّم المركب هذه المرة يحثّ الحصان على التقدّم، وماتي في المؤخَّر يُدير ذِراع الدفة.

تبادل الفتَيان أطراف الحديث أثناء سير المركب ببطء في اتجاه مجرى النهر. فأخبر شارلوك ماتي عن البروفسور وينشكومب وتفسيره المتعلق بالنحل واللّسعات. شك ماتي بالأمر أولاً، ولكن شارلوك أقنعه أخيراً بأن سحابة الموت لا تتحمّل تفسيراً خارجاً عن الطبيعة. بدا ماتي عالقاً بين ارتياحه بسبب عدم تفشّي الطاعون في فارنهايم، وبين انزعاجه من التفسير العادي. لم يقل شارلوك أي شيء، ولكن أثناء سفرهما ازداد اقتناعاً بأنهما لم يحلاّ لغزاً إلا ليكشفا عن آخر. لماذا لسع النحل هذَين الرجلَين دون سواهما في مكانَين مختلفَين؟ ما سبب وجود نحل أفريقي في إنكلترا في المقام الأول؟ وما علاقة كل ذلك بالمستودع، والصناديق التي حُمّلت على متن عربة النقل من قِبَل الأشرار والبارون المُبهَم؟

بعد قليل، أدرك شارلوك انضمام حصان آخر إلى حصانهما على ضفة النهر. إنه فَحل خَيل أسود برّاق مع بقعة بنّية على عُنُقه، وفرجينيا غروي على صهوته، ولا تزال ترتدي بنطالاً قصيراً للفروسية وبلوزة، وسترة.

«مرحباً!» نادى شارلوك. فلوّحت له بالمِثل.

«يا ماتي، هذه فرجينيا غروي»، نادى فوق كتفه. «يا فرجينيا، هذا ماثيو آرنات. ماتي».

أومأ ماتي برأسه لفرجينيا، وأومأت له برأسها بالمِثل، ولكن أيًّا منهما لم يَقُل شيئاً.

وقف شارلوك للحظات في حالة من التوازن غير الآمن على مَرنحة المركب، شاعراً بترجحه تحته، وقفز إلى الضفة، وأمسك ياقة حبل حصان ماتي واقتاده إلى الأمام، سائراً بمحاذاة فرجينيا وحصانها.

«هذا ألبرت»، قال أخيراً.

«هذا ساندیا»، أجابت فرجينيا. «يُفترض بك حقاً تعلُّم امتطاء الجياد».

هزّ شارلوك رأسه. «لم تتسنَّ لي الفرصة مطلقاً».

«الأمر بسيط، ولكنكم تُحدِثون دائماً جَلَبة حيال مدى صعوبة الأمر. قُد بركبتَيك وليس بالرَّسَن. استخدم الرَّسَن لإبطاء الحصان».

لم يستطع شارلوك التفكير في جواب ملائم لذلك. وواصلا السير بصمت مُربِك لبعض الوقت.

«أين كنتَ؟» سألت فرجينيا أخيراً.

«في غيلدفورد. هناك شخص أردت رؤيته». بحث في سترته وأخرج الرسالة التي كتبها البروفسور وينشكومب. «أنا بحاجة إلى تسليم هذه الرسالة لوالدك. هل تعرفين أين هو؟».

«ما زال يبحث عنك. يُفترض بك الحصول على درس».

ألقى شارلوك نظرة سريعة عليها للتحقق مما إذا كانت جدّية، ولكن كانت هناك ابتسامة خفيفة على شفتَيها. ونظرت إليه، وأدار وجهه.

«أعطني الرسالة»، قالت. «سأحرص على تسليمها له».

مدّ يده لتسليمها الرسالة، ثم سحبها. «إنها مهمة»، قال بتردّد. «يتعلق الأمر برجلَين تُوُفّيا».

«إذاً، سأحرص على تسليمها له على الفور». وأخذت الرسالة من يده الممدودة. لم تلمس أصابعُها أصابعَه، ولكنه تخيّل شعوره بحرارتها عندما مرّت أصابعُه قرب أصابعها. «مات هذان الرجلان بسبب الطاعون، أليس كذلك؟ هذا ما يقول الناس».

«ليس الطاعون. النحل هو السبب. لهذا السبب، تعيّن عليّ الذهاب إلى غيلدفورد. كنت بحاجة للتحدث إلى خبير في الأمراض». لقد أدرك أنه يتكلم بسرعة أكبر، ولكنه لم يتمكن من منع نفسه عن الكلام، كما يبدو. «عثرتُ على مسحوق أصفر قرب الجثّتين. أردت شخصاً يكشف لي عن ماهيّته، لذلك أخذت بعضاً منه إلى غيلدفورد. تبيّن أنه لَقاح. لهذا السبب اعتبرتُ أن النحل مسؤول عن موتهما».

«ولكنك لم تكن تعرف ذلك عندما عثرتَ على المسحوق»، أشارت فرجينيا.

«لا».

«أم عندما جمعتَ المسحوق وحملتَه إلى غيلدفورد».

«لا».

«كل ما كنتَ تعرفه هو أنه ربما يكون شيئاً ما تسبّب بالطاعون، شيئاً معدياً».

شعر شارلوك بأنه وُضع في الزاوية. «أجل»، قال، وخرجت الكلمة من فمه على النحو التالي «أ - ج - ل».

«إذاً، لقد جازفتَ بحياتك استناداً إلى اعتقادك بأن الكل مخطئون وأن باستطاعتك أن تُثبت أنهم على خطأ».

«أفترض ذلك». وشعر بحرَج كبير. إنها مُحِقة، كان بلوغ قَعر اللُّغز أكثر أهمية له من سلامته الخاصة. ربما كان مخطئاً، لم يعرف الكثير عن الأمراض أو كيفية انتقالها. ربما كان المسحوق الأصفر شيئاً ما فرزه جسدا الرجلَين بسبب المرض، كالبشرة الجافة المُصابة بمرض، شيئاً ما كان يحتوي على المرض ونقله إليهما. كان مستغرِقاً بحلّ أُحجية لدرجة عدم التفكير في ذلك.

وتواصلت بقيّة رحلة العودة إلى فارنهايم بصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

«لقد خيّبتَ ظنّي، أيها الفتى».

كان شرينفورد هولمز جالساً إلى الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب السنديان في قاعة المطالعة، في حين كان آميوس غروي واقفاً وراء كتفه اليسرى، والسيدة إيغلانتين واقفة وراء كتفه اليمنى، بملابسها السوداء المنسجمة بشكل جيد مع الظلال لدرجة رؤية وجهها ويدَيها فقط.

كان وجه شارلوك الغاضب يتوهّج خجَلاً. أراد الاعتراض لأنه فعل ما فعل لأسباب وجيهة، ولكن نظرة واحدة إلى وجه عمّه أفهمتْه بأن الجدل غير مفيد. «آسف، يا سيدي»، قال بعد مرور لحظات طويلة، وأدرك أن عمّه ينتظر جواباً. «لن أكرّر ذلك».

«عَهِد بك والدك - شقيقي - إلى عنايتي، وكان هناك اتفاق على أن أواصل تربيتك الأخلاقية وأحول دون اتخاذك رِفقة سوء أو اتّباع أساليب سيّئة. أشعر بالخِزي عندما أجد أنني أخفقت في تَينك المهمّتَين».

وكان هناك توقف طويل آخر، فشعر شارلوك بأنه مُرغَم للقول ثانيةً إنه آسف، ولكن شعوراً انتابه بأن تكرار نفسه سيُعتبر دلالة على وقاحته. «أعرف أنه لم يكن يُفترض بي قطع كل تلك المسافة إلى غيلدفورد بمفردي»، قال أخيراً.

«هذا أقلّ تجاوزاتك للحدود»، أعلن العم شرينفورد. «في هذا الصباح بالذات، تسلّلتَ خارج المنزل قبل شروق الشمس كمجرم عاديّ...».

«لم ينم في سريره»، قاطعت السيدة إيغلانتين. «لا بد من أن يكون قد غادر قبل منتصف الليل».

شعر شارلوك بكتفَيه ترتجفان بسبب الجهد الذي بذله للسيطرة على غضبه. هو يعرف أنها تكذب، فقد نام بضع ساعات وغادر قبل الفجر تماماً، ولكنه لم يستطع تكذيبها بالرغم من رغبته الشديدة في إخبار الحقيقة. هي تحاول إدخاله في المتاعب أكثر فأكثر، وسيُعتبر الدخول في جدال معها تحدّياً، ويعاقَب على هذا الأساس.

«سأراسل شقيقك»، تابع شرينفورد، «لأقول له إنك خنت ثقتي بك. ولن يُسمح لك بمغادرة هذا المنزل في الأسبوع القادم».

«إذا سمحتَ لي»، تشدّق آميوس غروي في الكلام وراء شرينفورد، «أرغب في قول كلِمة أو اثنتَين لصالح الفتى». ومدّ يده إلى داخل سترته البيضاء

وأخرج مغلّفاً. «إن الرسالة التي حملها الفتى من البروفسور وينشكومب الشهير هدّأت المخاوف من تفشّي طاعون دَبْليّ في المنطقة. إن أخذ تلك العيّنة من اللّقاح ليتمّ تمييزها هو دليل على إرادة قويّة، تحوُّل في الذِّهنية، وتردُّد في الثقة بالأمور، كلها سِمات يُفترض تشجيعها، أودّ القول...».

«هل تقترح إفلات الفتى من العقوبة، يا سيد غروي؟» سألت السيدة إيغلانتين بصوت ناعم كالحرير.

«لا أبداً»، أجاب غروي. «أودّ أن أقترح بدلاً من منعه من مغادرة المنزل كليًّا، أن تسمحوا له بالمغادرة معي فقط. بتلك الطريقة أواصل دعم الاتفاق الذي أبرمتُه مع شقيقه».

فكّر شرينفورد هولمز مليًّا للحظات، مملِّساً لحيته بيده اليمنى. ثم أعلن: «جيد جداً، سنتوصل إلى تسوية. تلازم هذا المنزل بقيّة هذا اليوم واليوم التالي. بعد ذلك، تلازم هذا المنزل في كل الأوقات إلا عندما يقوم السيد غروي بتدريسك. وعندما تكون في المنزل، عليك البقاء في غرفتك إلا في مواعيد تناول وجبات الطعام». واختلجت شفتاه. «ولكنني سأسمح لك بأخذ أي كتاب من مكتبتي لتمرير الوقت. استخدمه بحكمة لتحسين نفسك وللتفكير مليًّا في تصرفاتك».

«سأفعل، يا سيدي»، قال شارلوك، مُرغَماً على إخراج الكلمات من فمه. وتراجعت حدّة التوتر في كتفَيه إلى حدٍّ ما. «شكراً لك، يا سيدي».

«الآن اذهب، ولا تَعُد حتى العشاء».

استدار شارلوك وغادر قاعة المطالعة. أراد الجدال بيأس ليشير إلى أن ما قام به صائب، ولكنه يعرف عالَمَ البالغين بما يكفي ليُدرك أن الجدال سيزيد الأمور سوءاً. لا أهمية للصواب. ما يهمّ هو الانصياع للقوانين.

صعد إلى الطابق الأول على السلّم العريض المكسوّ بسجاد، ثم إلى الطوابق الخشبيّة الأضيق حيث غرفته بجانب الإفريز. استلقى على سريره، محدّقاً إلى السقف، والأفكار تتنازعه.

مرّت بقيّة ذلك اليوم واليوم التالي بأكمله بطريقة مشوَّشة. اغتنم جسد شارلوك، المتعَب بسبب مغامراته، الفرصة لإصلاح ذاته من خلال أكبر قدْر ممكن من النوم العميق، ولكن عندما يكون مستيقظاً يجد أن أفكاره ترفرف على غير هدى كفراشات ليلية حول شمعة. ماذا يحدث؟ ما الذي يخطط له البارون موبرتْوي بالتحديد، ومن سيوقفه؟

قضى شارلوك بعض الوقت محاولاً صياغة رسالة في رأسه لشقيقه، ليس لأنه يتوقع قيام مِايكرِوفت باتخاذ إجراء ما، بل لأنه يريد إخبار شخص ما يثق

به بما يحدث. أخيراً، عندما وجد الصيغة بالطريقة التي يريد، وضعها على الورق.

عزيزي مايكروفت،

ليتني أستطيع أن أقول لك إنني أقتدي بنُصحك، وأنكبّ على مزيج من الدراسات في مكتبة العمّ شرينفورد ونُزهات في الريف المحلي، ولكن يبدو أنني أدخلت نفسي في متاعب ولا أعرف ما يتعيّن عليّ القيام به. يتمثل الخبر الجيد - إذا كان خبراً جيداً - بأنني اتخذت لي صديقَين يدعى أحدهما ماثيو آرنات، ويعيش على متن مركب ضيّق في القناة. أعتقد أنه سيروق لك. والصديق الآخر هي فرجينيا غروي. إنها ابنة آميوس غروي الذي يقول إنه يدرّسني الطبيعة وكيفية الحفاظ على العالم من حولي، ولكنني أعتقد أنه يدرّسني في الواقع كيفية التفكير. ليتك لم تعتقد أنه من الضروري إيجاد مدرّس خاص لي أثناء الإجازات، ولكنه الأفضل، كما أعتقد، من بين كل المدرّسين الخصوصيين الذين قد تجدهم.

حدثت أمور غريبة هنا في فارنهايم، وليتني أستطيع مكالمتك في شأنها. لقد عُثر على جثة رجل في البلدة، مكسوّة بدمامل، وعُثر على جثة أخرى هنا في الأرض التابعة لعزبة آل هولمز. اعتقد سكان البلدة أنه ربما يكون داء الطاعون، ولكن رجلاً يدعى البروفسور وينشكومب أثبت أنهما قُتلا بمئات لَسَعات النحل. أعتقد أن النحل مرتبط بطريقة ما برجل يدعى البارون موبرثْوي الذي يملك مستودعاً في فارنهايم، ولكنني لا أعرف ماهيّة الرابط.

لقد أُضرمت النار بالمستودع، ودُمّر كل دليل. سأطلعك على كيفية حدوث ذلك عندما أراك.

باختصار، الحياة هنا أكثر إثارة للاهتمام مما توقّعتُ، عندما يُسمَح لي بالخروج من المنزل. أنا محجوز الآن في غرفتي بسبب توجّهي إلى غيلدفورد لرؤية البروفسور وينشكومب، ولكنها قصة أخرى سأطلعك عليها عندما أراك.

هل هناك أي جديد عن والدي؟ هل لا يزال في طريقه إلى الهند، وهل تملك أي معلومات إضافية عن تاريخ إمكانية انتهاء المشاكل؟

أَبلغ حبّي لوالدتي وشقيقتنا. رجاءً، قُم بزيارتنا قريباً.

شقيقك،

شارلوك

بعد إنهاء الرسالة وتجفيف الحبر بالنشّافة، تركها على الطاولة في الرَّدهة، عند موعد الغداء، كي تقوم خادمة بتسليمها لمكتب البريد في فارنهايم.

وعندما نزل ثانيةً لتناول العشاء، وجد أن الرسالة اختفت. كانت السيدة إيغلانتين تعبر الرَّدهة، وبدا وجهها طافياً في الظلال، فابتسمت له بانقباض. هل رأت الرسالة؟ هل قرأتها؟ هل نُقلت إلى مركز البريد أم أُتلفت؟ فقال شارلوك لنفسه إنه أحمق- ما الأسباب التي تدعوها للقيام بذلك؟- ولكن تحذير مايكروفت تردّد في رأسه. ليست صديقة لعائلة هولمز.

استلقى في غرفته، واصلت هذه الأفكار تبادرها إلى ذهنه. لقد أيقظه ناقوس العشاء البعيد من غَفوة جزئية، وتوجّه إلى الطابق الأرضي. كانت السيدة إيغلانتين تغادر غرفة الطعام للتوّ، فألقت نظرة سريعة عليه وعلى شفتَيها أمارة استهزاء، وابتعدت.

لم يكن شارلوك يشعر بالجوع. حدّق إلى الأرض للحظات، محاولاً حمل نفسه على تناول شيء ما للمحافظة على قوّته ليس إلا، ولكنه أخفق. فاستدار وشرع بالتوجه إلى المكتبة للتحقق مما إذا كان باستطاعته العثور على كتب عن النحل أو تربية النحل.

عندما وصل إلى وسط الرَّدهة، لاحظ وجود رسالة على الطبَق الفضّي على الطاولة الجانبية. ألم تكن هناك من قَبل، أم أنه لم يلاحظها فحسب؟ للحظة من الزمن، اعتقد أنها رسالة أخرى من مايكروفت، لذلك التقطها. كان اسمه على الناحية الأمامية للمغلّف مع عنوان منزل عزبة آل هولمز، ولكنه ليس خط مايكروفت. إنه أكثر استدارة، أكثر... أنثوية. كيف ذلك؟

نظر شارلوك من حوله، مقتنعاً نوعاً ما بأنه سيجد السيدة إيغلانتين واقفة في الظلال، تراقب، ولكن الرَّدهة فارغة إلا منه. تناول الرسالة، وفتح الباب الأمامي، ووقف في ضوء شمس المساء الباكر، ولكن في المدخل، كي لا يُتّهم بمغادرة المنزل.

كانت هناك ورقة واحدة في الداخل بلون الخُزامى، كُتب عليها تحت اسمه وعنوانه ما يلي:

شارلوك،

سيُقام معرض على المَرج التابع للقلعة. ستجدني هناك غداً عند الساعة التاسعة صباحاً، إذا كنتَ تجرؤ.

تعالَ بمفردك

فرجينيا

شعر بدُوار للحظات، وأخذ نفَساً عميقاً. أرادت فرجينيا رؤيته؟ ولكن لماذا؟ في المناسبتَين اللتَين التقيا فيهما، تولّد لديه الانطباع بأنه لا يروق لها كثيراً.

لم يقل أحد منهما أي شيء للآخر بالتأكيد. ومع ذلك، فهي تريد أن تلتقيه... وبمفرده؟

ولكنه لا يستطيع الذهاب! لقد مُنع من مغادرة المنزل!

تسارعت الأفكار في عقله، محاولاً تقديم تبرير يسمح له بالخروج من المنزل في صباح اليوم التالي دون الوقوع في متاعب. لا بد من وجود حجة منطقية تحظى بموافقة العم شرينفورد بعد التدقيق فيها. لقد طلبت منه فرجينيا لقاءها. من الشيء القليل الذي يعرفه عنها، يمكن الاستنتاج أنها أكثر استقلالاً من الفتيات الإنكليزيات اللواتي في سنّها. هي تجيد امتطاء حصان - بشكل مناسب وليس فقط على سَرج جانبي - وباستطاعتها امتطاءه بمفردها. ولكن إذا كانت إنكليزية، ما كانت لِتذهب إلى المعرض بدون عائلتها. يعني ذلك أنه من المنطقي لشارلوك تفسير الرسالة بأنها دعوة للقائها ووالدها، ما يعني أن باستطاعته مغادرة المنزل دون انتهاك شروط الاتفاق مع عمّه. لن يصدّق شرينفورد أن باستطاعة فتاة تدبّر أمر لقاء فتى دون حضور عائلتها. لكن إذا واجه شارلوك تحدّياً، فهو لن يُفشي السر.

حيّرته فكرة آنيّة - ماذا لو رآه شخص ما من منزل عزبة آل هولمز في المعرض؟ - ولكن فكرة إضافية أقنعته بأن أيًّا من عمّه وزوجته، أو السيدة إيغلانتين، لن يكون هناك على الأرجح، وإذا كان هناك أيّ من الخادمات، أو الطهاة، أو العمّال، فهم لن يعرفوه على الأرجح.

لقد قضى بقية المساء وقسماً كبيراً من الليل يقنع نفسه تارةً بوجوب ذهابه في الصباح الباكر، وطَوراً بعدم ذهابه. في الصباح، لم يكن قد اتخذ قراراً بعد، ولكن أثناء نزوله الدَّرَج لتناول الفطور، وجد نفسه يفكر في وجه فرجينيا، فقرّر الذهاب. لقد أراد الذهاب حقاً.

تحقّق من الوقت على ساعة الجَدّ. لقد تخطى الوقت الثامنة بقليل. إذا انطلق الآن واستخدم الدراجة الهوائية، يمكنه الوصول إلى هناك في الوقت المحدّد تقريباً. هو يعرف مكان القلعة - جاثمة على تلة فوق البلدة - وعرف أن الأرض المُشاعة مَرجٌ على مسافة قصيرة تحت القلعة.

هل يُفترض به ترك رسالة؟ بعد الأحداث الأخيرة، اعتبر أنه ربّما من الحكمة القيام بذلك، لذلك كتب على عَجَل شرحاً سريعاً على ظهر المغلف، قائلاً إنه ذاهب لرؤية آميوس غروي، ووضعه على الطبَق الفضّي، ومن ثم سار وركض في آن إلى حيث ترك الدراجة، مخفضاً رأسه أسفل النوافذ أثناء مروره أمامها، ومختبئاً وراء الجدران كلما أمكن.

أثناء توجّهه إلى المعرض، كان عقله مشوَّشاً بأفكار وتوقعات. لم يسبق له في الواقع، أن حظي بصديقة. هناك شقيقته، بالطبع، ولكنها أكبر سنًّا منه، واهتماماتها مختلفة- رسم، كروشيه، عزف على البيانو. وهناك، بالطبع، مرضها الذي أبقاها معزولة وطريحة الفراش في فترات طويلة من طفولة شارلوك. لم يسبق له أن صادق أحداً في المنطقة المحيطة بمنزل والدَيه، فكيف بالفتيات، وكانت ديبدن مدرسة للفتيان. لم يكن واثقاً تماماً من كيفية التصرف مع فرجينيا، والمواضيع التي يتعيّن التطرق إليها، وكيفية التصرّف.

دخل فارنهايم بالدراجة، وسلك طريقاً جانبياً يتوجه إلى أعلى التلة في اتجاه القلعة التي رآها جاثمة فوق البلدة. ناضل حتى بدأت ساقاه تؤلمانه، ثم نزل عن الدراجة وسار، دافعاً إيّاها بجانبه. عندما وصل إلى الأراضي التابعة للقلعة، كان مُنهَكاً.

رأى شارلوك مقطعاً عَرْضياً للحياة البشرية: أشخاص منتشرون في المَرج المضاء بشمس الصباح. وعلى غرار بلدة مصغَّرة بكل معنى الكلمة، نُصبت المقصورات والحلْقات المحاطة بحبال على جانبَي الممرات المُعشوشبة والعريضة حيث يتجوّل الناس ويشيرون إلى المناظر الطبيعية. كان هناك ضباب رقيق من الدخان فوق كل شيء، وشعر شارلوك برغبة في حك أنفه بسبب روائح اللحم المَطهوّ، ورَوث الحيوانات، والناس. وهناك مناطق للاّعبين البارعين، والملاكمة، والمبارزة بالقضبان، وقتال الكلاب. ويبيع النصّابون عقاقير لا أحد يعرف ممّا هي مصنوعة، ويدسّ آكلو النار فحماً مشتعلاً على شوكة معدنية داخل أفواههم، وينتظر السكان المحليّون جائزة القبّعة بوجوه هزلية الشكل، ويتبارون على جائزة قميص نوم، وعلى جائزة مالية يحصل عليها من يستطيع تناول أكبر قَدْر من البودِنغ.

تفرّس بالحشد، باحثاً عن شعر فرجينيا النحاسيّ المميَّز، ولكن كان هناك عدد كبير من الأشخاص ولم يتمكن من تمييزها. لم تحدِّد أين يلتقيان، لذلك تمثّلت خياراته الوحيدة بالانتظار والأمل في القدوم إليه، أو شق طريقه بين الحشد والبحث عنها. لم يسبق له أن أجاد الانتظار.

بقليل من الاضطراب، ترك شارلوك دراجته متكئة على سياج عند أحد جوانب حظيرة الخيول. لم يكن واثقاً تماماً من عثوره عليها هناك عَندما يعود، ولكن تجمهر الناس يعني أنه لن يتمكن من اصطحابها معه.

أول ما صادفه أثناء سيره عبر المَرج برميل كبير مليء بالماء حتى الحافة، والناس متجمعون حوله ضاحكين، وهم يحثّون أحدهم على الاشتراك. بدت صفحة الماء تغلي، مما حدا بشارلوك للاشتباه بطهو شيء ما، ولكن لم تكن هناك نار تحته. حاول شاب صغير ونحيل يضع مِنديلاً مبقَّعاً حول عُنُقه التأثير

في فتاة زهريّة الوجنتَين ترتدي فستاناً أبيض وتقف بجانبه. سلّم قطعةَ نقود معدنية للرجل الذي يملك البرميل كما يبدو، وأمسك الجوانب بيدَيه ورمى برأسه بشكل مفاجئ داخل الماء.

لهث شارلوك، غير مقتنع تماماً بأن الماء يغلي، ولكن أي أذى لم يلحق بالفتى كما يبدو. كان يحرّك رأسه في الماء من جَنب إلى آخر، باحثاً عن شيء ما، دافعاً رأسه إلى الأمام كل بضع ثوانٍ ومن ثم ساحباً إيّاه إلى الوراء. أخيراً، سحب رأسه بكامله، وسال الماء على وجهه وعُنُقه وصولاً إلى ملابسه، دون أن يأبه بذلك كما يبدو، وقبض على شيء ما بأسنانه، شيء ما فضّي يتلوّى بهياج، محاولاً الفرار. للحظات، لم يتمكن شارلوك من معرفة ماهيّته، ولكنه عرفه بعد ذلك. إنه أنكليس أطول بقليل من إصبع الإنسان. تابع شارلوك سيره مندهشاً، فقد سبق له أن سمع بصيد التفاح، ولكن صيد الأنكليس؟ أمر لا يصدَّق.

«شاهِدوا الخروف الأكثر تميُّزاً في العالم!» صاح مُنادٍ من أمام مقصورة. «شاهِدوا خروفاً بأربع قوائم مع نصف قائمة إضافية. لن تشاهدوا خروفاً آخر مماثلاً!» ووقع نظره على نظر شارلوك أثناء مروره أمامه. «أنت، يا سيدي الشاب، شاهد المنظر الأكثر إذهالاً على أرض الله الخضراء. لن تنساه أبداً. ستُصغي الفتيات إلى كل كلمة تقولها عندما تصف الخروف المدهش ذا القوائم الأربع ونصف قائمة إضافية».

ومرّ أمام مقصورة يجري في نافذتها استعراض لدُميتَين، ويقوم شخص مختبئ داخل المقصورة بتحريكهما. ورأسا الدميتَين خشبيّتان مع أنفَين وذقنَين مبالغ فيها، وملابسهما مصنوعة من شرائط برّاقة. أثناء قيام شارلوك بالمراقبة، أسندت دمية رأسها إلى حافة النافذة، وقامت الدمية الأخرى بقطعه على الفور بفأس بالغة الصِّغَر، فوقع الرأس وانفجرت الشرائط الحمراء البرّاقة، مُحاكيةً تدفّق الدم. فابتهج الحشد ولوّحوا بقبّعاتهم.

كانت هناك بِركة في أحد جوانب المعرض يقوم رجل يرتدي صَدرية ملوَّنة برّاقة، ويعتمر قبّعة رسمية، برمي بطة فيها، وقد رُبطت ساقها بكرة حديدية وحبل رفيع يمنعها من الطيران بعيداً. وحول حافة البِركة كلاب رُبطت بحبال ومقاود جِلدية، مزمجرةً ومكشِّرةً عن أسنانها واللعاب يسيل من فمها. شاهد تبادل المال بين أفراد الحشد، وانتاب شارلوك شعورٌ رهيب عندما أدرك ماذا سيحلّ بعد ذلك. رجع الرجل الذي يرتدي صَدرية خطواتٍ إلى الوراء، ورفع يده، فلزم الحشد الصمت مترقِّباً. ضاعفت الكلاب جهودها للتحرّر من رباطاتها، وكانت زمجرتها كافية لجعل الأرض تهتزّ. وقعت يد الرجل إلى خصره، وأُطلق سراح الكلاب، وغطست في البِركة في كتلة واحدة، محاولةً الإمساك بالطائر المبطبِط، ومطلقةً رذاذ الماء في كل مكان. مذعورة،

رفرفت البطة على صفحة الماء إلى الأمام والوراء بقدْر ما يسمح لها الحبل والكرة الحديدية بالتحرك، متفاديةً وثَبات الكلاب. من جهتها، تجنّبت الكلاب الابتعاد إلى داخل البِركة حيث المياه عميقة، باستثناء كلب تَرْيِر شجاع عَبَر البِركة، مطارِداً البطة. فأشاح شارلوك بنظره قبل أن يغرز الكلب أسنانَه في عُنُق البطة. يمكن الاستغناء عن مشاهدة هذه النهاية وعدم معرفة المالك الذي سيفوز بالجائزة.

شعر شارلوك بجيشان في النفس وانصرف.

ومرّ أمام بَسْطات تبيع نقانق ساخنة وتفّاحاً بارداً مكسوًّا بالطوفي ومغروساً بعيدان، وبسكويتاً بنكهة البرتقال، ولحمٍ رقيق محمَّر ومملَّح. لم يكن واثقاً إذا كان الشعور الذي انتابه في معدته جوعاً أو عصبية مِزاج، أم كلاهما.

غدا الحشد أكثر كثافة وصَخَباً، وشعر شارلوك بأنه مدفوع من الوراء، وكان الناس من حوله يُطلقون صيحات تهكّم ويتأفّفون. ارتفع صوتٌ صائحاً: «من سيتغلّب على البطل الذي لم يُهزَم بعد؟ من يملك شجاعة التحرّش بِنات ويلسن، أُعجوبة كِنسال غرين؟ تُصبح سيّداً إذا فزتَ، ولا تنال سوى استهزاء وسخرية إذا خسرتَ!» وكبا على ركبة واحدة. رفع نفسه على قدمَيه، فقد تعرّض لضربة أزاحته جانباً. لقد اصطدم بشيء صلب بظهره، فاستدار ووجد نفسه فجأةً في مقدَّم الحشد. أما الشيء الذي تعثّر به فعمود خشبي، وهو أحد الأعمدة الأربعة التي تحدد زوايا المربَّع. لقد رُبطت حبال بين الأعمدة، وفي وسط الحَلبة رجل لا يرتدي سوى بنطال قصير جِلديّ، متّخذاً وضعية أمام الحشد ومومئاً إليه، وصدره وذراعاه مفتولا العضلات. وهناك رجل آخر بِبذلة مكسوّة بالغبار، وعلى رأسه قبّعة هومبورغ، يحدّق إلى شارلوك مباشَرةً.

«لدينا متحدٍّ!» صاح. فصفّق الحشد.

حاول شارلوك الخروج من الحلَبة، ولكن الناس كانوا يدفعونه من الخلف. وقامت أيدٍ بإبعاد الحبال بعضها عن بعض لتشكيل فجوة دُفع شارلوك عبرها إلى فسحة مُعشوشِبة مسيَّجة.

«لا!» صاح، مُدركاً أنه أصبح متحدّياً بطريقة ما. «لا...».

واندفع المنادي في اتجاهه. «قواعد بروتون القياسية»، صاح بإيقاع. «لا حَشوات ولا مِلكمات. كل شيء مسموح باستثناء ضرب الرجل عندما يقع أرضاً. عندما يقع رجل أرضاً، يُمنح ثلاثين ثانية ليرتاح، وثماني ثوانٍ إضافية للوصول إلى نقطة الانطلاق. ينتهي القتال عندما يعجز أحد الرَّجلين عن الوقوف». وألقى نظرة سريعة على شارلوك الذي ينظر من حوله بشكل

عشوائيّ، محاولاً العثور على فجوة في الحشد يمكنه الفرار عبرها. «أيها الفتى»، تمتم، «أجزم بأنك لن تصمد أكثر من دقيقة واحدة بدون مساعدة. إذا تمكنتَ من الصمود خمس دقائق، سأضاعف الجائزة. علينا الترفيه عن المراهِنين».

«لا يُفترض بي أن أكون هنا!» اعترض شارلوك.

«تأخر الوقت قليلاً على ذلك»، أجاب المنادي.

«ولكنها صُدفة!».

«لا»، ابتسم الرجل، كاشفاً عن أسنان سوداء تالفة. «إنها مجزرة».

وتوجّه المنادي إلى جانب الحَلبة حيث أَبعد مزيد من الناس الحبال بعضها عن بعض ليخرج. وحاول شارلوك أن يتبعه، ولكن الحبال عادت إلى مكانها، وأطلق الرجال والنساء والأطفال صيحات تهكّم أثناء دُنُوّه. ورُميت حجارة عليه جعلته يتراجع إلى وسط الحَلبة.

تقدّم المصارع الآخر بخطوات واسعة، وجالت نظرته المحدّقة على الحشد، مجتذباً تصفيقهم. إنه أطول قامة من شارلوك بنحو ست بوصات، وصدره أعرض من صدره، ويداه تبدوان كحقيبتَين جِلديّتَين مُلئتا جَوزاً. «إلى نقطة الانطلاق»، همهم.

«ماذا؟».

أشار المقاتل إلى خطَّين متوازيَين أُحدِثا في العشب يفصل بينهما ثلاث أقدام. «أنت تقف وراء خط، وأنا أقف وراء الخط الآخر. عندما يُقرع الجرس، نتقاتل. هكذا تجري الأمور».

«لا أريد القتال»، اعترض شارلوك.

«إنه خيارك، يا فتى»، قال المقاتل بحِدّة. «مع ذلك، لا يزال يتعيّن عليّ جعل المعركة تدوم خمس دقائق، وسيبدو رأسك كلَحم مفروم إذا لم تَحْمِ نفسك». ونظر إلى شارلوك بطريقة متفحّصة وأضاف: «وربما سيبدو رأسَك كذلك حتى وإن حميتَه». ودفع شارلوك في اتجاه الخط الأقرب في العشب. «ارفع يدَيك، احمِ وجهك، وواصل الوقوف. إذا وقعت، سأركلك حتى تقف ثانيةً».

قال الحكَم: «كما أعتقد، إن ضرب الرجل عندما يقع أرضاً ممنوع».

فهز المقاتل كتفَيه. «لم يقل أي شيء عن الركل».

انتقل شارلوك إلى موقعه غير مصدِّق. ووقف المقاتل على الخط الآخر منتعِلاً جزمة. فألقى شارلوك نظرة من حوله، باحثاً عن شخص ما، أي شخص يمكنه

تقديم المساعدة، ولكن الوجوه التي تُبادله النظرة مُحمَرّة، متعرّقة، ومَلويّة بسبب السلوك العُدوانيّ. لا مَخرج له.

قُرع جرس.

خطا شارلوك إلى الوراء عندما مرّت قبضة خصمه أمام أنفه. ورفع يدَيه للدفاع عن نفسه، متراجعاً مع تقدُّم الرجل الآخر. وهدر الحشد. سبق له أن رأى صور ملاكمين في كتب، وشاهد بضعة قتالات في قاعة ديبدن الرياضية، لا بل شارك ببعض الملاكمات أيضاً، فاتّخذ الوَضعية التي تَذكّر - يدان مكوَّرتان ومرفوعتان أمامه - ولكن من الواضح أن خصمه لم يقرأ الكتب نفسها، فتحرّك بثقل إلى الأمام، مرجّحاً ذراعَيه جانبياً على مستوى الكتف. تلقّى شارلوك ضربة على كتفه اليسرى - التي ألحق بها كليم الأذى في تلك الليلة - وشعر بألم شديد ينسكب على ذراعه كمعدن سائل، ووقعت يده على جَنبه وأصبحت عديمة النفع. كيف حدث ذلك؟ منذ دقيقة واحدة فقط، كان مجهولاً بين الحشد، وها هو الآن مركز الاهتمام! لقد بدا الأمر تقريباً كما لو أن شيئاً ما، شخصاً ما، يوجّه الحشد، دافعاً إيّاهم إلى هذه اللحظة بالذات.

دنا المقاتل الآخر، مستعدًّا لتوجيه لكمة إلى الأعلى على وجه شارلوك، فخطا شارلوك إلى الوراء وانهال عليه بقبضته اليمنى، مسدِّداً ضربة قوية إلى أنف الرجل بشكل لا يصدَّق. شعر بطقطقة شيء ما تحت أصابعه، وسال الدم على ذَقن الرجل وصدره. تراجع المقاتل الآخر إلى الوراء وزفر بشكل متفجِّر، مبلِّلاً قميص شارلوك دماً، ثم وجّه لكمة بيده اليمنى إلى صدر شارلوك مباشَرةً. دفع الاصطدام شارلوك إلى الوراء، وشعر بألم كبير في أضلعه. للحظات، اعتقد أن قلبه توقّف، وحاول التنفس، ولكن رئتَيه لم تعملا. فانحنى بشكل مضاعَف، محاولاً إدخال بعض الهواء إلى حَلْقه. التقطته يد من مؤخَّر العُنُق ورمته على العشب. وباصطدام جسده بالأرض، خرج الهواء المتبقّي من رئتَيه، ووجد نفسه فجأةً يتنفس بقوة مرة أخرى. تدحرج بعيداً مع اصطدام قدم بالأرض حيث كان رأسه، ووقف على قدمَيه.

كان وجه المقاتل الآخر أشبه بقناع دم لا يتخلله سوى عينَين ضيّقتَين وغاضبتَين، وصفّ أسنان مكشِّرة. خطا في اتجاه شارلوك ووجّه لكمتَين، لكمة باليد اليسرى إلى أضلع شارلوك ولكمة باليد اليمنى إلى رأسه. فامتلأ عالم شارلوك ألماً، وبدا كل شيء بعيداً جداً. كان يهوي، ولكنه لم يشعر باصطدامه بالأرض.

لقد استحقّ الظلام، ووافق بطيب خاطر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

عندما استيقظ شارلوك، كان يشعر بألم في رأسه. كان الألم مركَّزاً حول صُدغه الأيمن الذي ينبض بشكل متزامن ومزعج مع نبضات قلبه، ثم يمتد إلى وسط رأسه لدرجة عدم تمكّنه من الرؤية والوقوف. استلقى في الظلام لبعض الوقت، دون أن يفكر، متحرّكاً إلى الأمام والخلف من فَرط الألم، منتظراً انحساره. في النهاية، خفّت حدّة الألم.

كان آخر ما يتذكّره هو سقوطه على أرض المَرج تحت قلعة فارنهايم بعد مواجهة مع مقاتل المعرض. وها هو الآن في سرير مريح، وتحت رأسه وسادات من ريش. ذلك يعني أنه لم يعد في المعرض مستلقياً على الحَلبة المُعشَوشبة والموحلة أو يخضع للعلاج داخل خيمة، ما لم يكن يهذي، بالطبع. وهو احتمال غير مشكوك فيه نظراً إلى إصابته بجرح في الرأس.

لا، قال لنفسه بحزم. كان عليه أن يقتنع أن قدرته على الشعور والسماع والرؤية، هي أمر صحيح وليس تلفيقَ دماغٍ تعرّض لكَدمة.

عرف من خلال النور المنتشر والمتسرّب عبر النوافذ المزوَّدة بستائر أن الوقت صباح. لم يكن في سريره؛ إنه أمر مؤكَّد. فسريره أكثر صلابة، وتحتوي وساداته على قَدْر أكبر من الكُتل. لا بدّ من أن شخصاً من منزل عزبة آل هولمز عثر عليه وأحضره إلى هنا ووضعه في سرير أكثر راحة: سرير يمكن للطبيب والخادمات الوصول إليه بسهولة أكبر. بذل قُصارى جهده لسماع حركة ما خارج النافذة، ولكن كل ما سمعه كان صوتاً بعيداً أشبه بتغريد عصفور.

ما هو مقدار المتاعب التي وقع فيها؟ هذا التساؤل جعله يئن دون قصد. لقد عصى توجيهات عمّه الواضحة، ووجد أن أي محاولة لشرح نيته لقاء آميوس غروي سيتم التعامل معها بشدة. وأسوأ ما في الأمر تورّطه في قتال سوقيّ بقبضات الأيدي. والأسوأ من ذلكأنه ضاع. قد لا يهتم شرينفورد أو آنّا هولمز بذلك، ولكن والد شارلوك سيغضب كثيراً إذا بلغه ما حدث. فأحد أقواله المأثورة هي: «لا يبدأ سيد محترم قتالاً، ولكنه ينهيه على الدوام».

إذا كان محظوظاً، سيجعله عمّه حَبيس غرفته طوال الشهر التالي، ويَقْصر وجباته على الخبز والماء؛ هذا إذا كان محظوظاً. وإذا لم يكن محظوظاً... حسناً، لم يكن متأكداً من العقوبة، ولكنه يعتقد بأنها ستكون مُريعة. جَلْد بالسَّوط، ربما؟ ضَرْب بعصا أو بحزام جِلديّ؟ ربما قام عمّه بذلك حزناً وليس

غاضباً، ولكن ألا يوجد اقتباس في الكتاب المقدَّس يقول «وقِّر العصا تُفسد الفتى؟».

لن يكون الأمر جيداً.

مدّ شارلوك يده ليلمس رأسه، فأصابت أصابعه تورّماً. وعندما ضغط عليه، التمع ألم حادّ في أنحاء جسده.

جلس منتصباً بحذر. لم تكن الحركة مؤاتية لرأسه ومعِدته، ولكنها لا تؤلمه كثيراً.

على امتداد جدران الغرفة كان هناك ألواح خشبية تزيينية، وللسرير مظلّة مطرَّزة فوق الرأس. لم يعتد هذه الأسرّة، ويبدو التزيين غير متماشٍ مع ما يذكره من أثاث المنزل في عزبة آل هولمز. نظر إلى نفسه، فهو لا يزال مرتدياً ملابسه بالرغم من عدم وجود سترته. ألقى نظرة سريعة من حَوله فوجدها مدلاّة من علاّقة ملابس في الناحية الخلفية للباب.

رفع الغطاء عنه، وجلس بالتدريج بشكل عمودي. بدا العالم يتحرك إلى الأمام والخلف للحظات قليلة، كماء في دَلو، قبل أن يستقرّ. لم يكن ينتعل حذاءً، ولكنه رآه عند أسفل السرير. فترجّح للحصول عليه، وبذل قُصارى جهده لوضعه في قدمَيه دون أن ينحني. إن الانحناء فكرة سيّئة، قال في نفسه.

عبَر الغرفة في اتجاه النافذة، وفتح الستارة، لكن المنظر الذي رأته عيناه لا يشبه بأي شيء المنظر الطبيعي حول منزل عزبة آل هولمز.

الأرض في الخارج مسطَّحة وجرداء، لا عُشب فيها أو نبات. التربة جافة، بنّية اللون مائلة للحُمرة، ومغطاة بصناديق خشبية متينة، تشبه أقفاص الدجاج ولكنها أصغر حجماً، وفي كل منها ثُقب صغير في الأسفل قبل المكان الذي تنفصل فيه القاعدة الخشبية للصندوق عن دِعاماته. كانت الصناديق موضوعة على أبعاد متساوية بشكل شبكة مصبَّعات منتظمة. ولدى قيام شارلوك بعملية ضرب سريعة، وجد أنه يحدّق إلى حوالى خمسمئة صندوق.

بدا الدخان وكأنه يتحرك بشكل لولبي فوق بعض الصناديق، وكأن ريحاً تدور به في دوّامة بطرائق غريبة وباتجاهات مختلفة. وكانت بعض الرياش تتجه إلى الأعلى، وبعضها إلى اليسار أو اليمين، ويتدلّى بعضها الآخر حول أبواب الصناديق كما لو أنها تحاول الدخول أو الخروج.

تحرّك شكل بشري من وراء أحد الصناديق، وكان يرتدي ثوباً واقياً فضفاضاً مكوَّناً من قطعة واحدة، ومصنوعاً من خَيش، كما يبدو، ويغطي رأسه بقناع رقيق، بما يكفي للنظر عبره، مصنوعاً من الموسلين، وتفصل بينه وبين وجهه أطواق خشبِية. انتقل الشكل البشري إلى صندوق آخر، ورفع الغطاء بحذر،

فنفث مزيداً من الدخان نحو الخارج وغلّف رأسه. بدا أنه لم يكن يبالي، وانحنى محدّقاً إلى داخل الصندوق، ثم أعاد الغطاء إلى مكانه وسحب من الأسفل ما بدا صَينية خشبية. حدّق الشكل البشري إليها لثوانٍ قليلة، ثم سار خطوات قليلة ووضع الصَّينية على مجموعة صوانٍ مماثلة.

لقد استيقظ وعي شارلوك أخيراً وأدرك ما الذي ينظر إليه. إن السحابة التي رآها تغادر جثة الرجل في الغابة حول منزل عزبة آل هولمز، والدخان الذي رآه ماتي، واللّقاح الذي حمله للبروفسور وينشكومب، بدت ذات معنى أخيراً. ليس ذلك دخاناً بل نحل! نحل أسود صغير، ويعني ذلك أن الصناديق هي قُفران نحل، وأن الرجل الذي يضع قناعاً هو مربّي نحل.

ولكن أي نوع من النحل هو؟ ولماذا يتم الاحتفاظ به؟ للدفاع أم لشيء آخر؟

والأهم من ذلك، من هو هذا الشخص؟

فُتح من ورائه الباب المؤدي إلى غرفة النوم، فاستدار بسرعة ورأى رجلَين واقفَين عند مدخل الباب بملابس مُخمليّة سوداء نظيفة قديمة الطراز- بنطال قصير، جوارب طويلة، صَدرية، وسترة قصيرة- ووجهاهما مغطّيان بقناع مُخمليّ أسود يحمل شقوقاً طوليّة على مستوى العينَين كي يريا عبرها.

أومأ أحدهما من فوق كتفه، ومعنى الإيماءة واضح- على شارلوك مرافقتهما. لكنه رفض للحظة- لم يسبق له أن نفّذ أوامر بدون تقديم شروحات- ولكنه أدرك بعد تفكير أنه إذا لم يمتثل لطلبهما فسيأخذانه رغماً عنه، وقد لا يكونان حريصَين على سلامته أيضاً. فأقنع نفسه أن مرافقتهما هي الطريقة الوحيدة لاكتشاف ما يجري.

سار شارلوك باتجاه الباب خافقَ القلب ولكنه كان محافظاً على هدوئه، وعلى وجهه سيماء المَلل. تنحّى الخادمان للسماح له بالمرور.

كانت الرَّدهة خارج غرفة النوم مزيَّنة بألوان حمر وأرجوانية، مع شعار نَسَب مميِّز مُحاكٍ على ورق الجدران ومطرَّزٍ على الستائر الأرجوانية. تقدَّم أحد الخادمَين شارلوك ونزل مجموعة درَجات عريضة من الرخام الأبيض، وتبعهما الآخر. كان وَقع خُطى شارلوك الصوتَ الوحيد، فحذاءا الخادمَين مغطّيان لكتم الصوت وبالكاد يصدران حفيفاً.

في أسفل السلّم، تقدّم الخادم الأول شارلوك نحو باب مُغلَق إلى جانب خزانة من خشب الساج الثقيل. سحبه باتجاهه، وأومأ لشارلوك بالدخول، فأذعن الفتى بعد لحظةِ تردُّد.

أُغلق الباب وراءه بصوت مكتوم وحاسم.

كانت الغرفة وراء المدخل واسعة وظليلة، ومعتدلة البرودة، وكل النوافذ مكسوّة بستائر سميكة؛ وكانت أشعةُ ضوءٍ خفيفة فقط تخترق الظُّلمة، وفي ضوئها الهزيل، تمكن شارلوك من رؤية طرف طاولة خشبية ضخمة، وكرسيّ ثقيل أمامها، وكل ما تبقى كان ظلمة باستثناء لمعانِ ما يمكن أن يكون أشياء معدنية مدلاّة من جدران حجرية.

لقد اتّضح له ما كان متوقَّعاً منه. شعر بقطراتٍ على ظهره تنمّ تعرّقه نتيجة الخوف. سار إلى الأمام وجلس في الكرسيّ.

كان هناك سكون للحظات طويلة، باستثناء خفقان قلبه السريع. لقد أرهق نظرَه بالتحديق إلى الظُّلمة، ولكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء عدا صفحة الطاولة الموجودة أمامه مباشَرةً. بعد ذلك، شرع، وبالتدريج، بتمييز ضجيج خافت: صريف إيقاعيّ أشبه بصريف تجهيزات سفينةٍ تتقاذفها أمواجُ محيط وهمي. بدا الصوت يقترب ويبتعد كنسيم ضعيف يهبّ على الأشرعة بشكل متقطع، ويسحب الحبال المبلّلة بإحكام ثم يُرخيها. لم يعرف مصدر الصوت. بالتأكيد، لا يمكن أن يكون على متن سفينة؟ سبق له أن رأى الأرض خارج نافذة غرفة النوم، ولم تكن الأرض ترتفع وتنخفض. ما هو ذلك الصوت إذاً؟

«كنتَ في المستودع». قال رجل بصوت أشبه بهمس من الظُّلمة في الطرف الآخر للطاولة. كان هناك أثر لَكنة مميَّزة، ولكن شارلوك لم يتمكن من معرفة البلد الذي يتحدّر منه المتكلم. «لماذاكنتَ في المستودع؟».

«من أنت؟» قال شارلوك بحزم، وفي صوته تظاهر بشجاعة لم يشعر بها.

«لماذاكنتَ في المستودع؟» أصرّ الصوت. لقد بذل شارلوك قُصارى جهده لفهم الكلمات غير الواضحة بسبب الصريف.

«سيبدأ عمّي بالقلق عليّ»، هدّد شارلوك. «وستكون هناك فِرَق بحث». لم يعرف إذا كان هذا الأمر صحيحاً أم لا، ولكن بدا له أن قول ذلك شيء جيد؛ قد يردع هذا الأمر مستجوبه الغامض.

«سأطرح عليك السؤال مرة واحدة فقط، وبعد ذلك ستكون هناك عواقب. لماذاكنتَ في المستودع؟».

«لا أعرف ما الذي تتحدث عنه».

ومض من الظُّلمة شيء ما رفيع، أسود، غير متجعّد، كثعبان منقضّ، وأصاب خدّه الأيمن قبل أن ينسحب إلى الظلام. جفل شارلوك وشعر بالدم يتقاطر على بشرته قبل لحظة من تعاظم الألم.

«لماذاكنتَ في المستودع؟» أصرّ الصوت.

لمس شارلوك بيده خدّه المتّقد ألَماً، ومن ثم رفعها ونظر إليها. لقد ترك الدم بُقَعاً على خطوط راحة يده. «لقد آذيتني»، قال، غير مصدِّق الأمر.

وانتفض السَّوط عبر الظُّلمة ثانيةً. رأى هذه المرة طرفه المستدق أثناء صفيره بجانب وجهه. كانت هناك عُقدة في الشريط الجِلدي الرفيع. وتزامنت فرقعةالعُقدة المندفعة والمتراجعة بأقصى سرعة مع ألم كبير شعر به في أعلى أُذُنه اليمنى. صاح، مُلقياً بيده إلى جانب رأسه. هذه المرة، شعر بالدم يتجمّع في راحة يده ويتقاطر على مِعصمه.

«لماذا...».

«تبعتُ رجلاً من منزل في فارنهايم!» صاح شارلوك. «ذهب إلى المستودع!».

وساد السكون لحظة.

«لماذا كنتَ تتبع الرجل من المنزل؟».

شعر شارلوك برطوبة ودفء الدم السائل من أُذُنه على عُنُقه. كان الجانب الأيمن لوجهه ينبض ألماً. «مات شخص ما في ذلك المنزل، وأردت اكتشاف السبب».

«لقد مات بسبب الطاعون، بالتأكيد؟» همس الصوت. «هذا ما يقوله الناس».

فكّر شارلوك لبعض الوقت قبل قول أي شيء عن لسَعات النحل، ولكن السَّوط اندفع من الظُّلمة ثانيةً وأصاب جبينه فوق عينه اليسرى. فعاد رأسه إلى الوراء واصطدم بالكرسي، متسبباً بموجات من الألم عبر جمجمته. وعندما حاول فتح عينه، وجدها مُغلَقة بإحكام بسبب الدم السائل من الجرح.

إذا واصل تلقّي ضربات بالسَّوط، ستظهر آثار شريطيّة الشكل على رأسه.

«مات بسبب لَسَعات نَحل»، صاح. «مئات اللسعات».

ساد الصمت، وتدفّق الألم الناجم عن تلقّي شارلوك ثلاث ضربات بالسَّوط على بشرته نحو مركزِ ألمٍ مبرِّحٍ واحد ينبض مع الخفقان السريع لقلبه.

«مَن غيرك يعرف بأمر النحل؟».

«أنا فقط!».

مرة أخرى، انطلق السَّوط خارج الظلال كثعبان منقضّ، مفرقعاًومصيباً جانب عينه اليمنى على بُعد شعرة واحدة من مُقلة العين. وغطّى الدم أهدابه: قطرات مستديرة سوداء مدلاّة في مدى بصره.

«في المرة التالية، سيتولى الشخص المتمرّس باستخدام السَّوط مهمةَ توجيه ضرباتٍ إليك. سيُعمي عينك اليسرى»، قال الصوت. «بعد ذلك، سيقتلع أُذُنك اليمنى. أجبْ عن أسئلتي تماماً، ولا تكذب عليّ».

الشخص المتمرّس باستخدام السَّوط! قال شارلوك في نفسه. هذا يعني أن من يطرح الأسئلة ومن يحرّك السَّوط شخصان مختلفان. كم عدد الأشخاص المختبئين هناك، في الظلام، الذين يراقبون ويُصغون؟

«كنت أعرف بعض إجابات الأسئلة التي طرحتُها عليك»، تابع الصوت الهامس، «وإذا كانت إجاباتك مختلفة ستعاني الأمرَّين، الآن وفي ما تبقّى من حياتك. مَن غيرك يعرف عن النحل؟».

«البروفسور وينشكومب في غيلدفورد، وآميوس غروي في فارنهايم». كان صوت شارلوك يرتجف بسبب الجهد الذي يبذله للسيطرة على الألم. «عمّي شرينفورد. أخبر آميوس غروي الطبيب المحلّي. لا أعرف مَن سواهم يدري بالأمر». لقد تعمّد شارلوك إغفال اسم ماثيو آرنات، آملاً في ألا يكون رجل الظلال على معرفة به أو يُسقطه من الحسبان كشخص على درجة من الأهمية.

«إنه عدد كبير»، قال الصوت. وتملّك شارلوك انطباعٌ بأن الرجل يتحدث إلى نفسه وليس إليه، أو ربما إلى شخص آخر يلزم الصمت. «علينا تسريع العملية». وكفّ عن الكلام للحظات، كما لو أن صاحب الصوت يفكر، وقال بعد ذلك: «خُذ الفتى إلى مكان بعيد واقتله. اجعل الأمر يبدو كأنه حادث. فَلْتدهسْه عربة وحصان. احرص على أن تسحق العجَلات عُنُقه».

وتبادرت إلى ذهن شارلوك صورة مُريعة فجائية للغُرَير المَيت الذي رآه خارج المستودع، ذاك الذي سطّحت عربة مارّة مقدَّمَ جسده. والآن، سيحدث له الأمر نفسه.

بعد ذلك، قامت أيدٍ بالإمساك بكتفَيه ورفعته عن الكرسي. تعثّر أثناء عبور الباب، مدفوعاً بالخادمَين اللذَين كانا واقفَين وراءه طوال الوقت، وبصمت. تدافعت في رأسه مجموعة أفكار عن كيفية الفرار، ولكنها تعتمد بأجمعها على الخطوة الأولى المتمثلة بالتخلّص من تلك الأيدي التي تقبض عليه بإحكام وتدفعه. فجأةً، وقع الضوء على ثلاثتهم، مع فتح الباب إلى الخارج من قِبَل أحد الخدم الذي رفع يده عن كتف شارلوك. استدار شارلوك وانهال على الشخص الآخر بركلات بقدمه، آملاً في إيذائه بما يكفي كي يُفلته، ولكن قدمه اصطدمت بالجزمة الجِلدية وارتدّت إلى الوراء. تلقى ضربة على جانب رأسه بقبضة يد، فتراءت له مجرّات ضوئية.

أقفل وراءهم باب الغرفة المُظلمة. كان ماتي آرنات واقفاً هناك حاملاً عصا معدنية مدعَّمة بالمسامير. لقد بدت أشبه بعصا يستخدمها فارس قديم الطراز في ساحة المعركة.

وجّه ضربة بواسطتها إلى رأس الخادم الأقرب إليه الذي سقط أرضاً ككيس فحم مُلقى داخل قَبو مؤونة. وأفلت الخادمُ الآخر شارلوك واندفع نحو ماتي، متجهّم الوجه ومادًّا يده القوية باتجاه رأس ماتي. دار شارلوك حوله ولكمه بقوة على منطقة الأعضاء التناسلية، فانحنى الرجل وهو لا يكاد يقدر على التنفس.

«من هنا»، هسهس ماتي وأومأ لشارلوك كي يتبعه.

وانطلق الاثنان بأقصى سرعة عبر ممرات منزل غير مألوف يحتوي على ألواح سنديان قاتمة اللون، وستائر مُخملية سود، وتماثيل مَرمَرية بيض لِحُوريات إغريقيات عاريات تُجفل الناظر.

«من أين حصلتَ على ذلك الصولجان؟» صاح شارلوك أثناء ركضهما. وسمع صدى وَقْع أقدامٍ تلاحقهما.

«في كل أنحاء المنزل بِذلات مدرَّعة وأشياء أخرى»، نادى ماتي من فوق كتفه. «لقد أخذتُه فحسب».

«وماذا تفعلهنا؟».

«كنت في المعرض، ورأيتُ كيف خُدعتَ للمشاركة في ذلك القتال. ذهبتُ للمساعدة، ولكن رجلَين ضخمَين كانا يجرّانك. ألقيا بك في مؤخَّر عربة واقتاداك إلى هنا. تدلّيتُ من مؤخَّر العربة حيث لا يمكنهما رؤيتي، ومن ثم قفزتُ عندما دخلا هذا المكان. أنا أبحث عنك مذّاك الحين».

«صحيح»، قال شارلوك، لاهثاً. «أيننحن؟».

«على بُعد ثلاثة أميال تقريباً من فارنهايم. في الجانب الآخر من منزل عزبة آل هولمز». وتقدّمه ماتي عبر باب لا يمكن ملاحظته قائمٍ داخل ما بدا منطقة الخدَم، ثم إلى ممرّ ضيّق من الآجرّ يؤدّي إلى باب داخلَ الحديقة. خرجا إلى الهواء الطَّلْق وضوء الشمس الساطعة.

«ولم تُحضر الدراجتَين؟».

«كيف يمكنني إحضارهما؟» صاح ماتي، شاعراً بالإهانة. «كنت مدلّى من مؤخَّر العربة! لا يمكنني إحضارهما معي، أليس كذلك؟».

«وجهة نظر جيدة!» وألقى شارلوك نظرة سريعة حوله أثناء ركضهما. إنهما في الناحية الخلفية للمنزل. لقد مرّا بجانب شرفة عريضة مبلَّطة وجدار قصير، وبدلاً من الحديقة، كان هناك حقل مليء بقُفران نحل. «إذاً، كيف سنخرج؟».

«عثرتُ على إسطبل»، قال ماتي، وهو لا يزال مَحزوناً. «وجدت فيه أحصنة!».

«لا أجيد امتطاء الأحصنة!».

خرج وراءهما ثلاثة رجال بأقنعة وملابس سود من مجموعة أبواب زجاجية مفتوحة ربما تؤدي إلى داخل غرفة رسم، وتفرّقوا في اتجاهات مختلفة. رأى أحدهم شارلوك وماتي وأطلق صيحة.

عبس ماتي وقال لشارلوك. «حسناً، لا تملك وقتاً كثيراً لتتعلّم، يا رفيقي!».

تقدّم ماتي شارلوك، وانعطف عند زاوية المنزل. كان هناك هُري كبير أمامهما، فاندفع الفَتَيان بأقصى سرعة عبر الأرض المكشوفة، وهما يسمعان وراءهما وَقْع خطى ركْض سريع. وصلا إلى الهُري، ودخلاه بأقصى سرعة عبر الأبواب المفتوحة.

في داخل الهُري، كان هناك ظلام، وتطلّب الأمر لحظات قليلة كي تتكيّف عينا شارلوك. اندفع ماتي، الذي كان هناك من قَبل، في اتجاه حصانين مُسرَجَين ومربوطَين إلى أعمدة خشبية خارج مربطَيهما.

«امتطِ حصاناً»، قال ماتي. «استخدم جانب المربطَين كدرجة».

كان وقع الخطى في الخارج يدنو أكثر فأكثر. وأثناء قيام ماتي بإمساك سَرج الحصان الأصغر ووضع قدمه داخل الرِّكاب ورفع نفسه، كان شارلوك قد تسلّق الجانب الخشبي للمربطَين بقدمه اليمنى، ووضع قدمه اليسرى داخل الرِّكاب وحاول تقليد حركة ماتي السلسة على الحصان الآخر الكستنائي اللون. لقد انتهى به الأمر جالساً على السَّرج بمساعدة الحظ أكثر منه بفعل التمرّس. أدار الحصان رأسه إلى الوراء، ناظراً إليه بهدوء. لقد بدا غير منزعج من وجود غريب على ظهره فجأةً.

«لِنذهبْ!» نادى ماتي. كان قد أمسك الرَّسَن بيد وفكّ الحصان باليد الأخرى. وأمسك شارلوك برسن حصانه بإحكام وحاول تذكُّر ما سبق لفرجينيا أن علّمته عن امتطاء الجياد. قُد بركبتَيك وليس بالرَّسَن. استخدم الرَّسَن لإبطاء الحصان.

دون النظر إلى الوراء، حثّ ماتي الحصان على الخروج عبر أبواب الهُري، وافترض أن شارلوك سيتبعه. هزّ شارلوك الحبل الذي يمنع حصانه من الهيام على وجهه، ولكنه أبقاه رَخواً، واعترته موجة ذُعر فجائي وأدرك أن فرجينيا علّمته كيفية توجيه الحصان وإيقافه، ولكن ليس كيفية حمله على التقدّم. ضغط بركبتَيه على جانبي الحصان بتردد فانطلق. لقد انحنى شارلوك في السَّرج إلى الأمام للتعويض عن الحركة المتمايلة، وضغط بركبتَيه أكثر فأكثر وهزّ الرَّسَن بطريقة اختبارية. جرى الحصان ثم خبّ. لماذا يوحي الناس بأن امتطاء الحصان ينطوي على صعوبة كبيرة؟ إنها مجرد سلسلة من الإشارات والأفعال!

عندما غادرا الهُري، بدا المنظر الطبيعي لشارلوك في الخارج وهجاً من الألوان والأفعال. كان ماتي منطلقاً بأقصى سرعة تطارده مجموعة من الخدَم المقنَّعين، ولكنهم تخلّفوا عنه. ووقف رجلان مقنَّعان أمام شارلوك، محاولَين صدّ طريقه، ولوّح أحدهما بمسدس، مُطلِقاً النار في اتجاه شارلوك الذي شعر بشيء ما يمسّ شعره. حثّ حصانه للعدو وَثباً، وشقّ طريقه بين الرجلَين مباشَرةً، موقِعاً إيّاهما أرضاً. استخدم ركبتَيه، وحثّ حصانه للاندفاع بأقصى سرعة. لقد بدا الأمر كما لو أنهما يطيران فوق الأرض، ولَحِق بماتي.

في غضون لحظات، اقتربا من جدار حدود المِلكية. إنه بارتفاع عشر أقدام تقريباً. ووجّه الفتَيان حصانهما إلى داخل حَنِيّة في اتجاه البوّابات الرئيسية. كان وقع خُطى الحصانين قويًّا، ويتغيّر صوت حوافرهما مع انتقالهما من تربة ليّنة إلى حجارة الطريق. غاص قلب شارلوك عندما رأى البوّابات الرئيسية للمِلكية مُغلَقة، وأمامها خادمان مقنَّعان مزوَّدان ببندقيتين مصوَّبتين نحو الحصانين. عندئذٍ، سحب شارلوك وماتي رَسَنَي حصانيهما اللذَين انزلقا على حجارة تطايرت في كل اتجاه قبل أن يتوقفا.

أطلق أحد الرجلَين النار من بندقيّته، وتردّد صدى الطلق الناري في أرجاء المكان. لمح شارلوك الخُردُق يمرّ بجانبهما في سحابة متوسّعة كذبابات صغيرة تطايرت إثر انفجار.

استخدم شارلوك ركبتَيه لتوجيه الحصان، وسحب الرَّسَن غريزياً في اتجاه الجانب الأيسر، حاملاً شارلوك الحيوان على الاستدارة؛ كثيرون يقومون بأمر مماثل. وحثّ الفَتَيان حصانيهما للانطلاق مجدداً. كان المنزل يلوح أمامهما داكناً وموحشاً.

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى اليمين واليسار، فرأى رجالاً مقنَّعين يتقدّمون من جانبَي المنزل مزوَّدين بمجموعة من المسدسات، والبنادق، وبنادق صيد

الطيور، ومِذرّات. كان الاتجاه الوحيد المتوافر لهما إلى الأمام مباشَرةً باتجاه الأبواب الرئيسية للمنزل.

بدأ ماتي يُبطئ، وألقى نظرة سريعة وغير واثقة من حَوله.

عدا شارلوك بجانب صديقه، صائحاً: «اتبعني!» فاليمين واليسار مسدودان، على غرار الخلف. سمع صوت شقيقه مايكروفت يقول: «عندما تكون كل الخيارات الأخرى مستحيلة، يا شارلوك، اعتمد الخيار المتبقّي مهما كان مستبعَداً».

شعر الحصان بما يريده وقفز خطوات قليلة في اتجاه الرُّواق المعمَّد أمام المنزل، وتوجّه دون إبطاء إلى الأبواب الأمامية الواسعة.

أخفض شارلوك رأسه أثناء عَدْو حصانه عبر الأبواب الأمامية وصولاً إلى رَدهة المدخل، شاعراً بعارضة أعلى الباب تمسّ شعره. انزلقت حوافر الحصان وطقطقت على الأرضية المبلَّطة، وكاد الحصان يُلقي شارلوك عن ظهره قبل أن يتمكن من استعادة توازنه. لقد أربكته ظُلمة الرَّدهة للحظات، ولكن عينَيه تكيّفتا في غضون ثوانٍ وحثّ حصانه للتوجه إلى الأمام بجانب الدرَج الرخاميّ في اتجاه موخَّر المنزل. ركض خدم مقنَّعون خارج المداخل وتراجعا بعد ذلك، مذعورين من الحصانين اللذَين ملآ المكان تقريباً. وبدلاً من التوجّه إلى منطقة الخدَم، قاد شارلوك حصانه إلى أقصى اليمين، دافعاً أحد الأبواب وداخلاً إلى ما اشتبه بأنها غرفة رسم، استناداً إلى مكانها، ومقارناً إيّاها بمنزل عزبة آل هولمز. لقد كان مُحِقًّا.

كانت الغرفة رَحبة ونيّرة، وفيها أبواب زجاجية مزدوجة تؤدّي إلى شرفة. وكما يذكر شارلوك من عملية الفرار في وقت سابق، كانت الأبواب مفتوحة!

في غضون ثوانٍ، كان وحصانه يعدوان عبر غرفة الرسم ويخرجان إلى الشرفة. سمع هيجاناً مع اصطدام ماتي بالأثاث في الغرفة وراءه، وسمع بعد ذلك طقطقة حوافر على بلاطات الشُّرفة.

في الأمام، وعبْر حقل قُفران النحل، رأى بوّابة خلفيّة أصغر حجماً تُسلَّم المؤن والتجهيزات من خلالها على الأرجح. لقد بدت غير محروسة، فانطلق بأقصى سرعة نحوها، ولُبدة الحصان تصطدم بوجهه، ويندفع النسيم بجانب أُذُنَيه. كانت الأشكال المكعّبة لقُفران النحل تُكوّن شبكة مصبَّعات هندسية يعدو الحصان عبرها في خط مستقيم. طارت وراءه سُحُب من النحل، ولكن الحصان كان سريعاً جداً ولم تتمكن من اللحاق بهما، فاكتفت بالدوران مُربَكة.

كانت البوّابة الخلفية مُقفَلة، ولكن الأمر تطلّب برهة من الزمن كي ينزل شارلوك عن صهوة الحصان ويفتح المزلاج. استدار ونظر إلى الأراضي المحيطة بالمنزل مع وصول ماتي مهرولاً، ووقف بجانبه. كان هناك رجال مقنَّعون ومسلَّحون يتجمعون في الجانب الآخر لحقل قُفران النحل. من الواضح أنهم لم يرغبوا في المجازفة بدخول المنطقة؛ كان هناك رجلان يحركان أيديهما بعشوائية في الهواء مع مهاجمة النحل الغاضب أول من يعترض طريقها.

«ظننتُ أن الأمور ستسير بشكل جيد»، قال ماتي. «هل نبقى ونراقب؟».

«دَعنا لا نفعل ذلك»، قال شارلوك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

أنهى آميوس غروي تنظيف الجراح التي أصابت وجه شارلوك بقطعة قماش وسائلٍ تفوح منه رائحة حادة، ويلسع أينما وُضع، ثم عَبَر منزله الريفيّ وجلس في كرسيّ من الخُوص([4]) صَرَف تحت ثِقله. دفع نفسه إلى الوراء بقدمَيه، جاعلاً الكرسي في حالة من التوازن على قائمتيه الخلفيَتَين، وهدهدها برِفق، مثبّتاً نظره على شارلوك طوال الوقت.

إلى جانب شارلوك، كان ماتي يبدّل وضعيّته كحيوان يريد الفرار دون أن يعرف الوجهة الآمنة.

«يا لها من قصة»، تمتم غروي.

اعتبر شارلوك أن كلمات غروي هي مجرد طريقة لوضع حدّ للصمت أثناء استغراقه في التفكير، فبقي هادئاً. هدهد غروي إلى الأمام والوراء، محدّقاً طوال الوقت إلى شارلوك. «أجل، يا لها من قصة»، قال بعد قليل.

جعل مستوى نظر غروي شارلوك عصبيّ المزاج، لذلك أشاح بنظره، تاركاً عينَيه تجولان على أنحاء الغرفة. فمنزل آميوس غروي الريفيّ مليء بأشياء مبعثَرة، وكتب، وصحف، ومجلات دَورية تُركت حيثما وضعها. وكان هناك مجموعة رسائل مثبَّتة بسكين على رفّ المِدفأة الخشبية قرب ساعة تشير إلى أن الوقت يناهز الثانية. وبجانبها خُفّ واحد يبرز منه عدد قليل من السيكار كأصابع جَشِعة؛ يُفترض بها أن تبدو قذرة، ولكن لم يكن هناك أي غبار أو قذارة. فالمكان نظيف ولكنه غير مرتَّب، ويبدو كما لو أن غروي يعتمد طريقة مختلفة في تخزين أشيائه.

«ماذا تستنتج من كل ذلك؟» قال غروي أخيراً بحِذق.

هز شارلوك كتفَيه لأنه لا يريد أن يكون محطّ انتباه غروي. «لو كنت أعرف لَما اضطُررت للقدوم إليك».

«من الجيد على الدوام أن يتمكن شخص واحد من إحداث فَرق»، أجاب غروي دون أي أثرٍ للانزعاج، «ولكنك بحاجة أحياناً إلى أصدقاء في عالمنا المعقَّد هذا، وأحياناً تكون بحاجة إلى منظّمة لدعمك».

«تعتقد أنه يُفترض بنا طلب مساعدة البيلرز؟» سأل ماتي بعصبية.

«الشرطة؟» وهز غروي رأسه. «لا أعتقد أنهم سيصدّقونك. وحتى ولو صدّقوا لا يمكنهم القيام بأي شيء. وكل من يُقيم في منزلك الكبير سيُنكر كل شيء.

هم يملكون النفوذ والسلطة، بخلافك. وعليك الإقرار بأنها قصة بالغة السُّخف».

«هل تصدّقنا؟» سأله شارلوك بحِذق.

تغضّن وجه غروي من المفاجأة وأجاب: «أصدّقك بالطبع».

«لماذا؟ لقد قلتَ إنها قصة بالغة السُّخف».

ابتسم غروي. «الناس يفعلون أشياء عندما يكذبون. الكذب مُكرِب لأنه يتعيّن عليك إبقاء أمرَين مختلفَين في رأسك في آن - الحقيقة التي تحاول إخفاءها والكِذبة التي تحاول إخبارها. ويتجلّى هذا الكَرْب بطرائق معيَّنة: لا يُقيم الناس اتصالاً بصرياً بالشكل الملائم؛ يفركون أنوفهم، ويترددون ويتلعثمون أكثر فأكثر عندما يتكلمون، ويغوصون في التفاصيل أكثر مما ينبغي كما لو أنهم يجعلون كِذبتهم أكثر قابلية للتصديق إذا تذكّروا لون ورق الجدران، وما إذا كان للرجال لِحىً أو شوارب أو ما شابه. لقد أخبرتَ قصتك بنزاهة، ونظرتَ إليّ مباشَرةً، ولم تُضِف تفاصيل خارج الموضوع. بالنسبة إليّ، أنت تقول الحقيقة، أو على الأقل ما تعتقد أنها الحقيقة».

«إذاً، ماذا نفعل الآن؟» سأل شارلوك. «هناك أمر ما يجري حَولنا هنا. للأمر علاقة بالملابس التي تُخاط للجيش، وبالنحل، وبذلك المستودع في فارنهايم. والرجل في المنزل الكبير - البارون، كما أعتقد - هو وراء كل ذلك، ولكنني لا أعرف ماذا يفعل».

«إذاً، علينا اكتشاف الأمر». وثبّت آميوس غروي كرسيّه في مكانها على قوائمها الأربع ووقف. «إذا لم يكن لديك وقائع تكفي للتوصل إلى استنتاج، اخرجْ إذاً واحصلْ على مزيد منها. لِنذهبْ ونطرح بعض الأسئلة».

بدّل ماتي وضعيّته بطريقة غير مُريحة وتمتم: «عليّ الذهاب».

«تعالَ معنا، أيها الفتى»، قال غروي. «كنتَ جزءاً من هذه المغامرة، وتستحق معرفة ما يجري. وعلاوةً على ذلك، يبدو أن شارلوك الشاب يثق بك. سنحصل على بعض الطعام في طريقنا إذا كان هذا الأمر يساعدك على اتخاذ قرار».

«سأرافقكما»، قال ماتي.

تقدّمهما غروي إلى الخارج. في المرج بجانب المنزل الريفيّ، كانت فرجينيا غروي تمسح بدن الحصان، ساندیا، بفرشاة، وبجانبها حصان أصهب أكبر حجماً، افترض شارلوك أنه حصان غروي. كان الحصانان اللذان امتطاهما شارلوك وماتي من منزل البارون الكبير يقضمان العشب بهدوء جانباً.

رفعت فرجينيا نظرها أثناء اقترابهم، والتقت عيناها عينَي شارلوك فأشاحت بنظرها عنه على الفور.

«نحن ذاهبون في جولة على صهوة الأحصنة»، أعلن غروي. «يا فرجينيا، تعالَي معنا. كلما كان عدد الأشخاص الذين يطرحون أسئلة أكبر، ازدادت فرصة تلقّي بعض الإجابات الصحيحة جزئياً».

«لا أعرف أي أسئلة أطرحها»، اعترضت فرجينيا.

«كنتِ خارج الباب تُصغين»، قال غروي مبتسماً. «سمعتُ ساندیا يصهل، وهو لا يقوم بذلك إلا عندما تكونين في مجال بصره وليس معه في الواقع. كما تمكّنتُ من رؤية شيء ما يتحرك، صادًّا نور الشمس تحت الباب».

احمرّت فرجينيا، ولكنها واصلت التحديق إلى والدها بتحدٍّ جزئيّ. «تُعلّمني دائماً الاستفادة من فُرَصي»، قالت.

«صحيح. إن الطريقة الفضلى للتعلّم هي الإصغاء».

امتطى غروي صهوة حصانه، وقامت فرجينيا بالمِثل. كانت تراقب شارلوك وماتي يمتطيان حصانيهما، مبتسمةً، وأومأت لشارلوك بطريقة مستحسِنة. «امتطاؤك للحصان مقبول جزئياً».

هرول أربعتهم على الطريق في الاتجاه المعاكس الذي سلكه شارلوك وماتي من قَبل للوصول إلى المنزل الريفي. كانت الشمس ساطعة، ورائحة دخان الحطب منتشرة في الهواء. لقد تعيّن على شارلوك المحاولة جاهداً لإقناع نفسه بأنه لم يُصرع، ويؤسَر ويُستجوب ومن ثم يُحكم عليه بالموت. تحدث أمور مماثلة فحسب، أليس كذلك؟ ولكن ليس في يوم مُشمس. حتى إن الجراح في وجهه لم تَعُد تؤلمه.

وكزت فرجينيا حصانها ليقترب من حصان شارلوك. «تمتطي الحصان بشكل جيد كمبتدئ».

«تلقّيتُ نُصحاً جيداً»، قال محدّقاً إليها ثم أشاح بنظره عنها.

«ذلك الكلام الذي قلتَه في المنزل الريفي، هل كله صحيح؟».

«كل كلمة منه صحيحة».

«إذاً، قد لا يكون هذا البلد مُمِلاًّ كما اعتقدتُ».

كان شارلوك يزداد عصبية كلما دَنوا من المنزل الكبير الذي سُجن فيه. في النهاية، شدّ آميوس غروي رَسَن حصانه وأوقفه ضمن مدى البصر من بوّابات المنزل. لم يرَوا أحداً.

«هل هذا هو المكان؟» نادى غروي.

أومأ شارلوك برأسه.

«هناك آثار خارج البوّابات وعلى امتداد الطريق»، تابع غروي. «يبدو لي أنهم هربوا بسرعة».

نظر شارلوك إلى فرجينيا بإرباك، فابتسمت. «إلى اليسار»، شرحت. «لقد فرّوا».

«أوه، صحيح». وحفظ تلك المعلومة للمستقبل.

«لِنتوجّهْ إلى الطريق لنرى ماذا نجد»، صاح غروي، وحثّ حصانه على الانطلاق. كانت فرجينيا وراءه مباشَرةً. وتبادل شارلوك وماتي نظرات سريعة وتبعاهما.

بعد مسيرة خمس دقائق، وجدوا حانة مبنيّة بآجرّ أحمر وفقاً للنمط السنبليّ المميِّز الذي لاحظه شارلوك من قَبل، مِلاط أبيض وعوارض سوداء. وعلى العشب في الخارج مِنصبات ومقاعد خشبية، ويخرج دخان من المِدخنة؛ لقد اشتمّ شارلوك رائحة لحم مَشويّ، وشعر بالجوع على الفور.

توقف غروي وترجّل عن حصانه ثم نادى: «غداء متأخر. يا ماتي وفرجينيا، ابقيا هنا وراقبا الأحصنة. شارلوك، ادخل معي».

تبع شارلوك الأميركيَّ الضخم البنية إلى الحانة. كان السقف منخفضاً ومحجوباً بطبقة من الدخان الشحميّ المنبعث من لحم الخروف الذي يُشوى على سيخ معدنيّ في المِدفأة، ونشارة الخشب تغطي الأرض. وكان هناك أربعة رجال جالسين معاً إلى طاولة، وهم ينظرون إلى الوافدَين الجديدَين بارتياب. بينما كان رجل خامس يجلس على كرسيّ بدون ظَهر، دون أن يُعيرهم أي اهتمام إذ كان يحدّق إلى مشروبه. أومأ صاحب الحانة برأسه لآميوس غروي، وكان واقفاً وراء الطاولة يلمّع كوباً كبيراً بقطعة قماش.

«مساء الخير، أيها السيدان. هل تتناولان شراباً أم تتناولان طعاماً، أم الاثنَين معاً؟».

«أربعة أطباق من الخبز واللحم، وأربعة أكواب كبيرة من الشراب»، قال غروي. دهش شارلوك لدى سماعه يتكلم بغير اللكنة الأميركية العادية، معتمِداً لكنة مُزارع أو عامل من مكان ما في المقاطعات المحيطة بلندن.

سحب صاحب الحانة أربعة أكواب كبيرة من الشراب ووضعها على صَينية بْيوتر([5]). تناول غروي كوباً وأومأ لشارلوك برأسه. «أخرجها، أيها الشاب»،

قال بصوت إنكليزيّ أجشّ. فالتقط شارلوك الصَّينيّة وحملها بحذر إلى الباب، فيما جلس غروي على كرسيّ قرب الطاولة.

في الخارج، عثر ماتي على طاولة ومقاعد خشبية قرب الحانة. كانت فرجينيا لا تزال واقفة مع حصانها. انضم شارلوك إلى ماتي وجلس حيث يمكنه الرؤية عبر إحدى النوافذ. تناول ماتي أحد الأكواب وشرع بالشرب، حاملاً إيّاه بكلتا يدَيه.

ارتشف شارلوك السائل البنّي الداكن. إنه مرّ وبلا طَعم وترك مَذاقاً غير سارّ في فمه.

«نبات الجُنجُل غير صالح للأكل، أليس كذلك؟» قال لماتي.

هز الفتى كتفَيه. «يمكنك تناولها، كما أفترض، ولكن لا أحد يفعل ذلك. مَذاقها غير مستساغ».

«إذاً، لماذا هناك من يعتقد أن بالإمكان صنع شراب منها؟».

«لا أعلم».

نظر شارلوك عبر النافذة إلى داخل الحانة، فرأى آميوس غروي يتبادل أطراف الحديث مع صاحب الحانة. وبالنظر إلى إمالة رأسه، بدا الأمر كما لو أن غروي يطرح أسئلة وصاحب الحانة يُجيب عنها مواصلاً تلميع الأكواب الكبيرة بقطعة القماش المتسخة أكثر فأكثر.

خرجت من الحانة فتاة تضع مِئزراً حاملةً صَينية عليها أربعة أطباق من اللحم يتصاعد منها البخار. توجّهت نحوهم ووضعت الأطباق وأدوات المائدة على الطاولة دون أن تنبس ببنت شفة، وغادرت.

تقدّمت فرجينيا وانضمّت إليهما، فتحرّك شارلوك جانبياً على المقعد كي يُفسح لها المجال بالجلوس. التقطت شرائح اللحم الساخنة بواسطة شوكة، وتوقفت للحظات رافعةً الشوكة قرب شفتَيها. «تعلم أنني لم أكتب تلك الملاحظة، أليس كذلك؟».

«عرفتُ ذلك الآن». وأشاح شارلوك بنظره في اتجاه الريف، عاجزاً عن النظر إلى عينَيها. «ظننتُ في ذلك الوقت أنكِ من كتبها، ولكنني أفترض أن ظنّي هذا يعود إلى رغبتي في أن تكوني من كتبها. لو فكرتُ في الأمر لَعَرفتُ أنك لستِ من كتبها».

«كيف ذلك؟».

هز كتفَيه. «كانت الورقة ناعمة وأنثوية، والكتابة محدَّدة جداً. حاول أحدهم، كما يبدو، التظاهر بأنه فتاة». وتدارك الأمر. «أعني امرأة. شابة. أعني...».

«أعرف ما تعني»، وابتسمت قليلاً. «إذاً، ما الذي جعلك تعتقد أنني لا أستخدم ورقة كتابة أُنثوية في العادة وأكتب بخط أنيق؟».

حدّق إلى عينَيها هذه المرة، ودام الاتصال البصري مدة طويلة. «لا تشبهين أي فتاة التقيتُها في إنكلترا»، قال. «أنت فريدة. ما زلت أحاول فهم شخصيتك، ولكنني أعتقد أنك ستأتين وتسألينني إذا كنت تريدينني أن أذهب إلى مكانٍ ما، معرض مثلاً». وكفّ عن الكلام للحظات وفكّر مليًّا ثم أضاف «أم تُخبرينني. فهذا الأمر هو أكثر احتمالاً».

هذه المرة، حان دورها للاحمرار. «تعتقد أنني أحب كثيراً إصدار الأوامر؟».

«لستِ كذلك إلى حد كبير، بل بما يكفي».

كان ماتي يجول بنظره بينهما. «ما الذي تتحدثان عنه؟».

«لا شيء»، قال شارلوك وفرجينيا في آن.

نظر شارلوك عبر النافذة ثانيةً، فلاحظ انضمام غروي إلى أربعة رجال جالسين معاً. لقد بدوا منسجمين انسجاماً تاماً. أومأ غروي لصاحب الحانة الذي شرع بسكب مزيد من أكواب الشراب الكبيرة من إبريق بْيوتر على المِنضدة.

«والدك رجل مثير للاهتمام»، قال شارلوك، ملتفتاً إلى فرجينيا.

«لديه فترات امتياز».

«ماذا كان يعمل في أميركا؟».

أبقت نظرها مثبَّتاً على طبقها. «تريد حقاً أن تعرف؟».

«أجل».

«كان صياداً».

«تعنين أنه يصطاد حيوانات؟».

هزت رأسها. «كان يصطاد أشخاصاً. كان يقتفي آثار المجرمين الفارّين من وجه العدالة، والهنودِ الذين سبق لهم أن هاجموا مستوطنات معزولة. لقد تَبِعهم طوال أيام في القفر حتى دنا بما يكفي لأخذهم على حين غَرّة».

لم يصدّق شارلوك تماماً ما سمع. «وماذا... يُعيدهم لمواجهة العدالة؟».

«لا»، قالت بهدوء. وانتصبت واقفة بشكل مفاجئ وتوجهت نحو الأحصنة.

جلس شارلوك وماتي بصمت لبعض الوقت منشغلَين بأفكارهما الخاصة.

في النهاية، غادر آميوس غروي الحانة وانضمّ إليهما، حاشراً بنيته الجسدية الضخمة بين المقعد والطاولة. «أمر مثير للاهتمام»، قال بعد عودته إلى شخصيته الأميركية ثانيةً.

«ماذا حدث؟» سأل شارلوك. «ماذا يعرفون عن المنزل؟».

«وكيف حملتَهم على الإجابة عن أسئلتك؟» أضاف ماتي. «أنت غريب هنا ولا ينفتح الناس على الغرباء في العادة».

«أفضل ما يمكن القيام به إذاً هو ألا يكون المرء غريباً»، أجاب. «إذا جلستَ هناك لبعض الوقت، وأجرى حديثاً مع النادل، تصبح جزءاً من الأثاث. بعد ذلك، تسترسل في الحديث إذا رأيتَ الفرصة مناسبة، وتخبرهم شيئاً ما عن نفسك: من أنت، سبب وجودك هناك. قلت لهم إنني أبحث عن مزرعة لشرائها وأربّي حيوانات لأن الجنود الجدد في ألدرشوت سيكونون بحاجة إلى كثير من الطعام. لقد أبدوا اهتماماً بمعرفة عدد الجنود الذين سيعسكرون هناك، وتحدّثنا عن الفرص التجارية. سألتُ إذا كان هناك من يمكن أن يكون مهتماً بالاستثمار في فرصة تجارية، أو يكون لديه أرض ما يستغني عنها، فأخبروني عن العقار القائم على الطريق الذي يملكه رجل يدعى موبرثْوي - بارون من نوع ما، كما يبدو، وعلاوةً على ذلك، فهو أجنبيّ».

ألقى شارلوك نظرة سريعة على ماتي وابتسم. بدا غروي غافلاً عن كونه أجنبياً أيضاً.

«لم يسبق لأحد أن رأى البارون موبرثْوي هذا. لقد اصطحب معه كل موظَّفيه الذين لم يتم استخدامهم محليًّا، ما جعله غير محبوب كثيراً من قِبَل القرويين. فكل تجهيزاتهم اشتروها من مكان آخر وليس من الجوار. بأي حال، كان صاحب الحانة يُصغي إلينا وقال إن البارون غادر البلدة في وقت مبكّر من هذا اليوم. لقد سلكت قافلةُ عرباتٍ الطريق، كما يبدو، وكانت محمَّلة بصناديق وأثاث، وفي مؤخَّر القافلة عربة سوداء بعجَلتَين. وبعد قليل، ظهر مزيد من العربات المحمَّلة بصناديق كبيرة مغطّاة بملاءات. أشتبه بأن تكون تلك الصناديق قُفرانَ النحل التي ذكرتَ، أيها الشاب. ربما استخدموا دخاناً لتهدئة النحل وحمله على النوم. هذا ما يقوم به مربّو النحل الحقيقيون إذا أرادوا نقل القُفران».

«اصطحبوا القُفران معهم؟ لماذا؟».

أومأ آميوس غروي برأسه. «إنه سؤال جيد جداً. إذا كنتَ تُخلي المكان على عَجَل، لماذا تصطحب معك كل القُفران؟ فهي ستُبطئك ويمكنك على الدوام الحصول على مزيد من النحل في مكان آخر». وفكّر لبعض الوقت. «يبدو أن فرارك أجفلهم. لم يستطيعوا المجازفة بذهابك إلى الشرطة التي ستحضر للتحقيق. لقد انتقلوا إلى مكان آخر، وعلينا أن نعرفه».

«يمكننا اللحاق بهم»، قال شارلوك.

هز غروي رأسه. «هم يسبقوننا كثيراً».

«سيكون عليهم السفر ببطء»، أصرّ شارلوك. «هم يصطحبون القُفران معهم. يمكن لشخص واحد على حصان اللحاق بهم».

«الطرقات التي يمكن أن يكونوا قد سلكوها عديدة»، كرّر غروي.

«قافلة عربات طويلة؟ سيراها الناس ويتذكرونها. ولن يسلكوا طرقات ريفية في حالة سيّئة. سيتمسكون بالطرقات الرئيسية. فهذا الأمر يخفّض الخيارات».

أطلق غروي ابتسامة عريضة. «تفكير سليم، أيها الشاب».

«فكرتَ في ذلك من قَبل؟» سأل شارلوك عابساً.

«أجل، ولكنني لم أشأ تقديم مساعدة كبيرة لك بواسطة الإجابات. أردت التحقق مما إذا كنتَ قادراً على التفكير في شيء ما، ولا سيما إذا كنتُ أدفعك في الاتجاه المعاكس». توقف غروي قليلاً، ثم أضاف: «أعرف أشخاصاً قرب منزلنا الريفي يملكون جياداً ويمكننا الاستعانة بهم لقاء شِلِنات قليلة. سأرسلهم للبحث عن القافلة. أقترح أن تعود إلى منزل عزبة آل هولمز وتُجِلّ السلام مع عائلتك. أخبرهم أنك كنتَ برِفقتي طوال الوقت، فمن شأن ذلك أن يهدّئ الأمور. سأمرّ بك غداً وأُعلمك بما اكتشفتُ».

أسرع أربعتهم عائدين في الطرقات والدروب الريفية التي قدموا عبرها حتى اقتربوا من فارنهايم تبادل الجميع تحية الوداع. توجّه ماتي إلى حيث ترك مركبه، في حين سلك غروي وفرجينيا وجهة منزلهما الريفي. ترك شارلوك حصانه يقف بهدوء للحظات، متيحاً لأحداث اليوم السابق الاستقرار في عقله والتحوّل من مزيج من الانطباعات الحسيّة المشوّشة إلى ذِكريات. أخيراً، عندما شعر بهدوء أكبر، قاد حصانه نحو منزل عزبة آل هولمز.

عندما وصل، تساءل للحظات عن المكان الذي يودِع فيه الحصان. فهو ليس له، بالرغم من كل شيء. من جهة ثانية، يبدو أن مالكه السابق قد تخلّى عنه، وهو يشبه في تهالكه الدراجة الهوائية التي تُحدث ضجيجاً. في النهاية، تركه

في الإسطبل مع كومة تِبن. فإذا وجده هناك في اليوم التالي، اعتبر الأمر دلالة على إمكانية الاحتفاظ به.

كان العشاء قد يُقدّم عندما دخل المنزل. لقد اعتمد سلوكاً طبيعياً كأن شيئاً لم يحدث، وكأن العالم لا يزال كما كان في ذلك الصباح. ألقى نظرة سريعة على ملابسه، ونفض الغبار عن سترته، ودخل غرفة الطعام.

كانت الوجبة اختباراً سوريالياً. فزوجة عمّه تثرثر كالعادة دون أن يكون لما تقوله أي معنى، وعمّه يقرأ كتاباً كبيراً أثناء تناول الطعام، مهمهماً بهمس من حين لآخر. حدّقت السيدة إيغلانتين إليه من مكانها قرب الجدار. من الصعب التوفيق بين الجوّ الهادئ والمتحضّر وبين واقع صراعه واختطافه والحكم عليه بالإعدام والفرار؛ كل ذلك جرى في الساعات القليلة الماضية. كان يشعر بجوع شديد بالرغم من تناوله اللحم في الحانة، ملأ طبَقه بشرائح دجاج ينبعث منها البخار، إضافةً إلى خضار، ثم غطى المزيج بأكمله بمرَق اللحم.

«تبدو كما لو أنك خضتَ حروباً، يا شارلوك»، قالت زوجة عمّه أثناء تناول التحلية. إنه أول سؤال مباشَر طرحته عليه يوماً.

«لقد... وقعتُ»، قال، متنبهاً للجراح المؤلمة على وجهه وأُذُنَيه. «لستُ معتاداً على ركوب دراجة هوائية».

اكتفت بالإجابة كما يبدو، وعاودت التمتمة مع نفسها، مواصلةً مونولوجها الأبدي.

غادر شارلوك بقدر كبير من التهذيب وتوجّه إلى غرفته. كان قد اعتزم القراءة لبعض الوقت، ثم تدوين بعض أحداث اليوم في دفتر يوميّات كي لا ينساها، ولكن حالما استلقى على السرير وجد صعوبة في إبقاء عينَيه مفتوحتَين، وفي غضون لحظات استسلم إلى النوم بكامل ملابسه.

استيقظ ليلاً وكان هناك ظلام في الخارج والبُوم ينعق في مكان ما في البعيد. فخلع ملابسه وانزلق تحت الغطاء الخشن، واستغرق في نوم عميق كمن يغوص في بحيرة داكنة وغامضة.

بزغ الفجر في اليوم التالي وضّاءً. كان آميوس غروي واقفاً في رَدهة الطابق السُّفلي عندما نزل شارلوك لتناول الفطور، مرتدياً بِذلة كتّان بيضاء ومعتمراً قبّعة عريضة الحافّة.

«نحن ذاهبون إلى لندن»، قال بطريقة مدوّية عندما رأى شارلوك. «عليّ الذهاب في عمل، ومنحني عمّك الإذن لاصطحابك معي. ستكون رحلة تثقيفية. سنرى بعض معارض الفنون، وسأطلعك على التاريخ المرتبط بتلك المدينة العظيمة».

«هل ستذهب فرجينيا أيضاً؟» سأل شارلوك دون تفكير، وتمنّى على الفور لو أن باستطاعته سحب الكلمات من الأثير، ولكن غروي أطلق ابتسامة عريضة فحسب بعينَين متلألئتَين. «يا للروعة، أجل»، قال. «بالكاد أستطيع تركها بمفردها في الريف الآن، أليس كذلك؟ أي نوع من الآباء يجعلني ذلك؟».

«لماذا لندن؟» سأل شارلوك بهدوء أكبر عندما بلغ أسفل السلّم.

«إنه المكان الذي توجّهت إليه قافلة العربات»، أجاب غروي بالهدوء عينه. «أشتبه بامتلاكه منزلاً آخر هناك في مكان ما».

خرجت السيدة إيغلانتين من الظلال في آخر الرَّدهة، وأصدرت تنّورتها حفيفاً لا يكاد يسمع. «يُفترض بك تناول فطورك قبل أن أرفع الطعام عن المائدة، يا سيد شارلوك الشاب»، قالت بصوت مُثقَل بكُره كافٍ ليكون مسموعاً، ولكنه غير كافٍ لشارلوك ليقابله بأي إساءة.

«شكراً لكِ»، قال، ثم استدار نحو غروي. «هل سنغادر في الحال؟».

«تناول بعض الطعام»، أجاب غروي. «ربما تكون بحاجة إليه. وضِّب حقيبة صغيرة تكفيك ليومَين. سأنتظر في العربة خارجاً». واستدار نحو السيدة إيغلانتين ورفع قبّعته ولوّح بها بطريقة مبالَغ فيها. «سيدتي»، قال، وغادر.

تناول شارلوك فطوره بأسرع طريقة ممكنة، وبالكاد استمتع بمَذاقه. لندن! هو ذاهب إلى لندن! وإذا كان محظوظاً حقاً فقد يتمكن من رؤية مايكروفت أثناء وجوده هناك!

كان آميوس غروي ينتظر في عربة مزوَّدة بأربع عَجَلات خارج منزل عزبة آل هولمز، وفرجينيا جالسة بجانبه. لقد بدت غير مرتاحة إما بسبب فستانها المزركش والقبّعة التي تعتمرها، وإما لأنها ستنحشر في العربة بدلاً من وجودها في الهواء الطَّلْق.

«تبدين مفرطة التأنّق»، قال شارلوك أثناء جلوسه في المقعد المقابل لها بينما كان السائق يضع حقيبته في الأعلى مع بقيّة الأمتعة. فنظرت إليه عابسة.

لقد طغت طقطقة العَجَلات على جوابها مع انطلاق العربة على طريق مكسوٍّ بالحصى، ولكن شارلوك لم يكن واثقاً من رغبته في سماعه بأي حال.

حين وصلوا إلى محطة فارنهايم، كان ماتي بانتظارهم. ابتسم له آميوس غروي. «لقد تلقّيتَ رسالتي إذاً؟».

«أيقظني الرجل الذي سلّمني إيّاها. كيف عرفتَ مكان رُسُوّ مركبي؟».

«يتمثل عملي بمعرفة مكان وجود كل شيء. إنه عملي ومتعتي الخاصة أيضاً. هل ترغب في رحلة، أيها الشاب؟».

«ليس لديّ ثياب غير هذه التي أرتديها»، قال ماتي.

«سنشتري لك كل ما تحتاج إليه في لندن. الآن، لِنحصلْ على تذاكرنا».

اشترى غروي أربع تذاكر درجة ثانية إلى لندن، ونزل رفاق السفر إلى رصيف المحطة، في حين تولّى الحوذي مهمة إنزال حقائبهم من العربة. لقد حسب الوقت بشكل دقيق، وبعد عشر دقائق، وصل القطار الأشبه بوحش ضخم، وكان طرفه الأمامي الأنبوبيّ الشكل ينفث بخاراً، ومِكبساته تتحرك صعوداً ونزولاً كآليّة عمل الساعة، أما عَجلاته المعدنية، والتي هي بحجم شارلوك تقريباً، فكانت تئز على سكة الحديد.

«قاطرة من طراز جوزف بياتي «ساكسون»»، أشار آميوس. «يُشار إليه بـ 2-4-0. يا شارلوك، هل يمكنك أن تقول لي السبب؟».

«سبب إطلاق عليه تسمية ساكسون أو 2-4-0؟».

أومأ آميوس برأسه. «تعتمد عمليةُ جمعِ معلومات ملائمة، في المقام الأول، على صياغة السؤال بالطريقة الملائمة»، أوضح. «عنيتُ تسمية 2-4-0. أشتبه بأن تسمية ساكسون هي مَيل تاريخي لدى المهندس. لقد صمّم أيضاً محرِّكاً دعاه نيلسون».

جال شارلوك بنظره على المحرّك، ولاحظ أن العَجَلات لا تفصل بينها مسافة متساوية، ولكنها مجموعة معاً. «أقول إن هذه التسمية تعود إلى طريقة ترتيب العَجَلات»، قال مغامراً، «ولكن لا يمكن أن يكون واقع الحال».

«في الواقع، إنه واقع الحال»، أجاب غروي. «هناك عَجَلتان على مِحور واحد في الأمام تدوران على مرودهما بشكل مستقل كي تتيحان للمحرّك اجتياز سطوح متقوّسة. وهناك أربع عَجَلات متصلة بالمحرّك نفسه على مِحورَين. تلك هي العَجَلات التي تُمَدّ بالطاقة».

«وماذا عن 0؟» سأل شارلوك.

«لبعض المحرّكات مجموعة عَجَلات في الخلف»، أجاب غروي. يشير الـ 0 إلى أن هذا المحرك لا يملك تلك المجموعة الثالثة من العَجَلات».

«إذاً، إنه عدد يشير إلى عدم وجود رقم»، قال شارلوك.

«صحيح»، وابتسم غروي. «قد لا يكون عملياً، ولكنه منطقيّ بشكل واضح إذا وافقتَ على النظام الذي اختاروا اعتماده».

عثروا على مقطورة لهم، واستعدّوا للرحلة. لم يسبق لشارلوك أن سافر بالقطار، وكان كل شيء جديداً بالنسبة إليه: ذبذبة المقاعد والجدران والنوافذ أثناء تحرّك القطار، الدخان المنجرف ذو الرائحة العَذبة على نحو غريب، طريقة مرور الريف بجانبهم بسرعة وتبدّله الدائم بالرغم من تناغمه الغريب. كان ماتي عصبيّ المِزاج وجاحظ العينَين، فاشتبه شارلوك بأنه لم يسبق للفتى أن اختبر رفاهيةَ مقصورة الدرجة الثانية، حتى ولو كانت رفاهية محدودة.

كانت الغابات تمرّ بجانبهم بسرعة، مُفسحةً الطريق لحقول لم تكن النباتات المزروعة فيها ذُرة أو قمحاً أو شعيراً. إنها نباتات بنّية اللون، طويلة ونحيفة، مع أوراق خضراء صغيرة ملتفّة بشكل لولبي على قضبان بارتفاع خمس أقدام أو ست مثبَّتة في الأرض. كان شارلوك على وشك أن يسأل غروي عن ماهيّتها عندما انحنى ماتي إلى الأمام ليُلقي نظرة بعد أن لاحظ اهتمام شارلوك.

«جُنجُل»، قال بإيجاز. «لأجل مصانع الشراب. تمتاز هذه المنطقة بجودة الشراب الذي يصنع منها. هناك ثلاثون حانة في فارنهايم بمفردها».

وهكذا، تواصلت الرحلة التي تخلّلها تغيير القطار في غيلدفورد حتى بلغوا آخر خط سكة الحديد في محطة واترلو العظيمة في حاضرة لندن الناشطة تلك.

إنه المكان حيث يقيم مايكروفت هولمز ويعمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

محطة قطارات واترلو كتلة بشر يتحركون في كل اتجاه بسرعة، حاملين كل أنواع العلب، والزِّرم، والحقائب، والصناديق، تحت سطحٍ ضخم من معدن مقنطَر وزجاج. لقد زاد الزجاج دفء الشمس، جاعلاً المحطّة أكثر سخونة من الشوارع المحيطة بها. تدخل القطارات أرصفتها، متماوجة، وتقذف مزيداً من الناس، نافثةً سُحُب بخار تضيف إلى الدفء دفئاً. شعر شارلوك بالعرَق يتجمع تحت ياقته.

استخدم آميوس غروي حمّالاً في الحال كي يُخرج حقائبهم من القطار. بعد ذلك، اقتادهم الحمّال إلى الخارج حيث يوجد صفّ عربات هنسومية([6]) يصعد إلى متنها ركّاب واقفون في طابور طويل. وأقنع نصفُ بنس إضافيّ حمّالَهم كي يصطحبهم إلى حيث تُنزل عرباتٌ أوصلت للتوّ ركّاباً قبل الانضمام إلى الصف لانتظار ركّاب مغادرين. وبعد لحظات قليلة من المساومة، صعدوا إلى متن عرَبة عبر أحد البابَين أثناء خروج شاغليها السابقين من الباب الآخر.

بدا آميوس غروي معتاداً على لندن، فطلب من السائق أخذهم إلى فندق ساربونييه. خبّت العربة، ومدّ شارلوك رأسه خارج النافذة لمشاهدة المناظر الطبيعية، في حين مدّ ماتي رأسه خارج النافذة الأخرى.

إن حجم المباني كبير جداً مقارنةً مع حجم مباني فارنهايم، وغيلدفورد، والبلدات الأخرى التي اعتاد شارلوك عليها. فكثير منها مكوَّن من خمسة طوابق أو ستة، ومزوَّد بأعمدة تَسند أروقةً معمَّدة فوق أبوابها الأمامية، كما تسند صفوفَ منحوتات على امتداد حافّات الأسطح لأشكال بشرية ومخلوقات خرافية ذات أجنحة وقرون وأنياب قائمة على امتداد حوافّ الأسطح.

في غضون لحظات قليلة، عبروا جسراً ممتداً فوق نهر واسع.

«نهر التايمز؟» سأل شارلوك.

«أجل»، قال غروي. «إنه أحد الأنهر الأكثر قذارة وازدحاماً وشرًّا ولم يُسعدني أبداً اختباره».

بلغت العربة الضفة الأخرى من النهر، وقامت بالتفافات قليلة حتى وصلت إلى خارج مبنى طويل مبنيّ بحجارة برتقالية. قفز الحوذي وساعد في إنزال الحقائب، وخرج ثلاثة حمّالين من باب دوّار في الناحية الأمامية للمبنى وحملوا الحقائب.

عندما دخلوا الرَّدهة المثيرة للإعجاب- أعمدة بيضاء مع قواعد منحوتة، فسيفساء في السقف وبلاط زهريّ اللون على الأرض- توجّه آميوس غروي بخطوات واسعة نحو طاولة خشبية طويلة.

«ثلاث غرف لليلتَين»، قال للرجل الذي يرتدي بِذلة رسمية وراء الطاولة.

أومأ الرجل برأسه. «بالطبع، يا سيدي»، قال، مادًّا يده لتناول ثلاثة مفاتيح من لوحة وراءه، واستدار وأضاف، «هلاّ تفضّلتَ ووقّعتَ على دفتر الضيوف، يا سيدي».

وقّع غروي بخط منمَّق، وسلّمه البوّاب المفاتيح. إنها معلَّقة بكُرات نحاسية كبيرة كي لا تضيع بسهولة، على الأرجح، قال شارلوك في نفسه.

«يا شارلوك، ماثيو، ستكون لكما غرفة»، قال غروي، مسلّماً إيّاهما مفتاحاً. «ستكون لفرجينيا غرفة، والغرفة الثالثة لي. سيتم نقل حقائبكم إلى غرفكم. ماثيو، أقترح أن تتوجه معي إلى مكان ما حيث يمكننا الحصول لك على بعض الملابس ومستحضرات النظافة». وحدّق إلى ماتي بطريقة متفحّصة. «ومصفّف شعر»، أضاف. «شارلوك، فرجينيا، أقترح أن تذهبا في نزهة على الأقدام في الخارج. استديرا إلى اليمين وسيرا حتى آخر الشارع تجدان شيئاً ما قد يثير اهتمامكما. عودا بعد ساعة لأجل الغداء. إذا تهتما، اطلبا من أحد أن يدلّكما على طريق العودة إلى فندق ساربونييه».

اصطحب شارلوك فرجينيا إلى الخارج، استجابة إلى طلب غروي، وانعطفا إلى اليمين، وسارا على الفور مع جمهور الناس الذين يقصدون الوُجهة نفسها. لقد قلق شارلوك من إمكانية انفصالهما، فمدّ يده ليسحب فرجينيا إلى مسافة أقرب منه، ولكنها شبكت يدها الدافئة والليّنة بيده للحظات، فشعر أن قلبه ينبض بمقدار الضعف، وألقى عليها نظرة سريعة، مُجفَلاً. فابتسمت له بالمِثل بحَياء.

استغرقهما الأمر دقائق قليلة ليبلغا نهاية مجمَّع المباني السكنية. اتّسع الطريق وتحوّل إلى ميدان مترامي الأطراف يتوسّطه عمود طويل. لقد اعتقد شارلوك للحظات أن رجلاً يقف على أعلى العمود، وارتدّ عقله فجأةً إلى منزل عزبة آل هولمز، وعمّه الذي تكلّم على مائدة العشاء ذات ليلة عن النسّاك الزاهدين الذين تخلوا عن حياتهم وعائلاتهم كي يعيشوا على أعلى الأعمدة، متأمّلين طبيعة الله، ومتناولين فقط ما يرمي لهم المارّة. وأدرك أن الشكل البشري في أعلى العمود ليس رجلاً بل تمثالاً نُحِت ليبدو كما لو أنه يرتدي بِذلة رسمية بَحرية.

«من هو؟» سألت فرجينيا، مندهشة.

«أعتقد أنه قائد الأسطول البحري الحربي، نيلسون»، أجاب شارلوك، «ما يجعل هذا الميدان ساحة ترافالغار التي تخلّد ذكرى انتصارٍ بَحريّ شهير عام 1805».

عند قاعدة العمود نافورتا ماء يتوهّج رذاذهما بألوان قوس قزح تحت نور الشمس الساطعة. إنه وسط لندن، وهذه هي النقطة المركزية لإمبراطورية تمتد إلى الجانب الآخر من العالم.

وفي مكان ما في الجوار، ربما يجلس شقيق شارلوك، مايكروفت، إلى طاولته، مساعداً على تسيير شؤون الإمبراطورية.

جالا في ساحة ترافالغار لبعض الوقت، وهما يراقبان الناس ويتأملان المباني الجميلة القائمة على امتداد الطرقات، ثم عادا إلى الفندق، ووصلا في الوقت المحدَّد. كان آميوس غروي واقفاً في البَهو بانتظارهما، وبرفقته فتى في سنّ ماتي آرنات تقريباً، ولكنه مرتَّب الشعر، محتشِم الملابس، ومتجهّم الوجه. لقد تطلّب الأمر لحظات قليلة كي يُدرك شارلوك أنه ماتي.

«لا تفعل»، حذّر ماتي. «لا تفعل... فحسب».

ضحك شارلوك وفرجينيا.

دخل الأربعة معاً إلى غرفة الطعام، وطلبوا غداءً. كانوا مُحاطين بنساء بملابس حريرية، وبِطاناتِ تنانير، وريش طاووس، وقبّعات، وقفّازات، ورجالٍ بشوارب لمّاعة وسترات سوداء تبلغ الرُّكبتَين، ولكن أحداً لم يُلقِ عليهم نظرة ولو سريعة. لقد قُبِلوا كعائلةٍ تشاهد مناظر عاصمة البلد الأكثر أهمية على وجه الأرض.

قُدِّم لشارلوك قِطع لحم من رقبة خروف مطهوّة جيداً مُرفَقة ببطاطا وقرنيات. واختار ماتي وآميوس غروي قِطع لحم بقريّ وبودِنغ، في حين جازفت فرجينيا، الأكثر حباً للمغامرة، بتناول دجاج مع صلصة فرنسية وذُرة بالفُلفُل وقِشدة.

أثناء تناولهم الطعام، أطلعهم آميوس غروي على سبب وجودهم هناك.

«أرسلتُ مُسبَقاً برقية إلى رجل أعرفه في هذه المدينة البعيدة. إنه شريك في العمل نوعاً ما».

تساءل شارلوك عن نوع العمل الذي يقوم به غروي لأنه لم يذكر الأمر من قَبل، ولكن الأميركي واصل الكلام.

«سألتُه عن الطريق الذي سلكته قافلة العَرَبات، وطلبتُ منه اعتراضهم ومعرفة وُجهتهم النهائية. لقد أطلعتُه على مكان إقامتي، وأرسل لي للتوّ

برقيّة جوابية يقول لي فيها إن العَرَبات أفرغت حمولاتها وصناديقها المتنوعة، وما شابه، في مستودع في مكان يدعى روثرهيث. وأطلعني على مكان المستودع».

«روثرهيث؟» سأل شارلوك.

«إنها على بُعد أميال قليلة من مصبّ النهر؛ مكانٌ غير مستساغ حيث يبحث البحّارة عن المُتعة بين سفر وآخر، وتُخزَّن السِّلع قبل أن تُحمَّل إلى متن السُّفن. ليس مكاناً ترغبون في ملازمته بعد حلول الظلام». وهزّ رأسه بحزن. «ما كنت لأجازف باصطحابكم إلى هناك، ولكن المسألة على درجة كبيرة من الأهمية. البارون يُعِدّ لأمر ما، وهذا الأمر مهم بما يكفي كي يكون مستعداً للقتل في سبيله. لقد سبق له أن قتل. لن يُحجم أبداً عن التخلص منكما كما يدوس على عنكبوت. تكمن المشكلة في أننا بحاجة للتحقّق من أن الصناديق التي كانت في العَرَبات هي قُفران النحل التي رأيتَها في فارنهايم، ويعني ذلك أنني بحاجة إليك للقدوم إلى روثرهيث كي تُلقي نظرة، يا شارلوك. ولكنني أحذّرك! ربما يكون الأمر خطِراً، خطِراً حقاً».

أومأ شارلوك برأسه ببطء. «سأجازف. أريد أن أعرف ما يجري، ولماذا يواصل محاولة قتلي».

ألقى غروي نظرة سريعة على ماتي الذي يغرف قُرنيات إلى داخل فمه بواسطة مِلعقة. «بالنسبة إليك، أيها الشاب، أعتقد أنك رأيتَ حصّتك المُنصفة من أرصفة المرافئ والمستودعات، نظراً إلى قضاء حياتك مسافراً على متن مركب ضيّق. وأعتقد أيضاً أن باستطاعتك تدبّر أمرك في قتال».

قال ماتي بفم مليء بالقرنيات «إذا نشب قتال أهرب. وإذا لم أستطع الهروب، أوجّه لكمات منخفضة ومؤلمة».

«ما كنتُ لأشرح الأمر بشكل أفضل». وأومأ غروي برأسه. «سأرافقكما، بالطبع، ولكننا ربما نضطر للانفصال لمراقبة مناطق مختلفة».

«وماذا عني؟» كان صوت فرجينيا عالي الطبقة بسبب الغيظ، والتمعت عيناها البنفسجيّتان بشكل ينمّ عن خطورة. «ماذا أفعل؟».

«تبقين هنا»، قال غروي عابساً. «أعرف أن باستطاعتك تدبّر أمرك في شجار، ولكنك لا تعرفين ما قد يحدث لشابة في روثرهيث. الناس المقيمون هناك هم أسوأ من الحيوانات. لن أسامح نفسي أبداً إذا حدث لك أي شيء، لا سيّما بعد...» وكفّ عن الكلام بشكل فجائيّ. نظر شارلوك إلى فرجينيا، فرأى عينَيها تتلألآن فجأةً. «ابقَي هنا»، كرّر غروي. «إذا انفصلنا، نحن بحاجة إلى وجود شخص ما هنا يمكنه تلقّي رسائل ونقلها. هذه هي مهمتك».

أومأت فرجينيا برأسها دون أن تقول شيئاً.

نظر غروي إلى الفتَيَين. «عندما تكونان مستعدَّين سننطلق».

أثناء عبورهم بَهو الفندق، إستدار شارلوك ونظر إلى فرجينيا. كانت تحدّق إليه، وحاولت أن تبتسم، ولكن سيماء وجهها تحوّلت إلى التواءِ قلَق على شفتَيها. ابتسم لها بالمِثل لطمأنتها، ولكنه اشتبه بأن التعبير الماثل على وجهه ليس مُقنِعاً أكثر من سيماء وجهها.

وبدلاً من أن يستقلّوا عربة هنسومية إلى روثرهيث، إصطحب غروي الفتَيَين إلى ضفة التايمز حيث يؤدي الدَّرج الحجري المكسوّ ببُقع طحلبية خضراء إلى نهر بنّي اللون تفوح منه رائحة مقزِّزة. كانت الضفة البعيدة محجوبة بضباب من دخان وأبخرة سامّة مائلة للّون البنّي تنبعث، كما يبدو، من النهر نفسه. وهناك مركب يتمايل على الماء إلى الأعلى والأسفل، ويجلس مالكه في مقدَّم المركب، يدخّن غليوناً.

«روثرهيث»، قال غروي بوجه متجهّم، رامياً قطعة نقود معدنية. فأومأ البحّار برأسه، ملتقطاً قطعة النقود بمهارة وقاضماً إيّاها للتحقق من أنها حقيقية. استقرّ غروي والفَتَيان داخل مؤخَّر المركب أثناء قيام البحّار بدفع المركب عبر الماء بمِجذافَيه.

وجد شارلوك الرحلة غريبة ومُزعجة. كانت المياه تصطدم بقعر المركب، وهناك أشياء طافية على سطح الماء حاول شارلوك عدم النظر إليها: نفايات بشرية، جرذان مَيتة، وقِطَع خشب مُشبَعة بالماء مغطّاة بأعشاب ضارّة. كانت الرائحة كريهة جداً لدرجة اضطراره للتنفس من فمه، شاعراً بمَذاق الرائحة تكسو لسانه ومؤخَّر حَلْقه، وحمله ذلك على كَمّ فمه. في إحدى المراحل، خرج مركب آخر من الظُّلمة ومرّ بقربهم. فأطلق أحدهم لعنة وأجاب بحّارهم بإيماءة لم يسبق لشارلوك أن رآها من قَبل، ولكنه تمكّن من فهم معناها بشكل جيد.

دامت الرحلة إلى روثرهيث عشرين دقيقة تقريباً، ونزلوا على درج لا يمكن تمييزه تقريباً عن ذلك الذي صعدوا عليه إلى متن المركب. وتقدّمهم غروي إلى الأعلى.

على امتداد ضفة النهر كان هناك ممرّ ضيّق مرصوف بحجارة خشنة سلَكه غروي، متقدِّماً ماتي وشارلوك. مرّوا بمبانٍ شاهقة تحتوي على مستودعات وجدران من الآجرّ، كان غروي يتبع حافة التايمز النتِن الرائحة، ويسير في الظل كلما أمكن. بعد عشر دقائق تقريباً، توقف. كانت هناك إحدى الحانات في الناحية المقابلة له والتي يمكن العثور عليها في كل مكان من المدينة.

تصاعدت من المداخل والنوافذ موسيقى متنافرة لبيانو غير مدوزَن جيداً، إضافةً إلى خليط مشوَّش من الأصوات تغنّي كلمات متباينة على اللحن عينه. كانت مجموعة من النساء يقِفنَ في أحد المداخل، نظرنَ إلى آميوس غروي باهتمام قبل أن يستدرنَ عندما رأينَ شارلوك وماتي.

«أعتقد أن المستودع يقع وراء الزاوية»، تمتم غروي. كان انتباهه مركَّزاً على محيطهم، باحثاً عن تهديدات محتمَلة. «أقترح أن نقوم بالتحقّق من موقع الأرض ونستقرّ لبعض الوقت».

«ماذا لو رآنا أحد؟» سأل شارلوك.

«كنتُ صياداً في ألبوكيرك»، قال غروي. «لقد تتبّعت أثر بعض الوحوش الأكثر خطورة. هناك أمور يمكنك القيام بها لتقليل فُرَص اكتشافك. لا تُقِم اتصالاً بصرياً، بادئ ذي بدء، لأن كل الحيوانات ترى العيون في الحال. انظر إلى الأشياء من زاوية عينك، فذلك أكثر حساسية من النظر مباشَرةً، عِلماً أنك لا تميّز الألوان جيداً. لا تتحرك إذا تمكنتَ من تمالك نفسك لأن العين مُعَدّة لرؤية حركة لا أشياء جامدة. ارتدِ ملابس باهتة لا تحتوي على أي ألوان لا تراها في الطبيعة: اللون الرمادي للحجارة، اللون الأخضر للطَّحلُب، اللون البنّي للتراب. ولا ترتدِ أي معدن لأنه لا يمكن العثور عليه في الطبيعة بكمّيات كبيرة. اتّبع تلك القواعد وتستطع حينذاك الوقوف بمحاذاة جدار من الآجرّ دون أن يتمكن أحد من رؤيتك، فتمرّ أنظارهم عليك حتى يعثروا على شيء آخر أكثر أهمية».

«يبدو الأمر أشبه بالسِّحر»، قال شارلوك، غير مقتنع.

«كل الأمور تبدو أشبه بالسِّحر حتى تعرف كيفية القيام بها». وألقى نظرة سريعة متفحِّصة على الفتَيَين. «تلك الجراح على وجهك ستساعدك على الاختلاط بالأشخاص، يا شارلوك، ولكنكما أنيقا المظهر قليلاً بالنسبة إلى هذا الحيّ. عليّ وضع بعض القذارة عليكما». ونظر من حوله. «حسناً، أريدك أن تتدحرج على الحجارة لبعض الوقت. ضَع بعض الغبار على ملابسك».

«ألن يكون ذلك محطّ رِيبة؟» سأل شارلوك.

«لا إذا كان لاتساخك سبب»، شرح غروي. «ماتي، ادفع شارلوك بخشونة هنا على صدره».

«ماذا؟» أجاب ماتي.

«قُم بذلك فحسب. شارلوك، وجّه له لكمة على كتفه من الخلف».

وأشرق نور الفهم على عقل شارلوك. «وينتهي بنا الأمر متصارعَين في التراب، ما يساعد ملابسنا على التمازج ويجعلنا جزءاً من المنطقة. لو كنا سكاناً محليّين، لَما تقاتلنا على الطريق».

«بالتحديد»، قال غروي، موافقاً.

كان شارلوك على وشك السؤال عن المدة التي يتعيّن عليهما التعارك فيها عندما دفعه ماتي بخشونة على صدره. «قلتُلك!» صاح.

كبت شارلوك رغبته الشديدة الفجائية في لكم ماتي على فكّه، مستعيضاً عن ذلك بلكمه على كتفه. «لا تجرؤ»، صرخ، شاعراً بقليل من الإحراج.

وانقضّ ماتي على شارلوك، موقعاً إيّاه أرضاً. وما هي إلا لحظات حتى بدأ الاثنان بالتدحرج في الأرجاء، مُحدِثَين سُحُباً من الغبار من حولهما. فأحكم شارلوك قبضته على ذراع ماتي، ولكن ماتي أطبق أصابعه على شعر شارلوك وسحب رأسه إلى الوراء.

كان شارلوك على وشك نسيان تظاهره بالقتال عندما أطبقت يدا آميوس غروي الضخمتان على كتفه وكتف ماتي، رافعاً إيّاهما ليقفا على قدمَيهما. «أحسنتما، أَوقفا القتال»، قال، مستخدماً صوته الإنكليزي ثانيةً، ولكن بفظاظة أكبر هذه المرة.

وقف الفَتَيان وجهاً لوجه، محاولَين كبت ابتسامات بالرغم من الغضب الذي يتآكلهما. ألقى شارلوك نظرة سريعة على نفسه، ووجد أن سترته ممزَّقة عند الكمّين، وكل شيء مغطى بالغبار وشَعرِ الجياد وأشياءٍ لم يشأ حقاً التفكير فيها.

«لا تقلق»، قال غروي. «ستزول عن ملابسك. وإذا لم تَزُل، سنشتري لك مزيداً من الملابس. يمكن استبدال المقتنيات على الدوام. يعرف صياد بارع أن بالإمكان التضحية بأي شيء مادّي أثناء تتبّع الطريدة».

«أي نوع من الحيوانات اصطدتَ؟» سأل ماتي.

«لم أقل إنها حيوانات»، تمتم غروي.

وقبل أن يطلب منه الفَتَيان إيضاح كلامه، سار مبتعداً. فتبعاه، متبادلَين نظرات قلقة.

توقف غروي عند زاوية وألقى نظرة سريعة وراءها. «المستودع في الناحية المقابلة»، قال بهدوء. «شارلوك، ابقَ هنا. اجثم هنا على الأرض والعب بشيء ما، بعض الحجارة إذا تمكنتَ من العثور عليها. تذكّر: لا تُقم اتصالاً بصرياً، بل

راقب ما يجري من زاوية عينك. ماتي، تعالَ معي، يمكنك تغطية الظّهر، أما أنا فسأتنقل بينكما».

«عمّ تبحث؟» سأل شارلوك.

«عن غرض خارجٍ عن المألوف. شيء ما يمكنه أن يطلعنا على ما يجري هنا».

سار غروي وماتي مبتعدَين، ويد غروي على كتف ماتي. لقد اتّبع شارلوك التعليمات، فجلس على وَرِكَيه وسحب أحد الحجارة من الوحل، مدحرجاً إيّاه إلى الأمام والخلف. إنها لعبة مُمِلّة، ولكنها كافية لجعله يبدو جزءاً من منظر طبيعيّ، ووجد أنه لا يزال قادراً على رؤية ما يجري من حَوله من زاوية عينه أثناء تظاهره باللعب.

كان المستودع بناءً من الآجرّ مع واجهة مكوَّنة في معظمها من بابَين خشبيَّين عريضَين يفتحان إلى الخارج في اتجاه الشارع. لم يكن هناك أي شيء مثير للرِّيبة، فتساءل شارلوك عما إذا كانوا يراقبون المكان الصحيح أم أنه مبنى اختير بشكل عشوائي.

عاد آميوس غروي بعد مرور ما بدا أنه ساعات، ولكن الوقت الذي مرّ ربّما لم يناهز ربما نصف ساعة. بدا أشعث الشعر بالرغم من ارتدائه الملابس نفسها ولم يوسّخها كما وسّخ شارلوك وماتي ملابسهما. فسترته مزرَّرة بشكل خاطئ، مانحةً إيّاه مظهراً مائلاً، وقميصه مدلّى خارج بنطاله. كان يلوّح قليلاً ويحدّق إلى الأرض أمام قدمَيه مباشَرةً، وتوقف قرب شارلوك وارتمى على الجدار.

«كل شيء بخير؟» تمتم.

«لم يحدث شيء»، أجاب شارلوك بهدوء مماثل.

«أنت بخير؟».

«أشعر بالملل».

ضحك غروي في سرّه. «أهلاً وسهلاً بك في عملية المطاردة. أوقات طويلة من الملل تتخللها لحظات تنشيط وذُعر». كفّ عن الكلام، ثم تابع: «أعتقد أن باستطاعتي التجوال داخل تلك الحانة لبعض الوقت لأتحقق مما يقال».

«حسناً. ألا يمكنك إرسال كوب ماء لي؟».

«يا بُنَي، من الأفضل لك شرب ماء التايمز على شرب ماء من أي حانة هنا. إذا كنتَ جائعاً أو عطشاناً، سجِّلِ الواقع فقط ثم ضعه جانباً. لا تُطِل التفكير

فيه. يمكن للمرء عدم شرب الماء طيلة ثلاثة أو أربعة أيام. واصل قول هذا الأمر لنفسك».

«يسهل عليك قول ذلك».

ضحك غروي.

«هل يمكنني أن أسألك عن أمر ما؟» قال شارلوك، راغباً في إبقاء غروي هناك للحظات قليلة إضافية.

«بالتأكيد».

«ماذا تفعل في إنكلترا؟ ما ذاك العمل الذي ذكرتَه سابقاً؟».

ابتسم غروي دون ظهور أَمارات حسّ الفكاهة على وجهه، وألقى نظرة بعيدة دون إقامة اتصال بصري مع شارلوك. «لستُ هنا كي أكون مدرِّساً خصوصياً، إنه أمر مؤكد»، قال بهدوء، «عِلماً أن هذا الأمر يغدو تسلية لي. لا، ما يُبقيني هنا... حسناً، لِنقُل إنها الحكومة الأميركية لتسهيل عملية البحث عن أشخاص ارتكبوا جرائم وشروراً، وأعمالاً أكثر ترويعاً إبّان الحرب الأهلية الأخيرة، وفرّوا من البلد قبل أن تطالهم يد العدالة. هكذا تعرّفتُ إلى شقيقك، لقد وقّع الاتفاقية التي تسمح لي بالوجود هنا. ولهذا السبب أقوم بتطوير شبكةِ أشخاص مفيدين، ولا سيما في أحواض السفن والموانئ. لذلك، عندما قلتَ لي إن البارون يسرّع مخططه، أيًّا يكن هذا المخطط، وجّهتُ تعليمات بالبحث عن عرباته. وعليّ القول إنني تفاجأت بعثور رجالي عليها بسهولة». والتفت إلى الوراء في اتجاه شارلوك. «هل أشبعتُ فُضولك؟».

فأومأ شارلوك برأسه.

«لم أُطلع أشخاصاً كثيرين على ذلك»، أضاف غروي. «أكون ممتنًّا إذا احتفظتَ بهذه المعلومة لنفسك». وغادر قبل أن يتمكن شارلوك من إضافة أي شيء.

واصل شارلوك ممارسة لعبته، مدحرجاً الحجر الأسود إلى الأمام والخلف، مع مرورِ الدقائق واحدةً تِلوَ أخرى. وواصل مراقبة أبواب المستودع التي بقيت مُحكَمة الإغلاق دون وجود أي حركة. كان قد شرع بالتفكير في أنهم في خضم مطاردة عقيمة.

لقد جعله تصعيد فجائيّ لضجيج صادر من خلفه يلتفت إلى الوراء وينظر، ولكنه كفّ عن ذلك في الوقت المحدَّد. ترك الحجر يبتعد قليلاً، واستدار لاستعادته، تاركاً أنظاره تنجرف إلى الأعلى لرؤية الحانة. كان أحد البابَين مفتوحاً وتخرج منه مجموعة رجال في أعلى درجة من الثمالة. لقد تبادلوا

...

المُزاح لبعض الوقت، ثم استداروا وساروا في اتجاهه. ركّز على حجره وأصغى إليهم متبيناً ما كانوا يقولون أي شيء عن المستودع، أو قُفران النحل، أو البارون موبرثْوي، أو أي شيء على علاقة باللغز.

«متى ننتقل؟» قال أحدهم.

«عند بزوغ الفجر صباح غد»، أجاب آخر. كان هناك شيء مألوف في صوته، ولكن شارلوك لم يتمكن من معرفته.

«من يملك جدول الخدمة؟» سأل صوت ثالث.

«إنه في رأسي»، أجاب الرجل الثاني. «أنت تتوجّه إلى ريبون، ويذهب سْناغر إلى كولشستر، ونيكلسون إلى وولويتش، وأنا أعود إلى ألدرشوت».

«ألا يمكنني الذهاب إلى أسكوت بدلاً من ذلك؟» سأل صوت بلكنة شمالية؛ الشاب نيكلسون على الأرجح.

«تذهب إلى حيث يُطلب منك الذهاب، يا إشراقتي»، أجاب الرجل الثاني. وأثناء تكلّمه، مرّ قرب شارلوك، واصطدمت قدمه بالحجر، فركله قاذفاً إيّاه إلى الجانب الآخر. ألقى شارلوك نظرة سريعة، عن غير عَمد، والتقت أنظاره أنظارَ الرجل.

إنه دِني، الرجل الذي سبق لشارلوك أن تبعه إلى المستودع في فارنهايم، الرجل الذي كان هناك عندما قفز صديقه كليم إلى المركب الضيّق لمهاجمة شارلوك وماتي، الرجل الذي يعمل لصالح البارون موبرثْوي.

لم يتمكن شارلوك من تجنّب الأمر. لقد احمرّ وجه دِني من فَرط الغضب.

تدحرج شارلوك بعيداً أثناء امتداد الأيدي في اتجاهه، ووقف على قدمَيه وركض بأقصى سرعة. أراد الركض في اتجاه الحانة حيث يوجد آميوس غروي، ولكنه وجد الرجال بينه وبين باب الحانة، ركض مبتعِداً أكثر فأكثر عن غروي وماتي، وأي شيء يعرفه.

لاحقه وَقعُ الخُطى بصوت مكتوم يتردد صداه على جدران المباني أثناء ركضه أمامها. كان نفَسه يقشط في حَلْقه، وقلبه يخفق كشيء حيّ عالقٍ داخل قفصه الصَّدري يناضل للخروج. لقد شعر مرتَين بأصابع تلمس قفًا عُنُقه للإمساك بياقته، وتعيّن عليه الإفلات مرتَين بعد استجماع طاقته بشكل مسعور والركض بأقصى سرعة. كان مطاردوه يزمجرون أثناء ركضهم، وباستثناء ذلك وصوتِ جزماتهم المكتوم وخفقانِ قلبه، جرت المطاردة بصمت تام.

عند منتصف الطريق، وجد شارلوك أن الممرِ ينتهي بجدار من الآجرّ، فاتسعت عيناه. لقد وقع في الفخ! استدار محاولاً بشكل يائس معرفة ما إذا كان يملك وقتاً كافياً للعودة والعثور على طريق آخر، ولكنه وجد الرجال يُطبِقون عليه. لاحظ بهدوء مروَّع وجود خمسة منهم شاهرين سكاكين وعصيًّا غليظة، وأدرك أنه لن يتمكن من النجاة بنفسه.

فجأةً، دوّى في رأسه صوت شديد الوضوح، ولم يعرف ما إذا كان صوت شقيقه، أو صوت آميوس غروي، أو صوته، ولكنه قال: «تؤدّي الممرات والطرقات من مكان إلى آخر. من غير المنطقي أن ينتهي ممرّ بجدار من الآجرّ؛ لا هدف من ذلك، لذلك لا يُفترض بناؤه أبداً».

دار شارلوك على مِروده ونظر إلى الوراء، تاركاً نظره يتفحّص بناء الآجرّ في الممر. لا أبواب، لا نوافذ، لا شيء باستثناء رُقعة ظِلّ في زاوية لا يستطيع نور الشمس الخامد اختراقه.

إذا كان هناك مَخرج، فلا بد أن يكون الجدار المَخرج.

ركض إلى داخل الظلال. فإذا لم يكن هناك شيء، يكون قد ركض إذاً في اتجاه بناء الآجرّ مباشَرةً، ولكنه وجد فجوة صغيرة يستطيع الهرب من خلالها.

كان الزقاق الضيّق يمتد بين مبنيَين. فركض بأقصى سرعة على امتداده، وهو يسمع صيحاتِ إحباطٍ وراءه أثناء محاولة الرجال تلمّس طريقهم في الظلام، محاولين اللحاق به في صف واحد متعثّرين، وصدى نخير أنفاسهم يتردّد على جدران الآجرّ الشديدة الانحدار.

سار شارلوك بشكل متعرّج عبر الظُّلمة، تعثّر وخرج إلى طريق واسع تقوم على جانبَيه أبواب. ركض وهو يستمع إلى أصوات الجزمات تدوس على الحجارة وراءه، وانزلق يساراً إلى داخل ممر آخر، فكسب بضع ياردات إضافية. وثب كلب من فجوة في الجدار أثناء مروره، ولكنه تمكن من تجنّب أسنانه التي أطبقت على الهواء. ارتدّ الكلب على الرجال الذين يطاردون شارلوك، فسمع نُباحاً غاضباً وشَتْماً أثناء محاولة الرجال التخلّص من الكلب. وجفل لدى سماع صوت جزمة تدوس بصوت مكتوم على شيء طريّ، وحين علم أنّ الكلبُ لاذ بالفرار.

اندفع إلى زاوية أخرى، فاصطدم بأقصى سرعة برجل وامرأة يسيران على امتداد التايمز، ألقى بالرجل أرضاً قبل أن يدور حول مِروده إلى الخلف.

«أيها المتسوّل اللعين!» صاح الرجل، رافعاً نفسه على قدمَيه. «سألقّنك درساً لن تنساه في حياتك!» وشرع برفع كمَّي سترته، كاشفاً عن ساعدَين مفتولَي العضلات ومكسوَّين بأوشام زرق لمراسي وحوريات بحر.

«لا تلمسه، يا بيل. لم يتعمّد القيام بذلك!» وحاولت المرأة الإمساك بذراع رفيقها. كانت بشرتها بيضاء مع تبرّج موضوع بشكل سيّئ، وشفتاها قرمزيّتَي اللون، وعيناها مظلّلتَين ببودرة سوداء. بالنتيجة، بدا وجهها أشبه بجمجمة. «إنه مجرد فتى».

«اعتقدتُ أنه لص»، زمجر الرجل ثانيةً ولكن بعدوانية أقل هذه المرة.

«يقوم رجال بمطاردتي»، قال شارلوك، لاهثاً. «أنا بحاجة للمساعدة».

«تعرف ما يفعلون بالفتيان هنا»، قالت المرأة. «لا أتمنى ذلك لأسوأ أعدائي. بيل، افعل شيئاً ما. ساعد الشاب».

«قِف ورائي»، قال بيل. رفع كميه وبدا متلهّفاً لخوض قتال دون أن يعرف هويّة الخصم. انزلق شارلوك وراء جسم الرجل الضخم مع خروج مطارديه من وراء الزاوية.

«قِفوا مكانكم»، قال بيل بصوت خفيض متوعداً باستخدام العنف. «دَعوا الفتى وشأنه».

«مُحال»، قال دِني، وكان في طليعة الرجال الخمسة، ويحمل سكيناً في يده المرفوعة. وتقاطر الضوء على امتداد حافة النَّصل كسائل متوهّج. «إنه لنا».

مدّ بيل يده لأخذ السكين، ولكن دِني رماه من يده اليمنى إلى اليسرى وطعن الرجل في صدر بيل. خرّ الرجل على ركبتَيه، وهو يبصق دماً، وعلى وجهه نظرة غير مصدِّقة، كما لو أنه لا يتقبّل أن تكون هذه اللحظات، هنا في الممر، لحظاته الأخيرة.

أطلق بيل ابتسامة ساخرة لشارلوك أثناء سقوطه إلى الأمام على الطريق المرصوف حجارة. وأطلق وعداً: «معك، لن يكون الأمر سريعاً».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

بدا جسم شارلوك برمّته متجمّداً بسبب الذُّعر، ومن ثم اعترته حرارة غضب. خطا إلى الأمام، ووجّه لكمة قوية إلى منطقة الأعضاء التناسلية لدِني. فانهار المجرم، فاقداً القدرة على التنفس. وأثناء انهياره، عاد شارلوك إلى الوراء وركله على فكّه، فتحطّم شيء ما. صاح الرجل عبر فمه المُطبَق وتلوّى على جانب واحد. وأطلقت المرأة - رفيقة بيل - أيضاً صرخة حادّة.

نظر الرجال الأربعة غير مصدِّقين، ثم تقدّموا وبسطوا أيديهم القذرة في اتجاه شارلوك. كان كل تفصيل محفوراً في عقل شارلوك: القذارة تحت أظفارهم، الشعر على ظهور أيديهم، الدم المتجمّع على الأرض، زعيق المرأة وصرخة دِني الممزوجتان بصفير ألم متواصل. لقد بدأ العالم يُبطئ ليتوقف ويتجمّد، ثم يتحطم إلى أجزاء من حوله. استدار نحو المرأة، وبفم جافّ قال: «آسف».

ركض مجدّداً، فتبعه رجلان، تاركَين دِني وراءهما منهاراً على الحجارة قرب بيل. وقفت المرأة هناك ناظرةً إلى كلَيهما، وخبا زعيقها بالتدريج وتحوّل نشيجاً مختنقاً.

انعطف شارلوك عند إحدى الزوايا، فرأى مبنى مقبَّباً ضخماً أمامه. لقد بدا في غير مكانه تماماً وسط أرض نظيفة زُرعت زهوراً وأشجاراً، وتتفرّع من المبنى طرقات عدة - طرقات عريضة لا ممرّات - وهناك حركة ناشطة متواصلة من الناس المحتشدين في الخارج قرب جيادهم. رأى شارلوك جداراً حجرياً قريباً منه، وعلى مسافة أبعد، رأى الصفحة الرمادية المُزبِدة للتايمز.

ركض شارلوك باتجاه المبنى المقبَّب؛ فحيث الناس يكون الأمان على الأرجح.

ركض بأقصى سرعة، وانحرف قرب رجال ونساء أنيقي الملابس. أخفض رأسه تحت عريش العربة، متوجهاً نحو المبنى. وكلما اقترب أكثر فأكثر، وجده مزيَّناً بتماثيل وفسيفساء مبلَّطة. لاح أمامه مدخل واسع، فحوّل مساره قليلاً بهدف التوجه إليه مباشَرةً. أشارت الشتائم والصيحات المتصاعدة من خلفه إلى أن مطارديه لم يستسلموا.

يؤدّي المدخل إلى رَدهة مستديرة تُضيئها الشمس المُشرقة عبر مجموعة من النوافذ الزجاجية الملوَّنة في السقف المقبَّب، ويُضفي الضوء على المكان جوًّا هَزلياً ومنوَّعاً. في وسط المبنى فجوة محاطة بشرفة، والناس مصطفّون على امتداد الشرفة محدِّقين إلى أمر ما. وعلى أحد الجوانب درَج عريض لولبيّ الشكل يدور حول حافة الفُتحة في اتجاه أعماق الأرض.

انطلق شارلوك بأقصى سرعة وسط جمهرة الناس ووصل إلى أعلى بيت الدرَج. التفت فلمح الرجلَين يشقان طريقهما عبر الحشد. كان أحدهما أصلع مع أُذُنَين وأنف أصابها التشوّه، وقد حمل ذلك الجزء الصغير من عقل شارلوك، الذي يحاول العثور باضطراب على منافذ للفرار، على الاعتقاد بأنه ربما كان ملاكماً. أما الرجل الآخر فكان شديد النحافة، عظمتا وجنتيه مدببتان وذقنه مستدقّ. إنهما مُصرّان على الإمساك به مهما كلّف الأمر. ربما كانا يريدان التخلّي عن مطاردته قبل تحطيم فك دِني، ولكن أصبح هناك غاية تغذّي الآن عزمهما على الإمساك به. لقد تعرّض أحدهم للإذلال، لذلك يتعيّن على شارلوك دفع الثمن.

استدار، وحدّق إلى أسفل بيت الدرَج.

يتحرّك الدرَج بشكل لولبيّ حول جوانب تجويف ضخم ويستوي من حين لآخر عند شرفة ويواصل توجّهه إلى أعماق الهُوّة. خرجت رائحة من التجويف: رائحة كريهة تجمع بين الرطوبة والعفَن لتُشكّل رائحةً مُنتِنة واحدة جعلت أنفه يخدَر وعينَيه تدمعان. دخلت خُطى شارلوك روتيناً متكرِّراً أثناء نزوله جوانب التجويف الأسطوانيّ الشكل. لا فكرة لديه عما يوجد في الأسفل، ولكن نظرة سريعة عبر التجويف أنبأته بما ينتظره في الأعلى: اثنان من رجال البارون موبرتْوي ينزلان الدرَجات بسرعة كبيرة في اتجاهه.

زاد من سرعته. فأيًّا يكن ما سيجده في أسفل التجويف قد لا يكون بسوء الموت المحتَّم والبطيء الذي يطارده.

لقد قضى قَدْراً كبيراً من الأيام القليلة الماضية هارباً أو مقاتلاً. وحتى أثناء طقطقة قدمَيه على الدرَجات الحجرية وتوهُّج يدَيه بسبب احتكاكهما بالدرابزين، كان هناك جزء من عقله يتساءل باضطراب عن المعلومات التي يملكها البارون موبرتْوي ويجدها بالغة الأهمية كي يقتله. ما الذي يخطط له البارون بالتحديد، ولماذا يقف شارلوك عائقاً أمام تنفيذ مخططاته؟

بلغ القعر قبل أن يُدرك ذلك، وتعثّرت قدماه على السطح المُستوي، فوجد نفسه في رَدهة مُضاءة بالغاز يخرج منها نفَقان مقنطَران في الاتجاه نفسه. كان ارتفاع القناطر بمقدار أربعة أو خمسة أضعاف ارتفاع قامة رجل بالغ، وهي مبنيّة بآجرّ مبتَلّ أينما نظر. لقد عرف السبب استناداً إلى اتجاه النفقَين: إنهما يمتدان تحت التايمز، وينتهيان عند تجويف مماثل، كما هو مُفترَض، في الجانب الشمالي.

فإذا تمكن من الوصول إلى الجانب الآخر ربما نجا بحياته.

دخل النفق الأيسر، وكان هناك أشخاص يمشون الهُوَينا على امتداده كما لو أن السير تحت سطح النهر ليس أمراً مميَّزاً. وكان هناك أيضاً جياد تُقاد بهدوء. لا فكرة لديهم البتة، كما يبدو، عن أطنان المياه القائمة على بُعد أقدام قليلة فوق رؤوسهم، ويفصل بينها بناء من الآجرّ المتداعي.

هناك أوقات يكون التفكير المنطقي فيها لعنة، وهذه المرة هي إحدى تلك المرات. فشارلوك يعرف نوع الضغط الذي يمارَس على جدران النفق؛ تصدُّع بسيط ويتدفّق الماء إلى الأنفاق ويُغرقهم بأجمعهم.

ولكنه واصل الركض؛ فلا خيار آخر لديه.

بل كان لديه خيار آخر؟ أثناء إسراعه، لاحظ أن النفقَين يمتدان بشكل متوازٍ، ويصل بينهما نفق جانبي كل عشر ياردات تقريباً. لقد أنشأ اللندنيون المبادِرون في كل نفق جانبيّ بَسطاتٍ لبيع الطعام والشراب والملابس وكل أنواع الطُّرَف. لو كان باستطاعته شقّ طريقه بشكل متعرّج ودخول أحد الأنفاق الجانبية لتمكّن من التوجّه إلى النفق الرئيسي الآخر وصولاً إلى التجويف، والعودة إلى المستودع، والعثور على آميوس غروي.

انحرف إلى اليمين باتجاه جانب التجويف الرئيسي، وانطلق بسرعة إلى داخل أول نفق جانبيّ بلغه. لفت نظره رجل ميّزه تحت الضوء المنبعث من مصباح زيت مدلّى من مسمار على بَسطته الخشبية. كانت بَشَرتُه بيضاء رَطبة مائلة للّون الرمادي كمخلوق عاش تحت الأرض لمدة طويلة من الزمن، وكان ملفوفاً ببطانية قديمة غدت صعبة التحريك بسبب تكدّس الأوساخ عليها على مَرّ الزمن وباتت كدِرع غريب. لقد بدت عيناه كما لو أنهما مكونتان بأكملهما من بؤبؤ أسود، حدّق الرجل إلى شارلوك للحظات.

«تريد ساعة؟» قال، آملاً. «إنها ساعة جيدة. تشير على الدوام إلى الوقت الصحيح. إنها دقيقة على الدوام. إنها ساعة جَدّ، ساعة جَدّة؛ إنها ساعة من تشاء».

«لا، شكراً»، قال شارلوك، مندفعاً أمام البَسطة. خطر بباله أن لا معنى للوقت تحت التايمز. لا شمس، لا قمر، لا نهار ولا ليل. يمرّ الوقت فحسب. فلماذا يكون المرء بحاجة إلى ساعة؟

«ما رأيك بساعة جَيب جميلة؟ لا تكون بحاجة إلى السؤال عن الوقت إذا كنت تملك ساعة. شاب مثلك، عليك التأثير في السيدات بساعة يد ذات غطاء معدنيّ وسلسلة. إنها مصنوعة من فضة حقيقية، وتحمل نَقشاً أيضاً. باستطاعتك الاحتفاظ بصورة لحبيبتك في داخلها».

مصنوعة من فضة حقيقة، ومنقوشة. إنها مسروقة بالتأكيد. «شكراً»، قال شارلوك، لاهثاً، «ولكن جدّي يملك المال. سيمرّ بهذا المكان بعد دقيقة. قُل له إنني أريد ساعة، ولا تدَعْه يذهب دون شراء واحدة».

ابتسم مالك البَسطة، مذكِّراً شارلوك بحيوان قِشريّ مفترس متربّص تحت حجر، منتظراً مرور فريسة غير مرتابة أمامه.

حدّق شارلوك إلى أرجاء حافة النفق الجانبيّ باتجاه التجويف الذي دخل عبره وشتم. لا بد من أن يكون مطاردوه قد تفرّقوا. كان قد تبعه أحدهم في النفق الأيسر، في حين سلك الآخر النفق الأيمن، شاقّاً طريقه عبر الحشد، ملقياً نظرة سريعة مرتابة على كل ذكَر أصغر من عشرين عاماً. من الواضح أنهم يعرفون المنطقة أفضل منه.

وقرر انتظار مرور هذا الرجل أمام مدخل النفق الجانبيّ كي ينكفئ عائداً. ولكن خطته قُوِّضت في الحال بسبب اضطراب فجائيّ حدث وراءه. التفت ورأى مالك البَسطة يحاول وضع ساعة نقّالة بين يدَي الرجل الذي تبع شارلوك في النفق الأيسر- الرجل الأصلع ذي الأذنين الشبيهتين بحبّتَي قرنبيط وأنف مُفلطَح. دفعه المجرم بعيداً، شاتماً إيّاه، ولكن مالك البَسطة ارتدّ إلى الوراء، وبدا تحت بطانيته المغلّفة بقشرة من القذارة كمخلوق ذي قَوقعة صلبة يعيش في قعر البحر. رمى الساعة على المجرم، زاعقاً. «اشترها لابنك! اشترها لابنك!» ودفعه الملاكم السابق مرة ثانية، وبقوة أكبر، فتعثّر هذه المرة بمصباح الزيت ودفعه في اتجاه الجدار. تحطم الزجاج وأريق الزيت على بطانية مالك البَسطة، ووقع الفتيل على البطانية أيضاً وأضرم فيها النار.

امتدت ألسنة اللهب بسرعة مع وقوف مالك البَسطة هناك. حرّك ذراعَيه متخبِّطاً، وركض مُسرعاً إلى داخل النفق الرئيسي الأيسر، وتراجع الناس مذعورين. اصطدم مالك البَسطة بأحد المارّة الذي انتقلت النار إلى سترته وترنّح جانبياً، نافضاً ألسنة اللهب عن التنّورة المنفوشة المتماوجة لامرأة واقفة بجانبه. جفل حصان في النفق بسبب منظر ألسنة اللهب، وجرّ مالكه وراءه على الأرض.

ما هي إلا لحظات حتى انتشرت ألسنة اللهب في مختلف أنحاء النفق: التقطت الملابسُ الشرارةَ بسرعة أولاً، وتلتها الأغطية القماشية على البَسطات، حتى خشبُ البَسطات نفسه بالرغم من كونه مبلَّلاً. ملأ الدخان والبخار النفق، وتَشَكّل ضباب خانق. أصاب شارلوك الذعر فتراجع مبتعداً عن الدخان والنار إلى داخل النفق الرئيسي الأيمن الخالي من ألسنة لهب.

لكن أحد مطارِديه لا يزال فيه.

أحكمت يد كثيرة الشَّعر قبضتها على كتفه.

«أمسكتُ بك، أيها الحُثالة»، قال الرجل بغضب. كان إبطا سترته مسوَدَّين جداً بسبب بُقَع تعرّق قديمة غدت شَمعيّة وقاسية، وكانت رائحة ملابس الرجل لا توصَف.

ناضل شارلوك عبَثاً للتخلص من قبضة الرجل. فأصابع الرجل مغروسة في كتفه.

«سيكون دِني راغباً في التحدث إليك»، همس الرجل، واضعاً وجهه قرب وجه شارلوك. كانت رائحة نفَسه أشبه بشيء ما نَفَق في فمه. «ولا أعتقد أنك ستحب ما سيقول».

كان شارلوك على وشك الإجابة عندما لاحظ أن أرضية النفق الجانبي تتماوج تحت الدخان كما لو أنها نابضة بالحياة. تأكد بعد ذلك أنها نابضة بالحياة مع خروج جرذان من أوكارها وجحورها مذعورة بسبب النار، وسلوكها الاتجاه نفسه إلى بَرّ الأمان. تشكّلت سجّادة نابضة بالحياة مكوَّنة من فَرو بنّيّ وأسود تزحف على أرض النفق. تراجع الناس والجياد مذعورين من كُتلة الشعر والأسنان والأذناب، وتعثّر طفل صغير يجرّه والداه ووقع أرضاً، فتسلّقت الجرذان عليه وغطّت وجهه.

أرخى الرجل الذي يمسك كتف شارلوك قبضتَه مع دوران الجرذان حول كاحلَيه، قاضمةً إياهما بأسنانها الصغيرة. شتم وأبعدها بيدَيه الشبيهتَين برَفش، وأفلت شارلوك من قبضته وغاص داخل كتلة المخلوقات الحيّة، باحثاً عن الطفل الذي اختفى تحت الموجة الجائشة. جرت مخالب صغيرة على ذراعَيه، وظهره، وساقَيه، وفروة رأسه، واشتمّ رائحة مُنتِنة كرائحة تبوُّل قديم. أطبقت يداه على ذراع صغيرة وسحبها بقوة، فخرجت فتاة صغيرة من تحت سَيل الجرذان، جاحظةَ العينَين، مفتوحةَ الفم استعداداً للصياح. «أنت بأمان»، قال شارلوك، دافعاً بها بين ذراعَي والدَيها اللذَين كانا يحركان أيديهما ويركلان لإبعاد الجرذان. انتزعا الفتاة منه وضمّاها بإحكام إلى صدرَيهما.

غادرت الموجة المَدّية التي شكّلتها الجرذان باستثناء عدد قليل من المتخلِّفين الضعفاء والعُرج، ورآها شارلوك تندفع مُسرعةً في الاتجاهَين بعيداً عن الدخان الذي يواصل التدفّق من النفق الجانبيّ. كان المجرم الذي أمسك بشارلوك لا يزال ينفض ملابسه بيأس، وتحته كُتَل متحركة من الجرذان فرّت إلى بَرّ الأمان وعلقت في فخّ النيران. استدار شارلوك وكان على وشك العودة إلى الجانب الجنوبي للنهر عندما تذكّر الوغدَين الآخرَين. لا بد من أن يكونا بانتظاره عند أعلى التجويف. لا، يتمثل رهانه الأفضل بسلوك الاتجاه

الآخر. وركض عبر النفق في اتجاه الجانب الشمالي للنهر حيث توجد جسور فوق النهر وبحّارة. باستطاعته العثور على طريق العودة، أخيراً.

سلك شارلوك النفق، مبتعداً أكثر فأكثر عن النار، ومرّ بجانبه رجال ببذلات موجودة، حاملين دِلاءَ ماء وينتمون إلى فرقةِ مكافحة النيران تتولى مسؤولية الحفاظ على سلامة النفق. تجاهلهم وواصل تقدّمه.

أخيراً، وصل إلى الجانب الشمالي للتايمز. فالتجويف هناك هو صورة مطابقة لمثيله في الجانب الجنوبي ببيت درَجه اللولبيّ. صعد الدَّرج الحجري بعناء بعد نفاد طاقته تقريباً. لقد تعيّن عليه التوقف بين الحين والآخر شرفة لالتقاط أنفاسه.

كان الخروج من الظُّلمة إلى نورٍ بعد الظهر مماثلاً للخروج من الجحيم إلى الجنة. كانت رائحة الهواء منعشة، والنسيم معتدل البرودة على بشرته. توقف للحظات، مُطبَق العينَين، للتمتع بأحاسيسه. إنه أمر بسيط جداً ومثاليّ في آن.

تروق المنطقة المحيطة بالجانب الشمالي للنفق للزبائن أكثر مما يروق لهم الجانب الجنوبي. كانت أرصفة الضفّة مليئة بمراكب من كل الأحجام، وينقل عمّال التحميل والتفريغ السِّلع صعوداً ونزولاً على المعابر المتحركة. سار شارلوك على امتداد جانب التايمز، مارًّا بالمراكب، وباحثاً عن جسر يمكنه استخدامه للعبور إلى الجانب الآخر. كان يعلم بوجود جسور فوق التايمز، ولكنه لم يكن واثقاً من بُعدها أو قُربها عن روثرهيث والنفق. ومن المنطقي أن يجد جسراً إذا سار مدةً كافية. كان يفترض به السير في الاتجاه الصحيح - نحو مركز المدينة وليس بعيداً عنه - ولكنه يعلم أنه في الاتجاه الصحيح إذا كان النفق موجوداً في لندن الشرقية، وهو كذلك، وإذا اجتازه من الجنوب إلى الشمال، وهذا ما فعل، وإذا انعطف إلى اليسار بعيداً عن مدخل النفق. إن فندق ساربونييه، حيث حجز آميوس غروي غرفاً لهم، موجود بجانب التايمز تقريباً، وفي الجانب الأيسر أيضاً، لذلك قد يعثر عليه إذا سار مسافة كافية، ولكن ما أراده حقاً هو عبور النهر وإيجاد آميوس غروي وماتي آرنات.

بعد نصف ساعة تقريباً، عثر على جسر في الواقع: بناءٌ ضخم مع برجَين مبنيَّين بحجارة رمادية اللون، متصلان بطريقٍ عربات مغطاة يقوم على امتداده متاجر وبَسْطات. عبره بتعَب، متجاهلاً صيحات مختلف الباعة الذين يحاولون بيعه كل شيء بدءاً بثور كامل وانتهاءً بمسدس ملقَّم. لقد بدت له لندن مكاناً لاحتمالات غير محدودة تقريباً إذا كان المرء مستعداً للدفع لقاءها.

في الجانب الجنوبي للجسر الشاهق، انعطف إلى اليسار ثانيةً، سائراً على امتداد طرقات، وشوارع، وممرات، وفي بعض الحالات على أعلى جدران

سميكة بهدف مواصلة الاتجاه نحو المستودع في روثرهيث حيث فقد آميوس غروي وماتي. كانت صواري السفن منتصبةً عالياً في الفضاء على امتداد جانب النهر، مشكّلةً غابةً من الخشب الرفيع، وتنبعث من التايمز رائحةُ غائطِ البشر بشكل متواصل. فإذا كان مايكروفت يعمل في هذا المكان كل يوم، فهو يستحق إذاً وساماً من نوع ما بسبب مواصلة عمله هنا.

على بُعد مِيل واحد تقريباً من الجسر الشاهق في اتجاه مجرى النهر، صادف شارلوك سفينةً محمَّلة بفريقِ عمّال. كانوا يتعرّقون ويشتمون، محاولين نقل صناديق ضخمة إلى متن السفينة على المعابر المتحركة دون إيقاعها في النهر. لقد أثار فضولَه أمرٌ ما يتعلّق بحجم الصناديق وشكلها، فدنا من السفينة، ملازماً الجانب المحجوب لمبنى مجاور.

كان هناك رجل ضخم البنية يرتدي سترة كُحليّة اللون ويقف جانباً، يطالع رِزمة أوراق مثبَّتة إلى لوح، ويضيف من حين لآخر حاشية تفسيرية بواسطة قلم رصاص يلعقه قبل أن يكتب به.

كانت الصناديق مماثلة لتلك التي رآها شارلوك في حدائق المنزل المنيف حيث أُسِر: قُفران نحل ذات جوانب مثلَّمة ومقدَّدة. وفي مكان قريب أكداس وأكداس من صوانٍ خشبية سبق لشارلوك أن رآها تحت القُفران، أما الآن فهي ملفوفة بورق مشمَّع ولا يمكن له أن يخطئ في شكلها.

لقد اكتشف عملية البارون موبرثْوي مُصادفةً ومن غير قصد. لهذاالسبب، كان دِني وعصابته هنا!

دنا شارلوك، مراقباً. لقد تمّ تحميل بعض قُفران النحل على منصات كبيرة لرفع البضائع بواسطة حبال يسحبها عمّال متعرّقون ومن ثم يضعونها داخل عنبر السفينة. السماء وحدها تعرف كيف يُمنَع النحل من مهاجمة الرجال، كما حدث للشخصَين السيّئَي الحظ في فارنهايم. ربما يتّبع البارون طريقة ما لتهدئة النحل.

أثناء قيام شارلوك بالمراقبة، انقطع حبل يحمل إحدى زوايا منصةِ تحميلٍ يتم نقلها إلى السفينة. سقطت المنصة جانبياً، وانزلقت أربعة قُفران نحل، ووقعت وتحطّمت إلى كِسَرٍ خشبية على الحجارة في الأسفل.

ركض رجال حاملين دِلاءً من الصَّفيح مزوَّدة بفوّهات، وداخل الدِّلاء شيء ما يُنتج دخاناً لتهدئة النحل وتنويمه. لقد فرّ عدد قليل من النحل، ولكن معظمه بقي قرب القُفران المحطَّمة يحوم بشكل متلوٍّ كالثمالى. رُمي قماش مشمَّع على بقايا القُفران، وانزلق كل شيء عبر حجارة الرَّصف وسقط في التايمز

المتدفّق والمُزبِد. افترض شارلوك أن من المستحيل تقريباً إعادة بناء قفير بعد تحطُّمه.

«يا شارلوك؟».

لقد نادى صوتٌ اسمَه برِقّة، فألقى نظرة سريعة على الأرجاء من مكان اختبائه. من الواضح أنه ليس آميوس غروي، أو ماتي آرنات.

«يا شارلوك؟»وبدا الصوت أكثر إلحاحاً هذه المرة. فأنعم النظر في المنطقة، وأدرك فجأةً وجود شكل بشريّ آخر مختبئ مثله وراء الأقفاص. إنها أنثى.

«فرجينيا؟».

كانت ترتدي بنطال الفروسية القصير فوق بلوزة بيضاء عاديّة من الكتّان. وألقت نظرة سريعة في اتجاهه بعينَين جاحظتَين. «ماذا تفعل هنا؟» هسهست.

ركض شارلوك بسرعة للانضمام إليها. «يتطلب الشرح وقتاً طويلاً»، قال.

نظرت إليه من رأسه حتى أخمص قدمَيه. «ماذا كنت تفعل؟».

فكّر مليًّا للحظات. «أسبح في بحر من الجرذان»، قال أخيراً. «إضافة إلى أشياء أخرى. ماذا هناك؟».

أشاحت بنظرها، مُحرَجة بشكل غير متوقَّع. «لم أشأ أن أُترك بمفردي بينما تحظون بكل المرح»، همست، «لذلك ارتديتُ بنطال الفروسية القصير وتبعتكم».

«نزلنا إلى النهر، في مركب. كيف تبعتِنا؟».

حدّقت إليه بشكل غريب. «في مركب آخر، بالطبع. طلبتُ من البحّار أن يتبعكم. شعر بالحيرة من طلبي، ولكنني كنت أملك بعض المال الذي سبق لوالدي أن أعطاني إيّاه، فهدّأ ذلك من رَوعه كما يبدو. وأثناء قيامكم بمراقبة المستودع، كنت أراقبكم. بعد ذلك، رأيت بعض الرجال يأتون من هذا الاتجاه، وبدا لي الأمر أنكم لزمتم أماكنكم فتبعتُهم إلى هنا».

«لم ألاحظ وجودك»، قال شارلوك بشكل واهٍ.

«علّمني أبي كل مهاراته في التعقّب»، قالت بفخر. «إذا كنت أتبعكم، فإن «لا شيء» هو بالتحديد ما تتوقعون رؤيته». كفّت عن الكلام، ومدّت يدها للمس ذراعه قليلاً.

«ما قمتِ به خطر للغاية»، قال شارلوك، «ولكنني سعيد برؤيتك».

هزت كتفَيها. «كان الأمر أفضل من انتظار عودتكم في الفندق».

«ولكن لماذا تبعتِني؟ لماذا لا تعثري على أبيك وتخبريه بما حدث؟».

«كنت أتبعك»، قالت ببساطة، «ولا أتبعه. لقد فقدتُ أثره».

«ولكن فتاة... بمفردها... في الطرف الشرقي للندن...» قال بتردد، غير واثق من كيفية إنهاء عبارته. «في هذا المكان أشخاص سيّئون للغاية...» تابع كلامه أخيراً، ثم واصل شرح ما حدث بعد ظهر ذلك اليوم بالتحديد، بما في ذلك الطَّعن والنار في الأنفاق. لقد شعر بارتياح لدى تكلّمه عن الأمر، ولكنه علم في الوقت نفسه بأن خطراً مميتاً يُحدق بحياته، وأنه ما زال يجهل السبب.

«لا يمكن السماح لهم بالإفلات من العقوبة»، قالت فرجينيا عندما أنهى كلامه. «أنتَ مجرّد فتى صغير. كان بإمكانهم قتلك».

«أنت مجرد فتاة صغيرة أيضاً»، اعترض شارلوك بشكل واهٍ.

ابتسمت فرجينيا. «لم أعنِ ذلك»، قالت. «عنيتُ أنه لا يُفترض بنا التورط في أمر مماثل».

«ولكننا متورّطون»، أشار شارلوك. «وأيًّا يكن ما يجري، علينا إيقافه».

«حسناً، أنا مستعدة. أنا متنكرة بملابس فتى. لقد عثرتُ على قبّعة»، قالت فرجينيا بفخر، مُخرجةً إيّاها من تحتها حيث كانت جاثمة. إنها قَلَنسوة مستدِقة الرأس من القماش. رفعت شعرها وراء رأسها بيد ووضعت القَلَنسوة باليد الأخرى. بعد إخفاء شعرها وتزرير معطفها، وجد شارلوك أنه لا يستطيع التفريق بينها وبين فتى، سيّما وأنها ترتدي أيضاً بنطال الفروسية القصير، في حين ترتدي الفتيات فساتين لا بناطيل. فكل من لا يعرفها لا يملك أي سبب للارتياب بها.

قال: «ما دمنا هنا فينبغي علينا اغتنام الفرصة لمعرفة إلى أين تتّجه هذه السفينة». وبحث في الأرجاء عن الرجل الذي رآه في وقت سابق، الرجل الذي يحمل رِزمة أوراق. «أعتقد أن الرجل هناك هو مدير الحَوض، أو رصيف المرفأ، أو ما شابه. باستطاعتنا أن نسأله».

«بهذه البساطة؟».

«زوّدني والدك ببعض المعلومات الجيدة عن كيفية طرح أسئلة».

نظر حوله واختار لحظة عدم نظر أحد في اتجاههما، أخرج شارلوك فرجينيا من مكان اختبائهما، وعبرا رصيف المرفأ إلى حيث يمكنهما الجلوس على

جدار حجريّ مُشرف على التايمز. لقد شعر بوخز في مؤخَّر عُنُقه، ما أنبأه بوجود من يراقبه، ولكنه كبت هذا الشعور. ربما يتلقى دِني العلاج على يدَي طبيب أو جرّاح الآن، مفترضاً أن فكّه محطَّم، وفُرص إلقاء الرجال الآخرين نظرة كافية عليه ضئيلة، ولن يتمكنوا من تمييزه، لا سيما الآن وهو مغطى بتراب ودخان وشعر جرذان، وأشياء أخرى ربما لم يشأ التفكير فيها مليًّا. جلسا هناك على الجدار لمدة نصف ساعة، وتبادلا حديثاً غير منتظم، وأصبحا بصورة عامة جزءاً من المنظر الطبيعي. أخيراً، أنهى مدير الحَوض، أو رصيف المرفأ، أو أيًّا يكن، عمله مع السفينة وشرع بالسير في اتجاههما. عندما مرّ أمامهما، رفع شارلوك نظره وقال: «هل هناك أي فرصة للعمل على الحَوض؟».

ألقى الرجل نظرة مستهزئة على بنية شارلوك الجسدية الهزيلة. «عُد بعد خمس سنوات، يا بُنَي»، قال بنبرة غير قاسية. «نَمِّ بعض العضلات على تلك العظام».

«ولكن عليّ الخروج من لندن»، تابع شارلوك بصوت يحمل نبرة توسُّل. «يمكنني العمل بكدّ، صِدقاً، يمكنني ذلك». وأشار إلى المركب في الجوار. «ماذا عنهم؟ يبدو أنهم يعانون من نقص في العمال».

«صحيح»، قال الرجل. «كانوا ثلاثة رجال بعد ظهر هذا اليوم. ولكنني لا أتخيّلك قادراً على الحلول مكان أيٍّ منهم، وعلاوةً على ذلك، لن يُخرجك ذلك المركب من لندن».

«لِمَ لا؟» سأل شارلوك.

«إنه متوجّه إلى فرنسا في رحلة ذهاب وعودة لا غير. عودة سريعة، لا راحة لطاقم البحّارة». وضحك. «تريد الابتعاد لبعض الوقت، اذهب وانضمّ إلى الأسطول البحري الحربي، أو تسكّع هنا بما يكفي كي يأتوا ويأخذوك».

وغادر، مواصلاً الضحك.

«فرنسا»، قال شارلوك وقد أُثير فضوله. «أمر مثير للاهتمام».

«سمعتُ أنك تريد الانضمام إلى طاقم بحارتنا»، نادى صوت من مقدَّم المركب. فتجهّم وجه شارلوك وأشاح بنظره، ولكن الصوت تابع: «لماذا لا تصعد مع الفتاة إلى متن المركب؟ أجل، نعرف أنها فتاة. كنا نراقبكما منذ ظهوركما. ماذا، تظنان أنكما غير مرئيَّين؟».

ألقى شارلوك نظرة على امتداد الحَوض حيث كان مدير الحَوض متوقفاً ينظر إليهما. كانت سيماء وجهه متعاطفة ولكن صارمة. لن يكون ذا فائدة أبداً.

أخذ شارلوك بيد فرجينيا وسحبها، فانتصبت واقفة. «حان وقت الذهاب»، قال، ولكن عندما استدار وجد أن نصف دائرة غير مُحكَمة من البحّارة وعمّال الحَوض قد تشكلت حولهما، ظاهرين من العدَم. حاول الهرب، جارًّا فرجينيا معه، ولكن أيدي ضخمة أمسكت به وسحبته بعيداً عنها. حاول الإفلات، ولكن الأيدي أمسكته بإحكام. ورأى فرجينيا تناضل أيضاً، ولكن يداً ممسكة بقطعة قماش وُضعت فوق وجهه، وفاحت منها رائحة طيّبّة مريرة وثقيلة، وكاد يختنق. بعد ذلك، وجد نفسه فجأةً يقع داخل حُفرة لا قرار لها بلون عينَي فرجينيا بالتحديد. نام لبعض الوقت وحلم بأمور رهيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

صارع شارلوك في أحلامه ثعباناً ضخماً، أضخم من برميل شراب. كان كُتلة عضلات وأضلع، رأسه مثلَّث ومسطَّح الشكل وأسنانه أشبه بمنشار. كانا يتصارعان في ماء ثقيل وقاتم كالقطر. التفّ الثعبان ببطء حوله وعصره، محاولاً تكسير أضلعه، ولكن الماء أعاق حركته وتمكن شارلوك من التخلص من التفافه عليه من خلال الدفع بقوة بذراعَيه وساقَيه. أثناء محاولته التخلّص منه أعاق الماء سباحتَه بشكل عجيب وتمكّن الثعبان من الالتفاف عليه ثانيةً. تواصل الأمر على هذا المِنوال، فكان يناضل للفرار بينما الثعبان يناضل ليبقى ممسكاً به.

عندما استيقظ أخيراً، تملّكه شعور بمرور وقت طويل. كان فمه جافاً، وعندما لمس لسانُه سَقفَ حَلْقه التصق به. كان جائعاً جداً أيضاً.

بعد قليل، شعر بقوة تكفيه للجلوس بشكل منتصب دون الشعور بالغثيان. وما رآه بشكل مؤقت أنساه العطش والجوع والغثيان.

كان مستلقياً على سرير ذي أربع قوائم مزوَّد بمظلّة مطرَّزة، وكانت الوسادات طريّة ومليئة بالريش، والغرفة مزيَّنة بخشب السنديان، وألواح الخشب التي تكسو الأرضية مطليّة بالورنيش ومغطاة بسجاد يحمل تفاصيل رائعة الجمال.

إنها الغرفة نفسها التي استيقظ فيها عندما سقط بعد مباراة ملاكمة في المعرض، ذاك الذي أُقيم خارج فارنهايم.

ولكن كيف ذلك؟ لقد هجر البارون موبرثْوي ذلك المنزل، وأفرغه من كل شيء. ما كان لِيستطيع العودة إليه بهذه السرعة، بالتأكيد؟ ولماذا يعود؟

تدحرج شارلوك عن السرير ووقف منتصباً. مرّر يده على وجهه، وتفاجأ عندما صادف شيئاً جافًّا حول أنفه وفمه. فرك المادة الجافة، منتزعاً إيّاها عن بشرته، ثم نظر إلى أصابعه؛ كانت مكسوّة بخيوط سوداء. فرك أصابعه بعضها ببعض وتفاجأ عندما وجد أن الخيوط لا تزال دَبِقة قليلاً.

تذكّر قطعة القماش التي وُضعت على فمه. هل هي مادة كيميائية من نوع ما؟ عقّار يحمله على النوم؟ هذا ما حدث على الأرجح.

وفرجينيا! أزالت سَورة غضبٍ فجائية آخر ما تبقّى لديه من نوم وغثيان. ماذا حلّ بفرجينيا؟ لو أذاها أحد لَقام...

لَقام بماذا؟ بقتلهم؟ لم يكن في أفضل وضع للقيام بهذا الأمر في الوقت الحاضر.

لقد تعيّن عليه جمع معلومات لمعرفة ما يجري وسبب ذلك.

خطا شارلوك خارج الستائر وفتحها، متوقعاً رؤية التربة الحمراء الجافّة ومئات قُفران النحل التي كانت في الخارج عندما وجد نفسه في الغرفة في المرة السابقة، ولكن ما رآه جعله يتراجع إلى الوراء من فَرط الدهشة.

على مسافة قصيرة من المنزل، يُفسح شاطئ رملي الطريق لموجات تلتف على نفسها يعلوها زَبَد، وتمتد حتى الأفق. كانت السماء زرقاء مُشرقة، وتمكن شارلوك من رؤية أشرعة في البعيد.

أغمض عينَيه للحظات وفكّر. هل يهذي؟ ممكن! افترض ذلك. ولكن الحُلم عن الثعبان والماء الشبيه بالقطر الداكن غريب وغير منطقي، ما يعني أنه يحلم، في حين أن ما يراه الآن منطقي.

هل الصورة خارج النافذة لوحةٌ منفَّذة بإتقان تام توحي بشاطئ وبحر وسماء زرقاء، في حين أنها مجرد مواد ملوِّنة على قماش أو لوح خشبيّ؟ فتح عينَيه مجدّداً ونظر. في البعيد، رأى أشكالاً بيضاء صغيرة على صورة w تدور فوق قمم الأمواج وتتحرك؛ طيور بحرية تسبح في التيارات الهوائية العليا. لا يمكن تزييف ذلك في لوحة. أيًّا يكن الموجود هناك، فإنه حقيقي.

ولكن لا وجود لمحيط في أي مكان قرب فارنهايم، إذاً فالاستنتاج الوحيد يتمثل بأنه لم يَعُد قرب فارنهايم، وربما لم يَعُد في إنكلترا أيضاً. لقد سبق لمدير رصيف المرفأ أن قال إن المركب متوجّه إلى فرنسا. فلا بدّ من أن تكون فرنسا إذاً. والغرفة؟ إن البارون موبرتْوي رجل يتمسك بعاداته ويحب أن يكون محيطه مألوفاً لديه بأعلى درجة ممكنة حيثما حلّ. افترض أن المنزل المنيف خارج فارنهايم ليس منزل أسلافه، فلا بد إذاً من أن يكون قد أعاد تصميمه، على الأرجح، كي يبدو مماثلاً لما يدعوه منزلاً، والذي قد يكون أيضاً... قصرهالفرنسي؟ هل يدْعونه قصراً؟

شعر بالسرور من نفسه بشكل غامض بسبب معرفة ما كان يُراد به إرباكه وزعزعة استقراره، كما اشتبه. لم يستدر حتى عندما طقطق قفل غرفة النوم وفُتح الباب إلى الداخل. كان يعرف مُسبَقاً من سيرى هناك! لا بدّ أن يرى خادمين ببنطالين قصيرَين أسودَين، وجوربين طويلين أسودين، وصُدرتَين سوداوَين، وسترتَين سوداوَين قصيرتَين، وعلى وجهَيهما قناعان أسودان مخمليّان يحتويان على ثقوب يُنظر من خلالهما، على غرار المرة السابقة تماماً. عدّ إلى العشرة في فكره، ثم استدار. إنه مُحِقّ جزئياً - فالخادمان

الواقفان عند المدخل يرتديان ملابس بالطريقة التي يَذكر - ولكن رجلاً ثالثاً يقف وسط المدخل ويكاد يملأه، بسبب ضخامة بنيته. فذراعاه ثخينان كساقَي رجل عادي، في حين أن ساقَيه تشبهان جِذعَي شجرة، ويدَيه بحجم وشكل راحة مِجرفة، ولكن رأسه هو ما يسترعي الانتباه أكثر من أي شيء آخر. إنه أصلع، ولكن فروة رأسه مغطاة بندوب بنّية اللون لدرجة أن رأسه يبدو للوهلة الأولى مغطى بالشعر بأكمله. كان يرتدي معطفاً جِلدياً بنّيًّا طويلاً فوق بِذلة رماديّة فضفاضة، وتفصيل المعطف يجعله يبدو أكثر ضخامة مع بنيته الجسدية الضخمة.

«يريد البارون رؤيتك»، قال بصوت يشبه جرْش حجرَي رَحى.

«ماذا لو لم أكن راغباً في رؤية البارون؟» قال شارلوك بصوت لا خداع فيه. تبادل الخادمان نظرات سريعة، ولكن الرجل ذا الندوب هز رأسه ببطء فحسب. «ما يريده البارون يحصل عليه. لا خيارات أخرى لديك».

«ماذا لو رفضتُ مرافقتكم؟».

«عندئذٍ، نلتقطك ونحملك».

علم شارلوك بأنه تصرف بطريقة طفولية، ولكنه أراد منهم أن يَعوا بأنه ليس سجيناً خاضعاً، وأن لديه خياراته. «ماذا لو أمسكتُ بإطار الباب ورفضتُ إفلاته؟».

«عندئذٍ نحطّم أصابعك ونحملك بعيداً». وابتسم الرجل، لكن تعبير وجهه كان خالياً من أي ضحك. إنه مجرد تكشير عن الأنياب كنمر يستعد للانقضاض. «كل ما يريده البارون هو أن تجيب عن الأسئلة. ذلك يعني أنه يريد رأسك كي يتمكّن عقلك من التفكير وفمك من التحرك، ويعني أنه يريد صدرك كي تتمكّن رئتاك من التنفس وتُبقيك حيًّا. وكل شيء آخر اختياريّ. إنه خيارك».

تريّث شارلوك للحظات كي يُثبت أن لديه خياراً يقوم بممارسته، ثم توجّه نحو مدخل الباب. لم يتحرك الرجل ذو الندوب حتى كاد شارلوك أن يصطدم بصدره، فتنحّى جانباً بما يكفي ليتمكّن شارلوك من المرور.

قال: «أُدعى سورد»، وتبع مع الخادمَين شارلوك عبر الرَّدهة. «أنا خادم للبارون، وكل ما يريد فعله أفعله. إذا أراد كوب ماديرا، من واجبي سكبه له. إذا أراد رأسك على طبَق، من واجبي قطعه وتسليمه إيّاه. ليس عملاً ممتعاً وليس عملاً شاقًّا، إنه مجرد عمل. هل تفهمني؟».

«أفهم»، قال شارلوك. «أنت من كان يحمل السَّوط عندما التقيتُ البارون في المرة السابقة، أليس كذلك؟ لكنك لم تكن ظاهراً».

«إنه مجرد عمل»، كرّر الرجل. «ولكنني أشعر بالمتعة حقاَ عندما أتمّ عملاً بشكل جيد».

كانت الرَّدهة العليا مماثلة لتلك القائمة في منزل فارنهايم، كما يذكر، كما أن الدرَج يؤدّي إلى الرَّدهة الرئيسية في الأسفل. لقد تعيّن على شارلوك منع نفسه من البحث عن آثار حوافر حيث فرّ هو وماتي. ليس منزله، إنه منزل آخر صودف أنه يشبه منزله.

كانت فرجينيا واقفة خارج الغرفة حيث ينتظرهما البارون موبرثْوي، وبجانبها خادمان مقنَّعان قرب خزانة عريضة من خشب الساج.

«هل أنتِ بخير؟» سأل.

«رأيت أحلاماً غريبة»، قالت. «كنت أمتطي سانديا، ولكنه كان جامحاً ولم أستطع السيطرة عليه. لقد سرنا عبر هذا المنظر الطبيعي الذي واصل التلاشي كلما نظرتُ إليه». وهزت رأسها كي تتخلَّص من الذِّكرى. «ماذا عنك؟».

«ثعابين»، قال بإيجاز.

«ما ذاك الشيء الذي خدّرونا به؟ لا يزال رأسي مشوَّشاً».

«أعتقد أنه اللاودنوم، مورفين مُذاب بكحول. اعتاد والدي ووالدتي إعطاءه لشقيقتي. أعرف الرائحة، إنه مُستخرَج من نبات الخشخاش».

«نبات الخشخاش؟» وضحكت. «لم أحب نبات الخشخاش أبداً. إنها زهرة مُرعبة جداً».

اندفع السيد سورد بجانبهما وفتح الباب المفضي إلى الغرفة حيث ينتظر البارون، فأومأ لهما بالدخول.

كانت الغرفة مُظلمة، كما في السابق، وكان هناك كرسيّان موضوعان عند طرف طاولة ضخمة يُخفي الظل طرفها الآخر. وتتدلى ستائر سوداء ثقيلة أمام النوافذ، مانعةً نور الشمس من دخول الغرفة، والمساحات القليلة في الجدار المكشوف الذي يراه شارلوك مغطاة بسيوف ودروع. وعلى أحد الجدران، لاحظ شارلوك بِذلة مدرَّعة كاملة تحمل سيفاً وقد وُضعت كما لو أن فارساً يوجد بداخلها.

أشار السيد سورد إلى ضرورة جلوسهما. ففكر شارلوك مليًّا بالرفض، ولكنهما رأيا شيئاً ما في عينَي السيد سورد يوحي بأن الخادم يتوقع منه الرفض، لا بل أراده أن يرفض، كي يتمكن من القيام بشيء مؤلم ودائم

لضمان إذعان شارلوك. لذلك جلس، وجلست فرجينيا بجانبه. ودخل السيد سورد والخدام الأربعة إلى ظُلمة الطرف الآخر للطاولة.

بقيت الغرفة هادئة بعض الوقت باستثناء صريفٍ خافتٍ لحبال وأخشاب سبق لشارلوك أن سمعه في المرة الأخيرة.

بعد ذلك، سُمع صوت هامس أشبه بحفيف أوراق يابسة في مهبّ الريح: «أنت تُصِرّ على التدخُّل في خططي بالرغم من كونك مجرد صغير. لقد أرغمتُ على هجر أحد منازلي بسببك».

«يبدو أنك تحب امتلاك منازل مصمَّمة ومزيَّنة بشكل مماثل»، قال شارلوك. «لماذا؟ هل تفضّل أن تكون الأشياء مماثلة؟».

ساد الصمت للحظات، وتوقّع شارلوك أن يشعر في أي لحظة بطرف سَوط يندفع من الظلام، ويسلخ جلده، ولكن الصوت أجاب:

«عندما أجد شيئاً ما أحبه لا أرى سبباً لتكبّد عناء البحث عن شيء آخر. تصميم وأثاث منزل، نظام حكم... عندما أكتشف شيئاً ما يساعدني على النجاح، أرغب في إجراء صورة طبق الأصل عنه لتبدو الأمور مماثلة حيثما أذهب. أجد الأمر... معزّياً».

«ولهذا السبب يضع خدّامك أقنعة سوداء، لأنك تصدّق بهذه الطريقة بأنهم الخدّام أنفسهم أينما يصادَف وجودك».

«ثاقب البصيرة للغاية».

«ونحن في... أين نحن؟ فرنسا في الوقت الحاضر؟».

«عرفتَ المنظر الطبيعي؟ أجل، هذا المنزل في فرنسا. لقد بقيتما نائمَين على متن المركب الذي حملكما إلى هنا، وتمّ نقلكما بعد ذلك إلى هذا المكان بواسطة العربة».

«ولكن ماذا عن السيد سورد؟» سأل شارلوك. «هناك واحد منه فقط».

«لا يمكن استنساخ السيد سورد. حيثما أذهب يذهب».

«أنتالبارون موبرنْوي، أليس كذلك؟».

«مجدّداً أنت تفاجئني. لم أكن أعرف أن اسمي ذائع الصيت».

«لقد... جمعتُه من الدليل».

«ذكيّ جداً. ذكيّ جداً في الواقع. أُثني على مهاراتك في الاستنتاج. وما هي المعلومات الإضافية التي جمعتَها عني أيضاً؟».

وضعت فرجينيا يداً محذِّرة فوق يده، ولكن شارلوك شعر بفخرٍ متنامٍ بسبب التحقيقات التي أجراها، والوقائع التي اكتشفها، والمؤامرة التي بدأت تجتمع أجزاؤها. وقال في نفسه إن من المهم لموبرثْوي أن يعرف بأن مخططاته لم تَعُد سرّيّة. «أعرف أنك تحتفظ بنحل، وأعرف أنها نوع أجنبيّ أكثر عدوانية من أي نحل أوروبي. يعني ذلك أنك لا تحتفظ بها بسبب عسلها بل بسبب لَسَعاتها. تريدها أن تؤذي الناس أو تقتلهم». وتسارعت الأفكار في رأسه، مقلِّباً الوقائع في ذهنه لتشكيل عيّنات لم يشكّ فيها من قَبل. لقد علّمه آميوس غروي ودرّبه، ولكن البارون موبرثْوي أخذه على محمَل الجدّ. وأصغى البارون إلى استنتاجات شارلوك كما لو أنها تعني شيئاً ما في الواقع بدلاً من أن تكون مجرد إجابات نظرية لمشاكل مبتكَرة. «كنتَ تدير أيضاً مصنعاً لإنتاج الملابس - بِذلات عسكرية، كما أعتقد». وكفّ عن الكلام للحظات. كان هناك شيء ما خارج متناول يده، وُجهة منطقيّة بالغة الأهمية سلكها وتبقى الخطوة الأخيرة التي تتطلب قفزة حَدسيّة «رَجلك - كان اسمه وِينت كما أعتقد - سرق بعض الملابس وخزّنها في منزله. لقد هاجمه النحل. وهناك رجل آخر عمل في أملاك عمّي بستانياً، سبق له أن عمل في صنع ملابس في فارنهايم - لصالحك، كما أفترض. لقد قتله نحل أيضاً. هل احتفظ ببعض الملابس لاستخدامه الشخصي؟ سرقها منك؟» وانقشع الضباب الذهني الذي كان يحجب عنه المَقصد المنطقيّ النهائي، وتابع بزُهوّ: «إذاً، هناك شيء ما مرتبط بالملابس يدفع النحل لمهاجمتها. في صناديقها أو أقفاصها، تكون آمنة، ولكن عندما يرتديها الناس... ينجذب النحل إليها ويلسع كل من يرتديها».

ضغطت فرجينيا بيدها الآن على يده، ولكن شارلوك تجاهلها.

«أولئك الرجال الذين كانوا في المستودع في روثرهيث - كانوا يتحدثون عن شحن الصناديق إلى ريبون، كولشستر، وألدرشوت. كل تلك الأماكن هي قواعد عسكرية. إذاً، إذا شُحنت كل الملابس إلى قواعد عسكرية، تكون بِذلاتٍ رسمية على الأرجح. ماذا فعلتَ؟ حصلت على عقد حكوميّ من نوعٍ ما لتزويد الجيش البريطاني بالملابس؟ يرتدي الجنود ملابسهم الجديدة استعداداً للسفر بحراً إلى الهند ربما، ومن ثم...» كانت أفكار شارلوك تتسارع لدرجة عدم تمكّنه من اللحاق بها، ولكن الفكرتَين عادتا لتتزامنا فجأةً. والده. ألدرشوت. الهند. ملابس الجنود. «وبعد ذلك، تُطلق النحل، فيهاجم كلَّ جنديّ وملازم وضابط في الجيش البريطاني»، همس مروَّعاً من المكان الذي حمله إليه المنطق.

«آلاف الوفيات، كلها تحدث بشكل غامض وحتميّ»، همس البارون من الظُّلمة عند طرف الطاولة. «ضربة مُثبِطة للعزيمة موجَّهة إلى قلب

الإمبراطورية البريطانية من خلال النحلة الوضيعة، التي توفّر عسلاً لآلاف حفلات الشاي التي تقام بعد ظهر أيام الآحاد. تَروق لي... التَّورية».

«ولكن لماذا؟» كانت أفكار شارلوك مليئة برؤى عن والده، وجهٌ متورِّم ومغطى بدمامل، واقعاً أرضاً ومختنقاً أثناء قيام النحل بلَسعه مراراً وتكراراً.

«لماذا؟» لم يكن صوت البارون أكثر ارتفاعاً، ولكن حقداً لم يكن موجوداً من قَبل شابه فجأةً. «لماذا؟ لأن وطنك الصغير المثير للشفقة لديه أوهام عَظَمة حملتْه على غزو نصف العالم. من الصعب العثور على بلد أصغر حجماً من إنكلترا. بالكاد تحتلون مساحات صغيرة على الخارطة. على أي خارطة للعالم، لا يستطيع رسّامو الخرائط كتابة كلمة إنكلترا ضمن حدود الجزيرة لأنها صغيرة لاستيعاب حجم الكلمة. ومع ذلك، لديكم العجرفة، والوقاحة، وخداع الذات البَحت، لتصدّقوا أن العالم مستعدّ لحُكمكم الخيِّر. وتموّج العالم وسمح لكم القيام بذلك! إنه أمر محيِّر. ولكنْ هناك رجال في العالم، عسكريون، لن يسمحوا لغرائزكم المتفشّية والضارية بالذهاب بعيداً. يجب دفع حدود الإمبراطورية البريطانية إلى الوراء كي تحظى بلدان أخرى بمتنفَّس ومجال للعيش. أنا... أمثّل... مجموعة من هؤلاء الرجل. ألمان، فرنسيون، أميركيون، روس.. اجتمعوا لكبح طموحاتكم التوسعية. لن ترتاحوا حتى ينقسم أحمر الإمبراطورية البريطانية على امتداد الخارطة؛ لن نرتاح حتى يُمحى عن جزيرتكم الواهية». وكفّ عن الكلام. «وهندوراس البريطانية ربما، في أميركا الجنوبية. يمكنكم الاحتفاظ بهندوراس البريطانية».

«إذاً، أنت تخطط لتدمير الجيش البريطاني بضربة واحدة».

«إنه داء متفاقم أكثر منه مجرّد ضربة واحدة، يُضرب الجنود دون سواهم. فالنحل، كما تعلم، عدوانيّ وتوسّعيّ على غير عادة. لقد رُبِّيَ على الاعتداء - ويربّى نحلي بسرعة. والملوِّث الذي بللنا البِذلات الرسمية به تمتصّه أجساد الجنود ويخرج تعرُّقاً من بشرتهم، فيهاجم النحلُ على الفور إذا اشتمّ الملوِّث. عندما يُطلَق النحل من قفرانه الجديدة، يعبر أنحاء بريطانيا في خلال عدة أشهر، لاسعاً كل الجنود حتى الموت. سنربّي مزيداً في مواقع سرّيّة في كل مكان من أوروبا لأجل مرحلة الهجوم التالية. سيكون الرُّعب والخوف والذُّعر البَحت حلفاءنا الفعالين. وباء غامض يصيب الجنود. وستُنزَل بريطانيا إلى المكانة التي تستحق: أمّة من الدرجة الثالثة».

«ولكن ماذا عن الرجلَين اللذَين ماتا - رَجلك وبستانيّ عمّي؟ لم يكونا جزءاً من مخططك، أليس كذلك؟».

وانبثق من الظُّلمة حفيف وصريف كما لو أن البارون موبرثْوي يهز كتفَيه غير مُبالٍ. «كنت أعرف أن بعض العمال يسرقون البذلات، ولكنني لم آبه. كان

ذلك خطأي. لقد سقط أحد القُفران عن صهوة حصانه وفرّ النحل، وأصبح بريًّا، جامحاً، وعندما اشتمّ الملوِّثَ على البِذلات المسروقة، قام بالهجوم. تعيّن على السيد سورد استعادة المَلِكة ومحاولة استعادة النحل الناجي للعودة. كانت مهمة شجاعة جداً».

«إنه مجرد عمل، يا سيدي»، قال السيد سورد من طرف الغرفة.

بالرغم من اكتشاف معظم المكيدة، فقد خطفت وقاحةُ المكيدة أنفاسَ شارلوك. وبالرغم من هَولها، لم يتمكن من رؤية أي عيوب واضحة. إذا كان النحل عدائياً كما قال موبرثْوي، وإذا وُزّعت البِذلات وفقاً للمخطط المرسوم، فإن المكيدة ستنجح. ستنجحالمكيدة.

«سيوقفك شقيقي»، قال شارلوك بهدوء. إنه أمله الوحيد.

«شقيقك؟».

«شقيقي».

وسمع شارلوك همساً منبعثاً من الظُّلمة. لقد بدا أشبه بنبرات السيد سورد الخشنة ثانيةً.

«آه»، قال موبرثْوي. «تُدعى شارلوك هولمز. لا بد من أن يكون مايكروفت هولمز شقيقك. إنه رجل ذكيّ. سبق لنا أن اعتبرناه شخصاً مفيداً لمجموعتنا. يبدو أنك تحذو حذوه».

«سبق لي أن أرسلت له برقية أخبره فيها بما يجري»، قال شارلوك بأكبر قدْر ممكن من الهدوء.

«لا»، صحّح البارون، «لم تفعل. لو فعلتَ لَما كانت هناك حاجة لقيامك بالتحرّي عن مركبي، ولأَرسل مايكروفت هولمز عملاءه للقيام بالعمل».

عملاؤه؟ وأدرك شارلوك فجأةً مدى نفوذ شقيقه.

وسُمع مزيد من الهمس في طرف الغرفة.

«ربما يكون علينا التعاطي مع شقيقك بصرف النظر عن ذلك»، همس البارون موبرثْوي. «إذا كان ذكاؤك يشير إلى ذكائه فقد يتمكّن إذاً من معرفة مخططاتنا ويحاول إيقافها. ستموت وشقيقك في الأسبوع نفسه، وفي اليوم نفسه ربما، وفي الساعة نفسها، إذا تمكنتُ من تدبُّر الأمر، لأنني رجل يقدّر الإتقان حق قَدْره. وسيوفّر على أهلكما تكلفة إقامة جنازتَين».

لقد ارتدّت النتيجة الكاملة لتبجُّح شارلوك عليه فجأةً. فبكشفه بفخر عن المكيدة الرهيبة برمّتها وإثبات ذكائه للبارون موبرثْوي، ومن ثم التباهي

بشقيقه المؤثِّر، وهو الأسوأ، حكم شارلوك على كلَيهما بالموت.

«أعتقد أنك أخبرتني بكل ما تعرف»، تابع موبرثْوي، «وأنا مندهش من مدى عزمك. من الواضح أننا بحاجة لنكون أكثر تكتّماً في المستقبل. شكراً لك لأجل ذلك، على الأقل».

«لماذا لندن؟» سأل شارلوك بسرعة، شاعراً بأن الأمور تتقدّم باطّراد نحو النهاية وأن حياتهما - هو وفرجينيا - ستنتهي بعد مدة قصيرة. «لماذا نقلتَ القُفران إلى لندن بدلاً من بورتسماوث، مثلاً، أو ساوثمبتون، قبل شحنها إلى هنا؟».

«أرغمنا فرارك على الانتقال قبل الوقت المخطَّط له»، همس موبرثْوي. «لم يكن هناك أي مرسى سفينة متوافراً في بورتسماوث أو ساوثمبتون، وكانت السفينة تنتظر في لندن تعليماتنا لتتحرك. لم يكن نقل القُفران إلى لندن فعّالاً ولكنه كان محتّماً. وهكذا، لم تَعُد مفيداً لي؛ أنت وتلك الفتاة الجالسة بقربك. كنت أعتزم تهديد حياتها لإرغامك على الكلام، ولكن أي قوة لم تُمارَس. في الواقع، إن المشكلة التي واجهتُ هي كيفية إسكاتك».

التفت شارلوك إلى فرجينيا، شاعراً باحمرار وجهه بسبب الإذلال، ولكنها ابتسمت له وهمست: «لقد منعتَ تعذيبي، شكراً لك».

«لا شكر على واجب»، قال شارلوك تلقائياً، غير واثق تماماً مما إذا كان يجب إعادة الفضل له في ذلك أم لا.

«يا سيد سورد»، قال صوت البارون موبرثْوي من داخل الظلام. فبالرغم من همسه، وصل صوته إلى كل زاوية من الغرفة. إنه صوت اعتاد إصدار الأوامر. «علينا تسريع مخططاتنا. أصدروا الأمر. أطلقوا النحل من الحصن. عندما يصل النحل إلى البَرّ الرئيسي ويعبر البلد، تكون البِذلات قد وُزّعت. بعد ذلك، يسود الإرباك!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

ترددت كلمات البارون بشكل مُرعب في أرجاء غرفة الطعام. وسُمع في الظلام صوت حفيف مع مغادرة أحد الخدّام لتنفيذ الأوامر. ألقى شارلوك نظرة سريعة على فرجينيا، فوجد وجهها شاحباً ولكن فمها مُطبَق. مدّ يده كي يضغط على يدها، فارتسمت على شفتَيها ابتسامة خفيفة.

لقد منحت قوةُ شخصيّتها شارلوك الشجاعةَ ليتابع:

«إنها خطة مَهيبة»، قال في اتجاه الظُّلمة، «ولكنها لن تنجح».

ساد الصمت للحظات ولم يتخلّله سوى صوت طقطقة غريبة تذكّر شارلوك سماعها في منزل فارنهايم، صوت شبيه بتجهيز سفينة بالحبال والأشرعة، وهي صامدة في وجه الريح التي تتقاذفها.

«تبدو واثقاً جداً بنفسك»، عاد صوت البارون، «بالرغم من كونك صغيراً».

«فكِّر في الأمر. إن موت اثنَين من رجالك بسبب مخططاتك لا يجعل خطتك واضحة وبسيطة. يمكن لكل أنواع الأشياء غسل المادة الكيميائية عن البِذلات، مثلاً. تذكّر، تُمطر في إنكلترا. إنها تُمطر كثيراً. سيتم غسل بِذلات بعض الجنود قبل أن يتمكن النحل من الوصول إليها، ولا سيّما الضباط». لقد بات الآن معتاداً على العمل بدأب وثبات، ويُصدر عقله شرراً مع تواصل الأفكار التي تُثبت أن مخطّط موبرثْوي الممتاز محكوم عليه بالإخفاق. «قد يفضّل بعض الجنود بِذلاتهم القديمة ويحتفظون بها، أو يطلبون من خياط الفوج العسكري تجديدها بدلاً من استخدام تلك التي أرسلتَها لهم. لا أعرف ما هي الحال في فرنسا وألمانيا وروسيا، ولكن الشعب في إنكلترا لا يحب تلقّي أوامر بما يفعل أو يلبس. هم يلتفّون على أوامر مماثلة».

«ماذا عن النحل نفسه؟» أضافت فرجينيا بشكل غير متوقَّع. «كم عدد النحل الذي سيبلغ البرّ الرئيسي؟ كم عدد النحل الذي تحتاج إليه لتغطّي كل تلك المناطق حيث يُقيم الجيش قواعد له؟ هل لديك ما يكفي؟ وماذا يحدث في حالة البَرْد وموت النحل، وإذا لم يكن هناك ما يأكله النحل في إنكلترا، وإذا استقرّ في مكانه وبنى قفيراً وأصبح جزءاً من النظام الطبيعي هناك؟ سينتهي به الأمر، على الأرجح، بالتزاوج مع النحل المحلّي، النحل البريطاني، ويفقد كل أثر للعدوان الذي يقوم عليه مخططك».

«لقد أُخذت كل هذه العوامل بعين الاعتبار»، أجاب البارون بصوته الجافّ كالغبار، ولكنه بدا لشارلوك غير واثق من نفسه للمرة الأولى. «حتى ولو

غُسلت بعض البِذلات، ومات بعض النحل، ماذا في ذلك؟ ستكون أكثر الهجمات ناجحة بالرغم من ذلك. سيحدث موت على نطاق واسع، وسيُشَلّ الجيش البريطاني بسبب الخوف. يُشَلّ».

«أنت لا تفهم طريقة التفكير الإنكليزية. هل تفهمها؟» قال شارلوك بتهكّم. وعاد بعقله إلى دروسه في المدرسة، وما قرأ في الصحف حين كان يجلس بشكل مَلويّ في كرسيّ في مكتب والده، أو ما سمع من شقيقه مايكروفت. «هل سمعتَ يوماً بحملة لواء الفجر؟».

توقف صوت الصريف في الظُّلمة فجأةً. فتملّك شارلوك شعورٌ فجائيّ بأن آذاناً عدة تُصغي بانتباه إلى ما يقول.

«أوه، أجل»، هسهس البارون. «سمعتُ بحملة لواء الفجر».

«عام 1854»، تابع شارلوك، «أثناء حرب القَرْم، صدر الأمر للواءَي تنانين الفجر الرابع والثالث عشر، ولواء الرَّماحة السابع عشر، ولواءَي الخيّالة الثامن والحادي عشر، بالهجوم على الخطوط الروسية أثناء معركة بالاكلافا. كانوا يشنّون حملتهم في وادٍ وضع فيه الروس مدافع على جانبَيه وأمامهم، ولكنهم واصلوا الهجوم. لقد اتّبعوا الأوامر دون ذُعر أو تمرّد. لا أقول إن الإذعان الأعمى للأوامر هو أمر جيد، ولكن الانضباط راسخ في الجندي البريطاني كقضيب حديديّ في أسفل ظهورهم. إنني أعرف ذلك لأن والدي ضابط. هم لا يُذعَرون مطلقاً. حتى وإن حدثت وفيّات، يتم التعاطي مع الأمر كتفشّي الجُدَري أو الكوليرا. ألا تفهم؟ سيتجاهلون ذلك. هذا ما يقوم به البريطانيون. لهذا السبب، إن الإمبراطورية البريطانية واسعة الانتشار وقوية جداً. نحن نتجاهل الأمور التي لا نحب».

«تتكلم جيداً»، قال البارون، «ولكنني لا أصدقك. من الواضح أنك تعتقد بأن إمبراطوريّتك قائمة على أسس صَلبة، ولكنك مخطئ. فالأساسات متفسّخة، وسينهار البنيان إذا دُفع بقوة كافية. تعتقد أن الغد سيكون كالأمس، ولكنه لن يكون كذلك. سيتغيّر العالم وسيميل ميزان القوة لصالح شركائي في بارادول تشامبر».

’بارادول تشامبر‘؟ ما هذا؟ أثناء تكلم موبرثْوي، حفظ شارلوك ما يمكن أن يكون زلّة لسان مهمة ربما يكون مايكروفت راغباً في أن يعرف عنها.

افترض أن شارلوك لن يحظى أبداً بفرصة رؤية شقيقه ثانيةً، فأضاف:

«تعتقد أن شقيقك سيبقى رجلاً مهماً في الحكومة البريطانية، ولكنه لن يكون كذلك. سيجرفه تيار التاريخ مع بقيّة زملائه. وعندما يصبح بلدك الصغير المغرور هذا مجرد مقاطعة من دولة أوروبية عُظمى يمكنها منافسة أميركا

بالحجم والنفوذ، يَغدو مايكروفت هولمز وأمثاله فائضاً. لن تكون هناك حاجة إليهم في النظام العالمي الجديد. سيجدون أنفسهم تحت رحمة المِقصلة والمشنقة. لن ينجو».

كان صوت موبرتْوي قد بلغ مستوى هسهسة خفيضة تحرِفه حماسةُ هجاءِ بلد وشعب يكرههما جداً. لماذا يكره بريطانيا العُظمى كثيراً؟ وجد شارلوك نفسه يتساءل عن الوسيلة الفضلى: نقاش منطقيّ أو استدراج البارون إلى حالة أكثر انفعالاً. في كلتا الحالتين، إن النتيجة غير مؤكدة وهناك احتمال كبير أن يَلقى الاثنان حتفهما.

«إنه مجنون»، قالت فرجينيا لشارلوك بهدوء ولكن بثبات. «مجنون تماماً. من الواضح أن مخططه جنونيّ، والنتيجة التي يريد تحقيقها مستحيلة. سواءً أعجبه الأمر أم لا، فبريطانيا قوة عالمية. لا يمكنه عكس ذلك».

«أنا متفاجئ من دفاعكِ عن هذا البلد بهذه القوة، أيتها الفتاة»، هسهس البارون.

رفعت فرجينيا نظرها أثناء تكلّمه، متفاجئةً من كون البارون أدرجها في فكره. «لماذا أنت متفاجئ؟ لا أحب رؤية أشخاص أبرياء يُقتلون. هل هو أمر غريب؟».

«كان بلدك ممتنًّا لهذا البلد طوال أكثر من مئتَي عام»، أشار البارون. «كانت تُحكَم أميركا من لندن. كنتم مجرد بلد آخر، مثل هامبشير أو دورسيت، ولكن أكبر حجماً وأكثر بُعداً. لقد تعيّن عليكم التمرد على السيطرة البريطانية والتخلص من نير وستمينستر».

«وقمنا بذلك بواسطة قتال نظيف»، أشارت، «وليس بالخداع والمخططات السرّية. إذا كان لا بد لنا من خوض حروب، فهكذا يُفترض بنا خوضها إذاً، حرباً مُنصِفةً ومنفتحة ونظيفة. يجب أن تكون هناك قواعد للحرب كما أن للملاكمة قواعد».

«ساذجة»، تمتم البارون. «ساذجة جداً، وحمقاء. ستموتين مع الفتى قبل أن تعرفي أن نظامك العالمي القيّم قد أُطيح».

«تحب العمل في الظلال، أليس كذلك؟» تابعت فرجينيا بنبرة جعلت شارلوك يُلقي نظرة سريعة عليها، متسائلاً عما تخطّط له.

«يضرب المقاتل الناجح من الظلال ثم يختبئ فيها ثانيةً، وهكذا لا يعرف العدوّ الأكبر حجماً وقوةً أين يضرب»، همس البارون. «إنها حربِ المستقبل. بهذه الطريقة يتغلّب عدوّ صغير الحجم على خصم أكبر حجماً بكثير. من خلال التسلّل».

«تُفضّل الظلال؟ إذاً، لِنرَ كيف تحب نور الشمس»، صاحت وقفزت على قدمَيها. فشعر شارلوك بنشاط مضطرب في الطرف الظليل للغرفة مع استعداد السيد سورد لاستخدام سَوطه المعدنيّ الرأس، ولكن فرجينيا اندفعت في اتجاه جانب واحد، واخترق السَّوط ظهر الكرسي الذي أخلَته للتوّ. التقطت الستائر المخملية السوداء القائمة على امتداد الغرفة وفتحتها بقوة. سمع شارلوك صوت تمزّقٍ مع إفلات المخمل من سكة الستارة، ثم سقطت ملاءة كاملة من القماش على الأرض في انهيار بطيء، مُحدثةً صوتاً شبيهاً بعاصفة مطريّة بعيدة، متيحةً لنور الشمس الساطع دخول الغرفة.

ظهرت في أنحاء الغرفة أشكال بشرية مقنَّعة بملابس سود، ولكن نظرة شارلوك المحدّقة استقرّت على البارون الجالس في كرسيّ أكبر من المعتاد عند طرف الطاولة. إنه في الواقع الرجل الأبيض الشعر، زهريّ العينَين، الذي سبق له أن رآه في العربة في فارنهايم. كان ينظر شزَراً في الضوء، حامياً وجهه بيد، في حين ارتفعت اليد الأخرى مع نظارة ذات عدستين داكنتين وضعها فوق عينَيه الحساسَتين. ذراعاه نحيلتان وملتويتان كأغصان شجر سنديان معمِّرة، ورأسه يتدلّى على كتفَيه، ويرتدي ما بدا أنها بِذلة عسكرية: سوداء وعلى الصدر وطرفَي الكمَّين شريط ذهبيّ مزخرَف، وحول جبينه إطار خشبيّ من نوع ما. استقام رأسه فجأةً وحملقت عيناه إلى شارلوك بقوة من وراء العدستَين الداكنتَين لدرجة أن شارلوك شعر بحرارتهما. ولاحظ وجود أسلاك منبثقة من الإطار في اتجاه الأعلى، وتُسحَب تلك الأسلاك بشدة عندما يستقيم رأس موبرثْوي.

كان السيد سورد واقفاً بجانب البارون، وتبدو النُّدوب على رأسه رصاصيةَ اللون تحت النور الداخل من النافذة، كعشّ ديدان منتشر عبر جمجمة عارية. حدّق إلى شارلوك وفرجينيا وفي عينَيه وعدٌ بالموت، ملوّحاً بسَوطه.

«لا!» هسهس البارون. «إنهما لي!».

حدّق شارلوك إلى جسد البارون موبرثْوي الملتوي. كان هناك مزيد من الحبال المتصلة بأُطُر خشبية أصغر حجماً على مِعصمَي البارون وإبطَيه، ويغلّف إطار خشبيّ أكبر حجماً صدره. وتتجه حبال أكثر سماكة من إطار الصدر صعوداً، وأثناء قيام شارلوك بتتبّعها إلى الأعلى في اتجاه سقف الغرفة، أدرك أن كل الحبال متصلة بعارضة خشبية ضخمة أشبه بمِشنقة مدلاّة فوق البارون. وينضمّ طرف العارضة الأقرب إلى شارلوك إلى عارضة متقاطعة أصغر حجماً مغطاة بعلاّقات وحلْقات معدنية على محاور صغيرة. وتمرّ الحبال عبر هذه العلاّقات والحلْقات، فتتبّع شارلوك أثرها إلى حيث يمسك الأطرافَ خدّامٌ مقنَّعون يرتدون ملابس سوداً. لا بد من أن يكون عشرون حبلاً أو ربما ثلاثون، متصلة بأجزاء من جسم البارون. أثناء قيام

شارلوك بالمراقبة، غير مصدِّق، عمد بعض الخدّام إلى شدّ حبالهم بكل قوّتهم، في حين أرخى آخرون حبالهم أو رفعوا الجزء الرَّخو دون سحبه في الواقع. بهذه الطريقة، انتفض البارون في وضعية مستقيمة.

إنه دُمية: دمية بشرية يشغّلها آخرون بشكل كامل.

«غريب، أليس كذلك؟» همسهس البارون. بدا الأمر كما لو أن عينَيه وأُذُنَيه هي الأجزاء الوحيدة من جسده التي يمكنه تحريكها. ارتفعت يده اليمنى وأومأت إلى جسده؛ لقد تمّت هذه الحركة بفعل سلسلةِ حبال متصلة برسغه وإبطه وكتفه، وحبالٍ أقصر حجماً مثبَّتة بحلْقات على بُرجُماته، تتحرك لا برغبة من البارون بل من خدّامه المرتدين ملابس سوداء ويستبقون ما يودّ القيام به. «هذا هو الإرث الذي تُرك لي من الإمبراطورية البريطانية. لقد ذكرتَ حملة لِواء الفجر، أيها الفتى. كان اشتباكاً مُتعِباً لا طائل منه مستنداً إلى أوامر أُسيء فهمها في حرب لم يكن يُفترض أن تُخاض. كنت هناك، في ذلك اليوم المكفهرّ مع إيرل لوكان. كنت مسؤول الارتباط لديه مع الخيّالة الفرنسية الذين كانوا على مَيسرته. رأيتُ الأوامر عندما وصلت من اللورد راغلان. عرفتُ أنها مُصاغة بطريقة سيئة وأن لُوكان أساء فهمها».

«ماذا حدث؟» سأل شارلوك.

«أثناء الحملة، أجفلت نيران المدفعية حصاني، فرماني عن السَّرج ووقعتُ أرضاً أمام مئات جياد البريطانيين. لقد وثبت فوقي تماماً، وأشك في أن تكون قد رأتني. شعرتُ بعظامي تتحطم مع دَوس الحوافر عليّ. تحطّمت ساقاي، وذراعاي، وأضلعي، ووَرِكاي، وجمجمتي. لقد أُصيبت كل عظمة كبيرة في جسدي، ومعظم العظام الأصغر حجماً، بكسور. في الداخل، كنت أشبه بأُحجيةِ صور مقطّعة».

«كان يُفترض بك أن تموت»، قالت فرجينيا، ولم يكن شارلوك واثقاً مما إذا نطقت الكلمات بشفقة أم أسف.

«عثر عليّ مواطنيّ بعد قيام المدفع الروسي بتمزيق البريطانيين إرَباً»، تابع موبرثْوي. «لقد نقلوني إلى خارج أرض المعركة، وضمّدوا جراحي، وأعادوا وصل أطرافي بأفضل طريقة ممكنة، وساعدوا عظامي على الشفاء، ولكن عُنُقي تحطّم، ولا أستطيع تحريك ساقَيّ بالرغم من مواصلة قلبي الخفقان. لم يجرؤوا على حملي بعيداً، لذلك استلقيتُ هناك في خيمة في حر القَرْم المُنتِن وبرده القارس طوال عام، عام كامل. وفي كل ثانية، ودقيقة، وساعة، ويوم، وأسبوع، وشهر، من وجودي هناك، لعنتُ البريطانيين وغباءهم في اتّباع الأوامر مهما تكن تلك الأوامر غبيّة».

«اخترتَ أن تكون هناك»، أشار شارلوك. «كنتَ ترتدي بِذلة وواصلتَ الحياة بالرغم من وفاة مئات الرجال الصالحين».

«وأتمنى كل يوم لو أنني متُّ معهم. ولكنني أحيا، ولديّ هدف: تركيع الإمبراطورية البريطانية، بدءاً بك، أيها الصغير».

أثناء لفظ الكلمات بعنف، بدا موبرثْوي يطفو في الهواء ويهبط على الطاولة بخِفّة. وشُدّت الحبال فوقه بعد قيام محرِّكي الدُّمى المرتدين ملابس سوداً بسحبها. وملأ ضجيج صارّ الغرفة أثناء تحمّل الحبال والخشب وزن البارون. كان الخدّام قد تكهّنوا بطريقة ما بما أرادهم أن يفعلوا. وافترض شارلوك أنهم يعملون معه منذ مدة طويلة لدرجة معرفتهم، غريزياً، بطريقة تفكيره وترجمتها أفعالاً فورية. مع لمس قدمَي موبرثْوي الطاولة، قفز شارلوك عن كرسيّه. وإلى جانبه قامت فرجينيا بالمِثل.

«أيها البارون!» نادى السيد سورد. «لستَ بحاجة للقيام بذلك بنفسك. دَعني أقتل الصغيرَين نيابةً عنك!».

«لا»، هسهس البارون. «لستُ كسيحاً! سأُزيل هذَين الصغيرَين المتطفّلَين بنفسي! كل تلك الأشهر، كل ذلك الوقت الذي قضيته مشلولاً وأنا أصمّم هذه الأحزمة، لن يذهب سُدىً. سأقتلهما بنفسي!هل تفهم؟».

«على الأقل، دَعني أقتل الفتاة»، أصرّ سورد. «على الأقل، دَعني أقُمْ بذلك نيابةً عنك».

«جيد جداً»، تنازل البارون. «إذاً، سأتعاطى مع الفتى».

منعدِم الوزن، كما يبدو، انجرف موبرثْوي في اتجاه شارلوك، وقدماه تتحركان ولكنهما بالكاد تلمسان سطح الطاولة. بسط يديه في اتجاه الفتى، وظنّ شارلوك للحظات أن البارون يدعوه للوقوف على الطاولة، ولكن الحبال والأسلاك سُحبت بشدة فجأةً داخل كمّ بِذلة البارون، وخرج نَصل برّاق من غِمد مخبَّأ على امتداد ساعده. وأطبقت أصابعه الشبيهة بعساليج على مِقبضٍ مبطّن دون التحكّم تماماً في النَّصل.

تراجع شارلوك في اتجاه البِذلة المدرَّعة القائمة بجانب الباب، والتقط السيف من قبضتها، مُوقعاً الدّرع أرضاً.

لم يكن شارلوك مدركاً أن السيد سورد يخرج من الظلام، وسَوطه المعدنيّ الرأس مدلّى من يده بشكل تهديديّ. عندئذٍ، اندفع البارون من الطاولة في اتجاهه، ملوِّحاً بسيفه. كانت البنية الشبيهة بمِشنقة التي تحمله مزوَّدة بعجَلات، ووراءها خدّام يدفعونها ويسحبونها ويحرفونها. باستطاعة موبرثْوي

الانتقال إلى أي مكان في الغرفة في غضون ثوانٍ وبشكل أسرع من شارلوك.

لوّح البارون بسيفه، فتجنّب شارلوك الضربة بصعوبة، شاعراً بتعرّض عضلات كتفه للإصابة. كان الشرر يتطاير لدى اصطدام الأنصال ببعضها. قفز البارون في الهواء، موجّهاً نَصله إلى رأس شارلوك، فتدحرج شارلوك ووقف على قدمَيه، وشقّ نَصل البارون ظهر الكرسي حيث كان شارلوك جالساً قبل لحظات، مُطلقاً شظايا خشب في الهواء، ومُرسِلاً أجزاء من الكرسي في كل الاتجاهات.

ألقى شارلوك نظرة سريعة ويائسة إلى يمينه. كانت فرجينيا تتراجع بعيداً عن السيد سورد الذي يفكّ سَوطه، مُطلقاً إيّاه في اتجاهها كثعبان منقضّ. جفلتْ وحاولت الابتعاد، ولكن بعد فوات الأوان. لقد ظهر جرح بليغ على خدّها وتطاير الدم على بشرتها على شكل زهرة.

أراد شارلوك بيأس الإسراع لمساعدتها، ولكن البارون هبط بخِفّة على الأرض أمامه. وقف شارلوك على قدمَيه بسرعة، ووجّه ضربة جانبية بسيفه، محاولاً قطع أحد الحبال والأسلاك التي تجعل البارون واقفاً، ولكن الخدّام المرتدين ملابس سوداً سحبوا سيّدهم إلى الوراء بعيداً عن متناول شارلوك. ارتسمت على وجه البارون الأبيض الشبيه بجمجمة ابتسامة متجهّمة، وبدت عيناه زهريّتا اللون الشبيهتان بعينَي جُرَذ متوهّجتَين انتصاراً. اندفع إلى الأمام، مزحلِقاً قدمه اليمنى على السجادة، ومادًّا السيف بذراعه اليمنى، محاولاً توجيه طعنة مثالية، في حين تَسند قدمه اليسرى جسمه. تمكّن شارلوك من سماع نخير الخدّام في الظلال أثناء إلقاء ثِقلهم على الآلية التي تحمل البارون. واندفع النَّصل بسرعة في اتجاه حَلْق شارلوك الذي حاول تجنّب الضربة، لكن قدمَيه تعثّرتا بطيّات السجادة وتمدّد على ظهره، واصطدم رأسه بالأرض.

«كنت أعظم مبارز في السيف في كل فرنسا! وما زلتُ!» قال موبرثْوي.

صاحت فرجينيا، فألقى شارلوك نظرة سريعة لا إرادية في اتجاهها. لقد ثبّتها سورد على الجدار، وكان هناك جُرح آخر على جبينها. شحب احمرار الدم بسبب لون شعرها النحاسيّ الذي يومِض في نور الشمس المتدفق عبر النافذة. حاول شارلوك التحرك في اتجاهها ولكن سيف البارون أومض من العدم، شاقًّا ياقة قميصه وناقشاً خط نار عبر صدره. دفع نفسه للوقوف على قدمَيه، وتراجع بسرعة ونَصله يلوح أمامه في محاولة يائسة لصدّ هجمات البارون.

بواسطة آلية خشبية تتحرك صعوداً ونزولاً وصريف حبال، ارتفع جسد البارون وطار إلى الأمام بطريقة لا يضاهيها أي سيّاف بشريّ. لوّح بسيفه أُفُقياً كمِنجل. وبالرغم من ادعاءاته بأنه سيّاف بارع، تلاشت من عقله كل أفكار المهارة في استعمال السيف. لقد شرع بتوجيه ضربات عشوائية لشارلوك الذي تعبت ذراعاه من جهود صدّ الضربات، شاعراً بحريق في عضلاته وبانشداد أوتاره كأوتار كَمان.

طار شيء ما في الهواء بجانب رأس شارلوك، فاستدار لينظر. إنه قفّاز معدنيّ؛ هو جزء من البِذلة المدرّعة التي أوقعها أرضاً في وقت سابق. كانت فرجينيا قد التقطتها عن الأرض ورمتها على السيد سورد الذي حمى وجهه. والتقطت فرجينيا جزمة مصفَّحة ورمتها، فأصاب الإصبع المعدنيّ أعلى عين السيد سورد الذي شتم.

تراجع شارلوك مع تقدّم موبرثْوي إلى الأمام بخطى واسعة، والحبال فوق الرجل المحطَّم تصرِف تحت وطأة ثِقله. كيف تمكّن محرّكو الدُّمى من تنسيق حركاتهم بشكل جيد؟ سار موبرثْوي كأي شخص آخر لم يتعرّض لتلك الإصابات المروِّعة، لا بل كان هناك اختيال في مشيته.

رفع البارون سيفه بجانب أُذُنه اليسرى ووجّه ضربة قُطرية إلى رأس شارلوك. صدّ شارلوك الضربة، وتطاير من نقطة تصادم السيفَين شرر كحشرات متوهّجة بالغة الصِّغر، لاسعةً عُنُق شارلوك وكتفَيه.

إنه أمر ميؤوس منه. فموبرثْوي سيّاف بارع، وبالرغم من إعاقته، يقوم خُدّام مجهولو الهوية بأداء كل حركة يقوم بها. فإما أن يكون هؤلاء الخُدّام سيّافين بارعين - يثق شارلوك بهم - وإما أنهم تدرّبوا مع البارون لمدة طويلة إلى درجة عملهم سويًّا بشكل غريزي ككائن حيّ واحد دون الحاجة للتواصل أو التفكير. كم ألف ساعة قضاها موبرثْوي في تدريبهم حتى باتوا امتداداً لإرادته؟

تحرّك شارلوك تدريجاً إلى الوراء، ولكن مِرفقه وكتفه اصطدما بشيء صَلب. الجدار! لقد تراجع أكبر مسافة ممكنة.

عاد مِرفق موبرثْوي إلى الوراء وانقضّ سيفه إلى الأمام كالبَرق، فانزلق شارلوك جانبياً، وشقّ النَّصل ياقة سترته وعلق مع السترة داخل فجوة بين كتلتَين حجريّتَين. حاول شارلوك الابتعاد ولكنه كان عالقاً كفراشة على لوح.

استعاد نشاطه، منتظراً قيام موبرثْوي بتسديد ضربة نهائية بواسطة نَصله كي يتمكن من الانسلال إلى الأسفل والفرار، ولكن موبرثْوي رفع يده اليسرى بدلاً من ذلك. وتلوّت أسلاك وحبال كأوتار، وخرج شيء ما من كمّ البارون

الأيسر. ظنّ شارلوك للحظات أنه سكين، ولكن كان هناك شيء غريب في الطرف المستدقّ. لقد بدا أسطوانةً معدنية أكثر منها حافّة مسنَّنة.

أزّ شيء ما في الظلام وراء موبرتْوي وشرع الدولاب بالدوران حول نفسه، ناثراً كِسَراً متلألئة من الضوء في كل اتجاه. لقد تمكن شارلوك من الشعور بالهواء يمسّ وجهه مع تقريب البارون الدولابَ الشبيه بمنشار من عينه اليمنى أكثر فأكثر.

اعتراه يأس كبير. لا يمكن مقارنة شارلوك بالبارون، ولا يمكنه تحمّل هذا النوع من العقوبة أكثر من لحظات قليلة.

ولكن عليه إنقاذ فرجينيا.

حثّته الفكرة على بذل جهد أخير، فالتوى ساحباً ذراعه من كمّ السترة ووقع على البلاط مع اصطدام الأسطوانة الآزّة بالجدار، مُحدِثةً شرراً ومطلقةً كِسَراً من الحجارة. لعن البارون وحاول سحب سيفه من بين الحجارة.

إذا لم يكن شارلوك قادراً على هزم موبرتْوي بمهارته كسيّاف بارع، فسيهزمه بقوة عقله. وكل ما يتعيّن عليه القيام به هو اكتشاف نقطة ضعف واحدة، شيء ما يمكنه استغلاله ويكون مرتبطاً بطريقة تحرّك موبرتْوي أو طريقة تحريكه. تلك هي نقطة ضعفه. حاول شارلوك مجدداً توجيه ضربة للحبال والأسلاك التي تجعل موبرتْوي يقف، ولكن البارون وعى هذا الأمر وتجنّب نَصل شارلوك بدون عناء بواسطة المنشار الدوّار في يده اليسرى، في حين ردّ النَّصلَ بذراعه اليمنى.

تراجع شارلوك وكاد أن يتعثر فوق بقايا الكرسي حيث كان يجلس. طقطق الخشب عندما ركله، وارتسمت خطة مفكَّكة في عقله. ودون انتظار التفكير فيها مليًّا، انحنى شارلوك والتقط أضخم جزء من الكرسي بيده اليسرى: قطعة تتضمّن معظم ذراع الكرسي وجزءاً من المقعد وقائمة منحوتة. وأثناء قيام البارون بتوجيه ضربة إلى جبين شارلوك غير المحميّ، رفع شارلوك قطعة الكرسي فانغرس نَصل البارون في الخشب عميقاً. وقبل أن يتمكّن البارون من سحب النَّصل، اندفع شارلوك إلى الوراء، رافعاً السيف فوق رأس البارون. قشط قفا يدِ شارلوك أحدَ الحبال التي تحمل موبرتْوي، ولوى الخشب، حانياً السيف خارج قبضة البارون تقريباً، وثانياً إيّاه وراء حبال أخرى. تدلّت قطعة الكرسي الخشبيّ في الهواء وعلقت بين الحبال. رفع شارلوك يدَيه والتقط الحبل الأول ثم الحبال والأسلاك المتبقية، وشبكها وراء الخشب، مستخدماً كل قوّته.

«ماذا تفعل؟» صاح البارون، ولكن بعد فوات الأوان. لقد أصبحت الحبال الممسكة به مثبَّتة في مكانها بواسطة قائمة وذراع الكرسي الخشبي، فتأرجح موبرتْوي بعَجز. وبذل الخدّام الموجودون في ظُلمة طرف الغرفة قُصارى جهدهم، ولكن بدون طائل. لم يتمكّنوا من فصل بقايا الكرسي عن الحبال.

خطا شارلوك إلى الوراء، ووجّه ضربة بسيفه إلى الحبال وقطع خمسة أو ستة منها. وانقطع ما تبقّى منها فجأةً، محدثاً صوت نَقْر في زوايا الغرفة. سقطت ذراعا البارون، وتدلّى رأسه على جانب واحد.

«ستدفع ثمن ما فعلتَ»، هسهس.

«أَرسِل لي فاتورة»، قال شارلوك بهدوء. واستدار إلى حيث تقف فرجينيا، مستعدًّا للقفز لمدّ يد العون لها، ولكنه رآها تضرب رأس السيد سورد بالخوذة الحديدية المسنَّنة الأطراف التابعة للبِذلة المدرَّعة، فخرّ على الأرض وهو ينزف، فاقداً الوعي.

«كنت قادماً للمساعدة»، قال شارلوك.

«غريب»، أجابت فرجينيا. «وأنا كذلك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

«الشكر لله على إنقاذنا من البارون موبرتْوي»، قال شارلوك بهمسٍ نابع من القلب أثناء إغلاق باب غرفة الطعام وراءهما. لم يكن هناك قفل في الباب، لذلك ألقى بثِقله على خزانة من خشب الساج موجودة بجانبه، فصأت قوائمها على البلاط عندما تحرّكت.

«لماذا؟» قالت فرجينيا بغضب، مُضيفةً وزنها إلى وزنه. فانزلقت الخزانة في اتجاه الباب، حائلةً دون التمكن من فتحه. «ما سبب قيامه بكل ذلك؟».

لا بد من أن يكون خدّام البارون موبرتْوي قد بلغوا باب غرفة الطعام، لأنه فُتح فجأةً قليلاً واصطدم بالخزانة. لقد حاولوا فتحه مرات قليلة، ولكن الخزانة لم تتحرك.

«يحب أن تبدو كل الأماكن التي يعيش فيها مماثلة. هكذا أعرف مكان وجود الاسطبلات. هيا بنا!» وتقدّم فرجينيا عبر مؤخَّر المنزل إلى باب خارجي، وعندما تأكد من عدم وجود أيٍّ من خدّام موبرتْوي في الخارج، اندفع وفرجينيا من وراء جانب القصر وعثرا على الإسطبلات. بالنظر إلى موقع الشمس، عرفا أن الوقت منتصف الصباح. كانا قد أُبقيا مخدّرَين لليلة واحدة على الأقل، وربما أكثر.

شرعت فرجينيا على الفور بسَرج حصانين. «ماذا سنفعل، يا شارلوك؟ نحن في بلد أجنبيّ! حتى إننا لا نتكلم اللغة!».

«في الواقع، أنا أتكلمها»، واحمرّ وجهه.

«تتكلم ماذا؟».

«أتكلُّم اللغة. قليلاً، بأي حال».

فالتفتت ورمقته بنظرة غريبة. «كيف تعلّمتَها؟».

«عائلتي متحدرة من سلالة فرنسية لجهة والدتي. لقد اعتادت الإصرار على تعلّمنا اللغة. قالت إنه إرث عائلتنا».

مدّت فرجينيا يدها للمس ذراعه. «لا تتحدث عنها»، قالت. «تحدّثْ عن والدك وشقيقك، ولكن ليس عنها».

«لا»، قال شارلوك، شاعراً بانقباضٍ في حَلْقه. وأشاح بنظره كي لا تنظر في عينَيه. «لا أتحدث عنها».

شدّت فرجينيا الحزام على الحصانين. «إذاً، نظراً إلى أنك تتكلم اللغة بالفعل، أين نذهب؟ هل نطلب المساعدة؟».

«نتوجّه إلى ميناء»، قال شارلوك. «أصدر موبرثْوي توجيهات لإطلاق النحل. إذا لم نوقفها ستقتل أشخاصاً. ربما ليس بالعدد الذي يتوقعه موبرثْوي، ولكن لا يزال هناك بعض الجنود البريطانيين الذين سيَلقون حتفهم. علينا إيقاف عملية إطلاقها».

«ولكن...».

«لِنَقُم بالأمر خطوةً خطوة»، قال. «لِنذهبْ إلى الشاطئ. من هناك، يمكننا إرسال برقية لشقيقي، أو شيء ما. أي شيء».

أومأت فرجينيا برأسها. «امتطِ الحصان، أيها السيّاف البارع».

أطلق شارلوك ابتسامة عريضة. «كنتِ رائعة تماماً أيضاً هناك في الداخل».

وأطلقت ابتسامة عريضة بدَورها. «بالفعل، أليس كذلك؟».

امتطيا حصانيهما، وانطلقا من القصر والصياح قد بدأ يتردّد صداه وجرس إنذار يطن. لقد أدرك شارلوك أنهما سيكونان قد ابتعدا في غضون لحظات، ولن يتمكنوا من الإمساك بهما.

توقّفا في القرية الأقرب كي يسألا عن مكان وجودهما. كانا جائعَين، ولكنهما لا يملكان مالاً فرنسياً، وكل ما تمكّنا من القيام به هو النظر بتَوق إلى النقانق المدلاّة في نوافذ المتجر، وإلى لِفافات الخبز الطويلة بمقدار طول ذراع شارلوك والمكدَّسة على صوانٍ. قال مزارع لشارلوك بأنهم على بُعد أميال قليلة من شربورغ، ودلّهما إلى الطريق الصحيح، فتابعا السير.

ألقت فرجينيا نظرة سريعة عليه. «لا بأس بك»، قالت. «تمتطي الحصان كما لو أنه دراجة هوائية وليس مخلوقاً حيًّا، ولكن مع ذلك... لا بأس».

توقفا ثانيةً، بعد نصف ساعة، عند أطراف بستان إجّاص، وملآ جيوبهما إجّاصاً تناولاه أثناء سيرهما والعُصارة تتقاطر على ذَقنَيهما. مرّا بالريف المألوف لشارلوك ولكن المختلف عن الريف الذي اعتاد عليه في إنكلترا. كان رأسه يخفق بقوة كوَقع حوافر حصانه، وبحاجة لمعرفة ما سيفعلان عندما يبلغان شربورغ.

لدى وصولهما إلى هناك، لم يكن قد كوّن بعد فكرة واضحة.

كانت البلدة مبنيّة على جانب تلّة تؤدّي إلى مياه الميناء الزرقاء المتلألئة. وكانت حوافر الحصانين تطقطق على حجارة الرَّصف. أُرغما على السير

بخُطى بطيئة كي يتمكنا من المرور عبر الحشود المتجمهرة حول بَسْطات ومتاجر متنوّعة قائمة على امتداد الشوارع المتعرّجة. إنه مشهد مألوف في أي مكان على امتداد الساحل الجنوبي لإنكلترا، باستثناء موضة الملابس وانتشار الأجبان على البَسْطات.

ترجّل شارلوك وفرجينيا، وتركا حصانيهما مربوطَين إلى سياج. سيعتني شخص ما بهما. واختبر مهاراته اللغوية إلى أقصى حد من خلال السؤال عما إذا كان هناك مكتب تلغراف في الأنحاء، وصُدم عندما وجد أن المكتب الأقرب موجود في باريس. كيف سيتصلان بمايكروفت الآن؟

كان عليهما العثور على سفينة والعودة إلى إنكلترا. إنه أملهما الوحيد.

عثرا على مكتب مدير الميناء وسألا عن سفن ومراكب مُبحرة إلى إنكلترا. «هناك كثير منها»، قال لهما مدير الميناء، وعدّد أسماءها. كانت هناك أربعة مراكب محلّية تنقل سِلعاً إلى السوق - أجبان، لحوم، بصل - ذهاباً وإيّاباً، ويمكنه أن يوصي ربابنتها بهما.

والمركب الخامس مركب صيدِ سمك بريطاني رسا بشكل غير متوقَّع في ذلك الصباح. ويُدعى إيغلانتين.

انتفض شارلوك عند سماع الاسم كمن أُلقي دَلو مياه باردة على وجهه. للحظة من الزمن، اقتنع شارلوك بأن السيدة إيغلانتين - مدبّرة منزل عمّه وعمّته - هي العقل المدبِّر وراء هذا الأمر برمّته، ولكن بعد قليل فهم الأمر بطريقة أفضل: لا بدّ أن أحدهم يستخدم الاسم علامة للفت انتباهه، وقد نجح في ذلك.

فالواقع أن إيغلانتينمركب صغير مخبَّأ في رصيف داخل البحر عند طرف الحَوض، وحوله شباك الصيد كخيوط عنكبوت. كان آميوس غروي وماتي آرنات بانتظارهما قرب مَعبَره المتحرك.

اندفعت فرجينيا بين ذراعَي والدها. فرفعها وجعلها تترجّح في الهواء، وضمّها إلى صدره. وضرب شارلوك ظهر ماتي براحة يده.

سأل: «كيف عرفتما أين تجدوننا؟ كيف عرفتما في أي بلدتبحثان؟».

«عليك أن تتذكر، مهنتي تعقُّب الآثار»، قال غروي. «عندما لم تَعُد إلى الفندق، وعندما أدركنا أن جيني مفقودة، حاولنا اقتفاء أثركما. سمعتُ عن النار في نفق روثرهيث، وبعد قليل من الاستجواب، تبيّن أن فتى بمواصفاتك شوهد يهرب. في غضون ذلك، تعقّب ماتي هنا أثر المركب الذي نقل جيني إلى رصيف المرفأ. وعندما وصلنا إلى هناك، كانت سفينة موبرثْوي قد أبحرت، ولكن مدير الرصيف تذكّر رؤيتكما تُنقلان إلى متن السفينة. قال إنكما

جُررتما. وبدأت السفينة رحلتها، ولكنه تذكّر سماع البحّارة يقولون كم كانت الرحلة عبر القناة الإنكليزية إلى شربورغ قصيرة. لذلك، إستأجرنا مركب صيد سمك وانطلقنا بحثاً عنكما. وصلنا إلى هنا بعد وصول سفينة موبرتْوي بوقت قصير. قلت في سرّي: إما أنهم أبطأوا وإما أنهم توقفوا في مكان ما على الطريق. لم أكن واثقاً». كان صوته جديًّا ومتأمِّلاً كالعادة، ولم تكشف كلماته أي شيء عن حالته الذهنية، ولكن شارلوك وجده أكبر سنًّا بطريقة ما وأكثر شعوراً بالإرهاق. أبقى ذراعه حول كتفَي فرجينيا، ضامًّا إيّاها إليه، ولم تبدُ راغبةً في الابتعاد عنه. «اكتشفتُ أن للبارون مكاناً في الجوار، وكنت على وشك استخدام رجال محليّين لتشكيل فصيل قويّ عندما ظهرتما. إنه ملتقى طرق مفيد».

«الأمر مفهوم»، قال شارلوك. «كنا متوجهَين إلى أقرب ميناء من قصر البارون موبرتْوي. من الواضح أن سفينته ترسو هناك، وكنتما تتبعان سفينته. في كل الأحوال، كان الأمر لِينتهي بنا في شربورغ في مرحلة ما. وابتسم. «لكن الأمر الوحيد المثير للدهشة هو أنكما عثرتما على مركب يدعى إيغلانتين تيمّناً بمدبّرة منزل عمّي. كيف عثرتما على هذا المركب؟».

«كان يُدعى روزي لي»، قال غروي، مبتسماً لشارلوك بالمِثل. «كنت أبحث عن اسم مألوف لديك يلفت انتباهك إذا كنتَ في المنطقة وتبحث عن طريقة للعودة إلى إنكلترا. كنت سأطلق اسم مايكروفت هولمزعليه، ولكن قبطانه أبلغني بأن السفن والمراكب يُطلَق عليها أسماء نساء».

«كنتَ تتوقعمنا أن نفرّ من البارون؟».

أومأ غروي برأسه. «كان سيخيب ظنّي لو لم تفعل. أنت تلميذي، وجيني ابنتي. أي نوع من المدرّسين أكون لو لم تتصرّفا بشجاعة وبقيتما سجينَين؟» كانت كلماته غير جدّيّة وعلى وجهه ابتسامة، ولكن شارلوك شعر بقلق خَفيّ عميق، لا بل بخوف ربما، في صميم غروي من أن إمكانية ظهورهما بدأت تتراجع. مدّ غروي يده الكبيرة وأمسك كتف شارلوك. «لقد أبقيتَها آمنة»، قال بهدوء أكبر. «أشكرك على ذلك».

«أعرف أن كل ما قمتَ به للوصول إلى هنا منطقيّ»، قال شارلوك بهدوء مماثل، «ونجح كل شيء. ولكن ماذا كان سيحدث لو لم ينجح الأمر؟ ماذا لو لم نهرب، أو سلكنا طريقاً مختلفاً، أو كنتَ عند أحد طرفَي الحوض وكنا عند الطرف الآخر وصعدنا إلى مركب مختلف؟ ماذا كان لِيحدث عندئذٍ؟».

«كانت الأمورُ عندئذٍ ستتخذ منحى مختلفاً»، قال غروي. «نحن هنا لأن الأمور حدثت على هذا النحو. يمكن للمنطق أن يقلّل الاحتمالات إلى حد كبير، ولكن

هناك على الدوام فرصة يتعيّن النضال في سبيلها. نحن محظوظون هذه المرة. في المرة التالية... من يعلم؟».

«لا أتوقّع وجود مرة تالية»، قال شارلوك. «ولكننا لا نزال بحاجة إلى إيقاف مخططات البارون».

«ما هي؟» سأل غروي، ووجهه متجعّد بسبب الدهشة. «لقد جمعتُ بعض أجزائها، ولكن ليس كل شيء».

بسرعة، شرح شارلوك وفرجينيا مسألة النحل، والبِذلات الرسمية الملوَّثة، وخطة قتل نسبة كبيرة من الجنود البريطانيين أثناء استراحتهم في ثُكنات إنكلترا. وبدا غروي متشككاً بقَدْر شارلوك في شأن فاعلية الخطة، ولكنه اعتبر أن بعض الوفيّات ستحدث، وأن حالة وفاة واحدة تُعتبَر غير مقبولة. يجب إيقاف النحل.

«ولكن كيف يمكن للنحل إيجاد طريقه عبر البحر وصولاً إلى البَرّ الرئيسي، ثم التوجّه إلى الثُّكنات؟» سأل غروي.

«قرأتُ عن النحل في مكتبة عمّي»، أجاب شارلوك. «النحل مخلوقات مثيرة للدهشة. باستطاعتها التمييز بين مئات الروائح المختلفة بتركيز أقل بكثير مما يحتاج إليه الإنسان، وباستطاعتها السفر أميالاً بحثاً عن مصدر تلك الروائح. ما كنت لِأتفاجأ لو كان الأمر ممكناً». وكفّ عن الكلام، متذكراً. «تحدّث عن حصن. قال لرَجله - السيد سورد - إنه يجب إطلاق النحل من حصن. هل هناك أي تحصينات على امتداد هذا الشاطئ، أو على امتداد شاطئ إنكلترا، يمكنه استخدامها؟».

«ليس ذلك النوع من الحصون»، قاطع ماتي آرنات.

«ماذا تعني؟».

«هناك حصون مبنيّة في القناة الإنكليزية، حول ساوثمبتون وبورتسماوث وجزيرة وايت، على صورة جزر»، قال. «لقد شُيّدت هناك تحسُّباً لقيام نابوليون باجتياح البلد. معظمها مُقفِر الآن لأن الاجتياح لم يحدث».

«كيف تعرف ذلك؟» سألت فرجينيا.

تجهّم وجه ماتي. «كان والدي متمركزاً في أحدها عندما كان في الأسطول البحري الحربي. أخبرني كل شيء عنها».

«إذاً، ما الذي يحملك على الاعتقاد بأن موبرثْوي يستخدم أحدها؟» سأل شارلوك.

«قلتَ إنه يكره البريطانيين بسبب ما حدث له. أليس من المنطقي أن يستخدم أحد الحصون التي بُنيت للدفاع عن أنفسنا ضد الفرنسيين؟».

أومأ غروي برأسه. «للفتى وُجهة نظر. فبالرغم من مغادرة سفينته لندن قبل أن تتمكّن، أنا وماتي، من استئجار مركب لنا، فقد وصلوا قبلنا إلى شربورغ. لا بد من أن يكونوا قد توقفوا عند أحد تلك الحصون لوضع قُفران النحل هناك».

«ولكنّ هناك أعداداً كبيرة منها»، قال ماتي. «لا نملك الوقت للبحث عنها كلها».

«لا يريد للنحل أن يطير بعيداً جداً»، أشار شارلوك. «نبحث عن الحصن الأقرب إلى الشاطئ. ويريد من النحل أن يكون قريباً من قاعدة عسكرية متوسطة الحجم. نحن بحاجة إلى خارطة لإنكلترا والشاطئ، وعلينا رسم خطوط بين كل حصن قُبالة الساحل وكل قاعدة للجيش البريطاني. نبحث عن الخط الأقصر». وتنقّل نظره بسرعة بين وجهَي آميوس غروي وفرجينيا المذهولَين. «عِلم هندسة بسيط»، قال.

«ماذا نفعل عندما نجد الحصن المحدَّد؟» سأل ماتي.

«يمكننا العودة إلى الشاطئ البريطاني وتوجيه رسالة لمايكروفت هولمز»، زمجر غروي. «باستطاعته إرسال سفينة تابعة للأسطول البحري الحربي الملَكي إلى الحصن».

«تأخير كبير»، قال شارلوك، هازًّا رأسه. «علينا الذهاب إلى هناك بأنفسنا، والآن».

في النهاية، قاما بالأمرَين معاً. فانطلقت إيغلانتين، المعروفة سابقاً بـ روزي ليوالتي ستعود إلى اسمها قريباً، من شربورغ أثناء قيام غروي وشارلوك برسم خطوط على خرائط وتحديد الحصن الأكثر احتمالاً. وعندما دنوا منه بعد عدة ساعات، كانت الشمس تتجه إلى الأُفُق وبات الشاطئ الإنكليزي خطاً قاتماً في البعيد.

«سيشاهَد مركب الصيد هذا في الحال»، أشار غروي. «سيرون السارية حتى بعد إنزال الأشرعة إذا افترضنا أنهم يواصلون المراقبة. لو كنتُ مكانهم، لفعلتُ ذلك».

«هناك قارب تجذيف مربوط جانباً»، قال شارلوك. «لقد رأيتُه عندما صعدنا إلى متن المركب. يمكنني وماتي التجذيف في اتجاه الحصن. وباستطاعتك مواصلة توجّهك إلى إنكلترا لإطلاق التحذير».

«ماذا لو جذّفتُ إلى الحصن معك، ويتوجه ماتي وجيني إلى الشاطئ؟».

«لا يمكننا الإبحار»، أشار شارلوك. كان قلبه يخفق بسرعة في صدره بسبب فكرة تطوّعه لهذا الأمر، ولكنه لم يرَ بديلاً آخر. «وعلاوةً على ذلك، ستصدّقك وزارة البحرية الملكية ووزارة الحرب قبل أن تصدّقني».

«أمر منطقي»، أقرّ غروي بتردّد.

«حيثما تشطِّط»، تابع شارلوك»، وإذا كنتَ قرب مَسفن بورتسماوث، مَسفن شاتهام، ديل، شيرنس، غريت يارماوث، أو بلايماوث، هناك محطات إعلام إشاريّ. إذا سلّمتهم رسالة، يمكنهم إرسالها عبر البلد بواسطة سلسلة الإعلام الإشاريّ، وصولاً إلى وزارة البحرية الملكية. ربما تكون أسرع من برقية».

أومأ غروي برأسه، وابتسم، ثم أخرج يده الضخمة الغليظة البشَرة وصافح يد شارلوك. «سنلتقي ثانيةً»، قال.

«أعتمد على ذلك»، أجاب شارلوك.

انسلّ شارلوك وماتي إلى داخل قارب التجذيف، وجذّفا بقوة وبسرعة في اتجاه موقع الحصن. باستطاعة قارب تجذيف الاقتراب دون أن يُرى، في حين يلاحَظ مركب صيد مهما كان مخفياً. وكما سبق لهم أن اتفقوا، تابع غروي وفرجينيا طريقهما إلى الشاطئ الإنكليزي حيث يمكنهما توجيه رسالة لتحذير الحكومة.

وقفت فرجينيا إلى جانب إيغلانتينأثناء ابتعادها عن قارب التجذيف، محدّقةً إلى شارلوك الذي ألقى نظرة سريعة إلى الوراء، متسائلاً عما إذا كان سيراها ثانيةً.

كان البحر أخضر اللون مائلاً للرّمادي ومائجاً، أثناء قيام الفتيَين بالتجذيف، فيما كان الحصن بُقعة مستديرة داكنة في الأُفُق لدرجة ظهوره كما لو أنه لا يقترب، بالرغم من تجذيفهما بقوة. تمكّن شارلوك من تذوّق الملح على شفتَيه، وتساءل عن كيفية توريط نفسه في هذه المغامرة الغريبة.

بعد مدة قصيرة، رفع نظره ورأى أن الحصن بات على بُعد مئات قليلة من الأقدام فقط: كان يبدو كتلة حجارة مبلَّلة ومكسوّة بعشب بَحري منبثقة من مياه القناة الإنكليزية. بطريقة ما، تمكنا من الاقتراب منه دون أن يلاحظهما أحد. لقد بدا فارغاً ومُقفِراً. أنعم النظر إلى الحافة المزوَّدة بفَتحات حيث كانت القوات البريطانية تراقب البحر، منذ عقود قليلة، بحثاً عن سفن حربية فرنسية مقتربة. لم يتمكن من رؤية أحد. لا أحد البتة.

أبحر قارب التجذيف قرب جدران الحصن، قاطعاً الأقدام القليلة الأخيرة في اتجاه الحصن الأسود الضخم، ووصل إلى أسفل مجموعة درجات حجرية زَلِقة

تؤدّي إلى الأعلى.

بسرعة، ربط ماتي الحبل بقضيب حديديّ صدِئ ثُبِّت داخل حفرة بين الحجارة. وتسلّق الفَتَيان الدرَجات بصعوبة. كاد شارلوك يفقد موطئ قدمَيه، وتعيّن على ماتي الإمساك به لمنعه من الوقوع في الماء.

«كيف نعرف أن الأوان لم يَفُت بعد؟» سأل ماتي.

«إنه الليل. النحل ينام في الليل. لم يحظَ خدّام البارون بوقت أكثر من الوقت الذي تطلّبنا للوصول إلى هنا. سيُطلَق النحل في الصباح».

عندما وصلا إلى الأعلى، جثما وراء جدار حجريّ منخفض يمتد حول الحافة الخارجية للحصن. كانت الفجوات بين الحجارة مكسوّة بالطُّحلب.

أنعم شارلوك النظر إلى المستوى الأعلى مفترضاً أنه السطح، عِلماً أن هذه «السفينة» الخاصة لن تذهب إلى أي مكان - ولكن الحجارة اللوحية فارغة من أي شيء باستثناء لِفافات حبال، وذُؤابات عشب بَحريّ، وقفص محطَّم من حين لآخر.

في الجانب الآخر للحصن، رأى التوهّج الفجائيّ لعود ثِقابٍ يضيء وجهاً ملتحياً يحمل على امتداده نَدْبة. أيًّا يكن مَن يدير هذا الحصن، فقد وضع فيه حرّاساً. كان وماتي بحاجة إلى التزام الحذر.

ابتعد الحارس عنهما، ورآه شارلوك يمرّ عبر فُتحة في السطح الحجري المزوَّد بدرابزين خشبيّ على امتداد ثلاث جهات منه. ربما يكون بيتَ درَجٍ يبلغ أعماق الحصن. وأثناء مواصلة الرجل الابتعاد، شدّ شارلوك قميص ماتي وسحبه في اتجاهه.

إنه مُحِقّ. تؤدّي مجموعة من الدرَجات إلى ظُلمة في الأسفل. واستقبلتهما رائحة الظلام والتعفُّن.

«هيا بنا»، هسهس شارلوك. «لِنذهبْ».

نزلا الدرَجات بسرعة إلى أعماق الحصن. لقد بدا في بادئ الأمر أسود كالجحيم، ولكن عينَي شارلوك تكيّفت بعد لحظات قليلة وتمكن من رؤية فوانيس زيت مثبَّتة بالجدار على مسافات منتظمة. كانا في ممرّ قصير بدا مفتوحاً على غرفة أوسع وداكنة أكثر مُضاءة بنور برتقالي منبعث من المصابيح.

زحف شارلوك وماتي على امتداد الممرّ إلى حيث تظهر جدرانٌ بشكل فجائيّ، وتحتلّ المساحة الدائرية على الأرجح لمعظم المستوى الموجودَين فيه. وتسند بعضُ الأعمدة، التي تفصل بين كلّ منها بضع ياردات، السقفَ

فوقهما، ولكن ما جعل نفَس شارلوك يتسارع هي قُفران النحل المصفوفة بشكل منتظم عبر الحجارة اللوحية؛ هناك المئات منها مع عشرات آلاف النحل في كل قفير، مما يعني وجود مليون نحلة عدوانية، تقريباً، على بُعد أقدام قليلة منه. لقد شعر برغبة في حَكّ بشرته في رد فعل غير متعمَّد على قربها، كما لو أنها تسير على كتفَيه وتتجه نزولاً على عموده الفِقري. سواءً نجح مخطط موبرثْوي العظيم أم لا في كل أنحاء بريطانيا، فوجود كل هذا النحل في مكان واحد هو أمر خطر تماماً لكل الموجودين في الموقع.

«قُل لي إننا لن نحملها على الدرَج ونرميها من فوق الحافة»، همس ماتي.

«لن نحملها على الدرَج ونرميها من فوق الحافة»، أكد شارلوك.

«إذاً، ماذا سنفعل؟».

«لست متأكداً».

«ماذا تعني بأنك لست متأكداً؟».

«أعني أن لا فكرة لديّ بعد. حدث كل شيء على عَجَل».

نخر ماتي. «كان لديك كثير من الوقت على متن مركب الصيد».

«كنت أفكر في أمر آخر».

«أجل»، قال ماتي، «لاحظتُ ذلك». ولزم الصمت للحظات. «باستطاعتنا إضرام النار فيها»، أشار.

هز شارلوك رأسه. «انظر إلى الفُسحة بينها. بإمكاننا إضرام النار في قفير واحد أو قفيرَين، ولكن ألسنة اللهب لن تنتشر وقد ينال النحل منا».

ونظر ماتي من حَوله. «ماذا تأكل؟» سأل.

«ماذا تعني؟».

«نحن في القناة الانكليزية. لا أزهار هنا، ولا أعتقد أن بالإمكان اعتبار العشب البحري مصدر غذاء لها. ماذا يأكل النحل؟».

فكر شارلوك للحظات. «إنه سؤال جيد. لا أعرف». وألقى نظرة سريعة من حَوله. «لِنُلقِ نظرة على المكان علّنا نجد شيئاً ما. لِنفترِقْ ونلتقِ في الجانب الآخر. لا تَدَعَ أحداً يقبض عليك».

اتجه ماتي يساراً وشارلوك يميناً. ناظراً إلى الوراء، وجد شارلوك أن الظلام ابتلع ماتي.

كانت الصفوف المتراصّة لقُفران النحل التي يمرّ أمامها تقوم على صورة شكلٍ نمطيّ منوِّم تقريباً. لم يتمكن من رؤية أي نحلة - ربما يُبقيها الظلام محبوسة في القُفران - ولكنه اعتقد أنه سمعها: طنين منوِّم منخفض عند حافة وعيه تقريباً. ولاحظ وجود إطارات خشبية في نقاط متنوعة من المساحة الكهفية، وفي بعضها صوانٍ خشبية، والأخرى فارغة. فتساءل شارلوك عن مكان رؤية صوانٍ مماثلة من قَبل. هناك شيء ما مألوف في شأنها.

خرج من الظلام شكل بشري غريب: رجل يرتدي بِذلة خَيش غُطّي رأسها بقَلَنسوة من الموسلين بعيدة عن وجهه بواسطة أطواق من الخيزران. وانحنى فوق صندوق كبير - أحد الصناديق الكثيرة التي تمكن شارلوك من رؤيتها مصفوفة على امتداد هذا الجزء من الجدار المتقوّس الذي يشكل حداً للمساحة. قوّم وقفته، حاملاً صينية كتلك الموضوعة داخل إطارات شبيهة بالمناصب الخشبية المبعثرة في الأرجاء، وتوجّه نحو القُفران. لقد بدا الأمر كما لو أن ضباباً رقيقاً ارتفع من الصينية أثناء قيام شارلوك بمراقبته يغادر.

تذكّر عندما وصل الرجل المرتدي بِذلة نحل إلى إطار، ووضع الصينية في داخله. سبق له أن رأى مُربِّيَ نحل في البِذلات نفسها، في منزل البارون موبرثْوي خارج فارنهايم تماماً، ينقلون صواني مماثلة من تحت القُفران. بعد ذلك، اكتملت الصورة في ذِهنه تماماً - الصواني، ضباب المسحوق المرتفع منها، الثلج الذي رأى المجرم دِني يُنزله من القطار في فارنهايم، وسؤال ماتي عن كيفية تناول النحل الطعام في غياب أزهار. كل شيء منطقيّ تماماً! يجمع النحل اللَّقاح من الأزهار، مخزِّناً إيّاه على شعرات رفيعة على قوائمه حتى تصل إلى القفير حيث تستعمله طعاماً. ضَعوا صينية تحت القفير، وأوجدوا بوّابة من نوع ما يتعيّن على النحل عبورها إلى داخل القفير، تتمكنوا من نفض بعض اللَّقاح عن قوائمها وجمعها في صوانٍ. ضَعوا الصواني على ثلج، تتمكّنوا من تخزين اللَّقاح حتى يحين موعد حاجتكم إليه - على سبيل المثال، عندما يتم الاحتفاظ بالنحل في مكان لا وجود لأزهار فيه. ضَعوا الصواني مبعثَرةً في الأرجاء، فيتمكنِ النحل من جمع اللَّقاح منها دون أن يدرك أنه يجمع اللَّقاح للمرة الثانية.

تذكّر فارنهايم ومحطة القطارات، لفتت ذِكرى أخرى انتباه شارلوك: شيء ما سبق لماتي أن قاله. شيء ما عن مسحوق، عن مخابز.. ونقّب في ذاكرته، محاولاً تذكّر الكلمات.

أجل. مسحوق.. طحين.. سبق لماتي أن ذكر ناراً اندلعت في مخبزٍ عمل فيه ذات مرة. قال إن مسحوقاً كالطحين يكون قابلاً للاشتعال إلى حد كبير عندما

يطفو في الهواء. فإذا التقطتْ ذَرّةُ طحين واحدة ناراً، تنتشر النار من ذَرّة إلى أخرى بطريقة أسرع مما يمكن للمرء أن يتخيّلها.

وإذا نجح الأمر مع الطحين فقد ينجح أيضاً مع اللَّقاح.

«تستحق أفكارك بنساً واحداً»، قال صوت خلفه.

فاستدار شارلوك، عالِماً من سيرى.

إنه السيد سورد، خادم البارون موبرثْوي الأمين، واقفاً في الظلال. كان السّوط الجِلدي متدلّياً من يده وملتفاً حول قدمَيه بشكل لولبيّ.

«لا تهتم»، قال سورد، وهو يدنو من شارلوك. «إذا أراد البارون معرفة ما يدور في رأسك، سلّمتُه رأسك وقام بسحب الأفكار منه بنفسه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

وقف شارلوك جانباً، وانحرف السيد سورد ليتبعه، جارًّا الرأس المعدني للسَّوط على الأرض مع تحرّكه.

كان وجه سورد قناعاً من اللامبالاة المهذَّبة، ولكن النُّدوب التي ترسم خطوطاً متقاطعة على فروة رأسه كانت حمراء وملتهبة غضباً.

«هل جعلك البارون تمرّ في وقت عصيب؟» سخر شارلوك. «لقد تركتَنا نهرب كما لو أن ذلك لا يؤثّر البتة في سمعتك. أراهن على أن البارون ينبذ الخدّام عديمي النفع كما يرمي أي رجل آخر عود ثِقاب مستعمَل».

بقي وجه سورد جامداً، ولكن يده انتفضت واندفع السَّوط. برم شارلوك رأسه إلى جانب واحد قبل أقل من ثانية من قيام الرأس المعدني للسَّوط بشقّ أُذُنه.

«إنها خُدعة سيرك صِرفة، ولكنّ هناك عدداً أكبر من الخُدَع الأفضل»، تابع شارلوك، محاولاً عدم السماح لصوته بالتداعي وخيانته. «ربما تمكن موبرثْوي من استئجار رامي سكاكين في المرة القادمة».

مرةً أخرى، اندفع السَّوط ومرّ رأسه قرب أُذُن شارلوك اليسرى، مُصدراً طقطقة أصمّت أُذُنَيه مؤقتاً. لقد اعتقد بأنه أغفله، ولكن رذاذ دم دافئ وفجائيّ على عُنُقه، وألماً شديداً مطّرداً على جانب رأسه، أوحيا بأن الرأس المعدني حقّق إصابة. تمايل جانبياً، واضعاً يده على أُذُنه. لم يكن الألم كبيراً، ليس بعد، ولكنه أراد تغيير موقعهما ولم يبلغ موقعَه المحدَّد بعد.

«كل استهزاء بي يعني قطعة من اللحم أنزعها عن وجهك»، قال سورد بهدوء. «ستتوسّلني كي أقتلك، وسأضحك فحسب. سأضحك».

«اضحك ما دام بإمكانك الضحك»، قال شارلوك. «ربما تمكنتُ من إقناع البارون باستخدامي مكانك. على الأقل، لقد أثبتُّ أنني أكثر كفاءة منك».

«سأبقيك حيًّا مدةً كافية كي ترى الفتاة ما فعلتُ بك»، تابع سورد كما لو أن شارلوك لم يقل شيئاً. «لن تكون راغبة في النظر إليك. ستصرخ لدى رؤيتك. ما سيكون موقفك، أيها الفتى؟ ما سيكون موقفك؟».

«تتحدث عن قتال كُفْء»، قال شارلوك. وقام بخطوة جانبية أخرى. ومدّ يده اليمنى وأطبقت أصابعه المتلمّسة على حافة إحدى الصواني. إنها باردة بسبب الثلج تحتها.

«ماذا تفعل، يا فتى؟» سأل سورد. «تعتقد أن هناك ما سينقذك؟ أنت مُخطئ.. مُخطئ».

«الشيء الوحيد الذي سينقذني هو عقلي»، قال شارلوك، واضعاً الصينية أمامه. وتناثر اللَّقاح منها، أصفر وأشبه بمسحوق، ما دفعه للسُّعال. وانهال سورد بسَوطه ثانيةً، مستهدفاً عين شارلوك اليمنى، ولكن شارلوك رفع الصينية كدِرع والتفّ السَّوط حولها، وغاص الرأس المعدني داخل الخشب وعلِق. فشدّ شارلوك بقوة، ساحباً مِقبض السَّوط من قبضة سورد المندهش، ورامياً إيّاه جانباً.

خار سورد كثَور واندفع إلى الأمام، فاتحاً ذراعَيه. فالتقط شارلوك صينية أخرى عن الصندوق وحطَّمها على رأس سورد، فتمايل الرجل إلى الوراء، مغلَّفاً بمسحوق أصفر خانق. إذا نجا سورد، سيكون لديه مزيد من النُّدوب على فروة رأسه.

بالطبع، إذا نجا سورد ربما لقي شارلوك حتفه.

خطا شارلوك إلى الأمام والتقط أُذُنَي سورد. ورفع ركبته، وصدم وجه سورد بها. فتحطّم أنف سورد وطقطق بصوت عالٍ كطقطقة سَوطه، وترنّح إلى الوراء، وتدفّق الدم من فمه وذَقنه.

قبل أن يتمكن سورد من الهجوم مجدداً، التقط شارلوك السَّوط عن الأرض وسحب الرأس المعدني من الصينية الخشبية، محرِّراً السوط الجِلدي. وعندما خرج سورد المستشيط غضباً من سحابة اللَّقاح وانقضّ على شارلوك، انهال عليه بالسَّوط. لم يسبق لشارلوك أن استخدم سَوطاً، ولكن مراقبة سورد أظهرت له كيفية القيام بذلك. لقد اندفع السَّوط بشكل لولبيّ في اتجاه المجرم الأصلع، وشقّ الرأس المعدني خدّه. فارتدّ سورد إلى الوراء بسبب قوة الاصطدام في اتجاه أحد قُفران النحل مباشَرةً.

سقط القفير، وسقط سورد معه، في داخله. تفكّكت القِدد الخشبية بعد اصطدامها بالأرض الحجرية، مغطّيةً إيّاه بالمحتوي الشَّمعيّ اللزج للقفير.

والنحل.. آلاف النحل.

لقد غطت وجهه كقَلَنسوة حية، دابّةً إلى داخل أنفه وفمه وأُذُنَيه، لاسعةً حيثما ذهبتْ. صرخ وانطلق صفير خافت ارتفع شيئاً فشيئاً. وتدحرج، محاولاً سحق النحل، ولكنه أوقع قفيراً آخر.

في غضون لحظات، أصبح السيد سورد غير مرئيّ تحت ملاءة من الحشرات التي تلسع كل بوصة مربَّعة من اللحم الذي تستطيع العثور عليه. وكُتِمت صرخاته بالنحل الذي يملأ فمه.

تراجع شارلوك، مروَّعاً. لم يسبق له أن رأى أمراً مماثلاً. كان يقاتل دفاعاً عن حياته، ولكن ما حدث لسورد رهيب جداً لدرجة شعوره بالغثيان. لقد مات الرجل.

«لا أستطيع تركك بمفردك للحظة واحدة، أليس كذلك؟» قال ماتي من ورائه.

«هل تعتقد أنني أحب التورط في قتال؟» قال شارلوك، مُدركاً أن صوته يرتجف إلى حد إصابته بالهستيريا. «أشعر بأنها تلاحقني».

«حسناً، يبدو أنك أبليتَ بلاءً حسناً»، قال ماتي.

«أعرف ما عليّ القيام به»، قال شارلوك، محاولاً السيطرة على صوته. وأشار إلى سُحُب اللَّقاح الأصفر التي تتبدد في المساحة الكهفية داخل الحصن. «كانت هناك صوانٍ مكدَّسة في تلك الصناديق. علينا نثر ذلك اللَّقاح في هذا المكان».

«لماذا؟» سأل ماتي.

«هل تذكر ما قلتَه لي عن المخبز في فارنهايم؟» سأل شارلوك.

والتمعت عينا ماتي فَهماً. «فهمتُ ما تعني»، قال. ثم اكفهرّ وجهه. «ولكن ماذا عنا؟».

«علينا إيقاف هذا الشيء، وإيقافه الآن. نحن أقل أهمية من مئات، لا بل آلاف الأشخاص ربما، الذين سيقضون إذا لم نوقفه».

«حتى وإن...» قال ماتي. وأطلق فجأةً ابتسامة عريضة لدى رؤية أثر الصدمة في وجه شارلوك. «كنت أمزح فقط. لِنَقُم بذلك».

التقطا معاً أكبر قَدْر ممكن من صواني اللَّقاح الأصفر البارد من صناديق الثلج وعبرا الممرات بين القُفران بسرعة، ناثرَين المسحوق ومتسبّبَين بسُحُب وراءهما. في غضون عشر دقائق، امتلأ الجوّ ذَراتٍ طافيةً لدرجة عدم تمكنهما من الرؤية أمامهما مسافة عشر أقدام، وبات من الصعب التنفس دون الاختناق. وأمسك شارلوك ماتي بكتفه.

«لِنذهبْ»، قال.

أُعشي بصرهما بسبب سُحُب اللَّقاح، فتلمّسا طريقهما في اتجاه الممر وصولاً إلى الدرَج، محاولَين تبديد السُّحُب الصفراء وعدم النظر إلى أيّ قفير.

اصطدمت قدم شارلوك بشيء ما ليّن، وكاد يقع فوقه. نظر إلى الأسفل، فرأى كتلة لحم متورّمة مكسوّة ببُقع حمراء، وعرف أنه وجه السيد سورد. كانت عينا سورد غير مرئيّتَين في ثنايا بشرة متورّمة، وفمه مليئاً بنحل مَيت.

بالرغم من كل شيء، شعر شارلوك برغبة شديدة في مساعدة الرجل الذي ينازع، ولكن بعد فوات الأوان. شعر ببَرْد وغثيان، فتابع السير.

وصلا إلى جدار حجري.. فلم يعرفا إلى أين يتّجهان: إلى اليمين أم إلى اليسار؟ اختارا اليسار وتَقدّم ماتي مُمسكاً بقميصه وساحباً إيّاه.

بدا الأمر كما لو أن ساعات مرت، ولكن الأمر لم يتطلّبهما سوى أقل من دقيقة للعثور على الممر. استدار شارلوك ونظر إلى الوراء. لم يكن هناك أي شيء خلفه باستثناء جدارٍ مسحوقٍ أصفر مدلّى في الهواء.

مدّ يده وتناول فانوس زيت عن الجدار الحجري للممرّ. أماله بيده، وفكّر في النحل البريء عدا كونه ما هو عليه.

لا خيار أمامه.

رمى الفانوس الذي اتّبع مساراً متقوّساً داخل سحابة اللَّقاح، وغاب عن الأنظار. بعد لحظات، سمع تحطّم زجاج مع اصطدامه بالأحجار اللوحية.

وتلا ذلك صوت اشتعال مع التقاط اللَّقاحِ النار.

دفعت قبضة يد غير مرئية شارلوك في صدره، فطار إلى الوراء عبر الممر. لقد بدا الهواء بذاته يشتعل أمامه، وشعر بالنار تسفع شعر حاجبيه وجفنيه. اصطدم بالأرض بقوة وتدحرج، وهبط ماتي فوقه.

لقد تحوّل الممر وراءهما إلى مكان جهنّميّ من ألسنة لهب. كمّ شارلوك فمه بيده، وتقدّم ماتي على الدرَج وصولاً إلى أعلى الحصن. واندفع الهواء بجانبهما، مغذّياً النار تحتهما.

شاهدا الحرّاس يندفعون ذهاباً وإيّاباً، صائحين مذعورين في أعلى الحصن. كانت السماء قاتمة مع وجود خط أحمر في الأُفُق يُظهر مكان الشمس. لم ينتبه الحراس للفتَيَين الراكضَين أمامهما واللذَين نزلا الدرج وصولاً إلى البحر ومن ثم إلى داخل قارب التجذيف.

أثناء التجذيف، استدار شارلوك لينظر إلى الوراء. كان الحصن بأكمله مشتعلاً، وأشرار موبرتْوي يرمون بأنفسهم من الأعلى إلى الماء، وكانت النار تشب في بعضهم، فبدوا كنيازك تشق الظّلام إلى داخل البحر.

إنه منظر لن ينساه شارلوك أبداً.

كانت الرحلة إلى القناة الإنكليزية مزيجاً من أذرعة مؤلمة، وبشرة محروقة ومتوّهجة، وإنهاك بَحت. في وقت لاحق، سيتساءل شارلوك عن كيفية تمكنه

وماتي من النجاة دون انقلاب القارب، أو التيه داخل المياه، أو جَرف البحر لهما.

بطريقة ما، عرف آميوس غروي أين سينتهي بهما الأمر. ربما اعتمد على حركة التيارات واتجاه الريح، أم أنه حزر فحسب. لم يكن شارلوك على عِلمٍ بهذه التفاصيل، ولم يكن يُبالي. أراد فقط أن يُلَفّ ببطانية ويودَع سريراً مريحاً، وحدث ما أراد في الواقع لمرة واحدة.

لقد استيقظ في صباح اليوم التالي على نداء طيور النَّورس خارج نافذة غرفة النوم، والشمس تتلألأ على صفحة مياه البحر، مُحدِثةً أشكالاً نمطية على سقف غرفته. كان يتضوّر جوعاً. رفع أغطية السرير عنه، وارتدى ملابس ليست له ولكنها على قياسه الصحيح، وقد تُركت على ظهر الكرسي بانتظاره. نزل الدرج الذي لا يذكر صعوده ليجد نفسه في غرفة جلوسٍ في حانةٍ تؤجِّر غرفها كما يبدو لمسافرين، ولمغامرين.

كان هناك أرض مفتوحة تمتد من مقدَّم الحانة، ومن ثم تنحدر الأرض بقوة في اتجاه البحر، فتعيّن على شارلوك حماية عينَيه من أشعة الشمس الساطعة. كان ماتي آرنات جالساً إلى طاولة في الخارج، وهو يلتهم شهياً، وبجانبه آميوس غروي يدخّن غليوناً.

«صباح الخير»، قال غروي بمودّة. «هل أنت جائع؟».

«بإمكاني تناول حصان».

«من الأفضل ألا تدَع جيني تسمعك تقول ذلك». وأشار غروي إلى مقعد عند الطاولة. «اجلسْ. سيكون الطعام جاهزاً بعد قليل».

جلس شارلوك. كانت عضلاته تؤلمه، ولا تزال أُذُناه تطنّان بسبب الانفجار، وعيناه جافّتَين ومثيرتَين للحكاك. لقد شعر بأنه مختلف، بطريقة ما؛ كان أكبر سنًّا. سبق له أن رأى أشخاصاً يموتون، وتسبَّب بوفاة أشخاص، وخُدّر باللاودنوم، وعُذِّب بالسَّوط. كيف يعود إلى مدرسة ديبدن للفتيان الآن؟

«هل تمّت معالجة كل شيء؟» سأل أخيراً.

«تلقّى شقيقك الرسالة التي وجّهناها، فاتخذ تدابير فورية. أعتقد أن سفينة تابعة للأسطول البحري الحربي متّجهة الآن إلى الحصن النابوليوني، ولكن استناداً إلى ما تمتمتَه ليلة أمس، أعتقد أنهم لن يجدوا سوى رماد. وحتى لو تمكنت الحكومة البريطانية من إقناع الفرنسيين بالتحقّق من قصر موبرتْوي، أعتقد أنهم سيجدونه فارغاً. لا بد من أن يكون قد غادر مع خدّامه، ولكن مخططه زال كزوال منزلٍ مشيَّد بورق لَعِب في مهبّ ريح عاتية، ويعود الفضل في ذلك لك ولماتيو».

«ما كان مخطّطه لينجح أبداً»، قال شارلوك، متذكراً المواجهة بينه هو وفرجينيا وبين البارون. «ليس بالطريقة التي أراد».

«ربما. وربما لا. ولكنني أعتقد أن بعض الناس كانوا سيلقون حتفهم، وقمتَ بإنقاذهم. باستطاعتك شكر نفسك على هذا الأمر، وسيشكرك شقيقك أيضاً عندما يصل».

«مايكروفت قادم إلى هنا؟».

«إنه على متن القطار».

خرجت من الحانة امرأة بمِئزر، حاملةً طبقاً بدا مليئاً بكل طعام ممكن يرغب فيه إنسان فَطوراً له، إضافةً إلى كثير من الأصناف التي لم يعرفها شارلوك. ابتسمت ووضعت الطبَق أمامه.

«كُل بشراهة»، قال غروي. «أنت تستحق ذلك».

توقف شارلوك للحظات. لقد بدا كل شيء من حَوله حادّ الأطراف وبعيداً قليلاً في آن.

«هل أنت بخير؟» قال غروي.

«لست واثقاً»، أجاب شارلوك.

«مررتَ بتجارب كثيرة. لقد صُرعتَ، وخُدّرتَ باللاودنوم، عدا قتالات عديدة والتجذيف مسافةً طويلة. لا بد من أن يؤثّر كل ذلك في جهازك».

اللاودنوم! متذكراً الأحلام الغريبة التي رآها بعد تخديره، أثناء نقله إلى فرنسا، شعر شارلوك بلَذعة.. ماذا؟ كآبة؟ ربما. شوق حزين؟ بالتأكيد لا... تَوق؟ أيًّا يكن الشعور، فقد تناساه. سبق له أن سمع قصصاً عن أشخاص باتوا يعتمدون على مفعول اللاودنوم، ولم يكن راغباً في سلوك هذا الطريق مطلقاً.

«كيف حال فرجينيا؟» سأل لوضع حدّ لمِزاجه.

«حزينة لأنها أغفلت كل المرح. وهي تفتقد حصانها، بالطبع. تريد إلقاء نظرة على أنحاء البلدة، ولكنني قلتُ إنها لا تستطيع الذهاب بمفردها. أظن أنها ستكون سعيدة باستيقاظك».

حدّق شارلوك إلى البحر. «لا يمكنني التصديق أن كل شيء انتهى»، قال.

«لم ينتهِ بعد»، قال غروي. «إنه جزء من حياتك الآن، وحياتك ستتواصل. لا يمكنك فصل هذه الأحداث كما لو أنها قصة ذات بداية ونهاية. أنت شخص

مختلف بسبب هذه الأحداث، وذلك يعني أن القصة لن تنتهي حقاً. ولكن بصفتي مدرّسك الخصوصي، فإن سؤالي هو: ماذا تعلّمتَ من كل ذلك؟».

فكّر شارلوك للحظات. «تعلّمتُ»، قال أخيراً، «أن النحل فاتن وأنه مخلوقات مُهمَلة جداً. أعتقد أنني أريد معرفة مزيد عنه، لا بل أيضاً محاولة تغيير آراء الناس فيه». وتجهّم وجهه. «ربما أدين للنحل بذلك لأنني قتلت أعداداً كبيرة منه». وألقى نظرة سريعة على ماتي آرنات. «ماذا عنك، يا ماتي؟ ماذا تعلّمتَ؟».

رفع ماتي نظره عن فَطوره. «تعلّمتُ أن المرء بحاجة إلى من يهتم به وإلا قتلتْه أفكاره المنطقية».

«هل تتطوّع للمنصب؟» سأل آميوس غروي، وعيناه تبوحان بمِزاج طيّب.

«لست أدري»، أجاب ماتي. «كم أتقاضى؟».

أثناء ضحك غروي، واعتراض ماتي قائلاً إنه جدّي، حدّق شارلوك إلى البحر، متسائلاً عما يحدث في الحياة التالية. فشعر كما لو أنه حُوِّل إلى طريق لم يكن يعرف أنه موجود. ماذا سيجد في آخره؟

تحرك شيء ما على طرف بصره، مجتذباً انتباهه، فألقى نظرة سريعة قرب الحانة حيث يكمل الطريق في الاتجاهَين. كانت عربة تدنو؛ عربة سوداء يجرّها حصانان أسودان. لقد اعتقد للحظات أن مايكروفت وصل، وهمّ بالنهوض.

عندئذٍ، رأى وجهاً أبيض بلون العظام، وعينَين زهريّتَين تحملقان إليه عبر الزجاج قبل أن تُسدِل يد بقفّاز الستارةَ بحزم أثناء مرور العربة أمامه، وعلم بأنه مُحِق: لن تبقى الأمور على حالها أبداً. سيبقى البارون موبرثْوي والبارادول تشامبر هناك ولن يرتاحوا أبداً.

يعني ذلك أنه لن يرتاح أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

تمهيد..

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

Notes

[1] نسيج رقيق كان يُتّخَذ للحِداد. [←1]

[2] نسيج صوفيّ رقيق. [←2]

[3] تركيب من خشب أو فولاذ على طول قاعدة السفينة يُبنى عليه هيكلها. [←3]

[4] قُضبان رفيعة من الجَريد أو القصب تُجدَل لصنع الأثاث أو السِّلال أو سواها [←4]

[5] سبيكة من القَصدير والرصاص أو معدن آخر تُستعمل لصنع الأقداح أو الأطباق. [←5]

[6] مركبة بعجَلتَين يجرّها حصان، يركبها شخصان، وذات مقعد خلفيّ للسائق. [←6]